محمّد فنطر

يوغرطة

من ملوك شمال افريقيا وأبطالها

الباب الأول

مسينيسا

نشأته وأوصافه

لمّا أقبل الفنيقيون على افريقية وجدوها آهلة تقطنها قبائل عديدة لها حضارتها وتقاليدها ونظمها السياسية . فلقد أبقى لنا التاريخ أسماء ملوك أفارقة قادوا القبائل وحكموها منذ أقدم العصور . تحدّث المؤرّخ الروماني يُوستانُ (Justin) عن ملك افريقي يدعى يَرْبَاص «Iarbas» عرفه الفنيقيون لما ألقت سفنهم مراسيها على سواحل شبه جزيرة توناس (Tunes) حيث أسّسوا قرطاج . على أنّ ما قاله القدماء حول يَرْبَاصَ وغيره من ملوك الأفارقة حتّى القرن الرابع قبل المسيح لايكفينا مؤونة إذا أردنا التعرّف عليهم وعلى سياستهم . فلا نعرف عنهم غالباً سوى أسمائهم . أشار يوستانُ إلى ملك كان يسوس قبائل بني مَاوَرَ في القرن الرابع قبل المسيح ، على أنّه لم يذكر لنا اسم الملك بل يشير إليه ذاكراً أنّ أحد البونيقيين يدعى حنّون أراد التسلّط على الحكم في قرطاج فطلب من ملك بني ماوريَدَ

... . ورد هذا في السفر الواحد والعشرين من تاريخ يوستان ، لكنّنا نجهل مدى سلطان ذلك الملك واتّساع مملكته وعدد القبائل التي كانت تعيش تحت صولجانه ، كما لم يذكر المؤرّخ شيئاً عن الطرق التي كان يتوخّاها ملك بني ماور في سياسته الداخلية والخارجية .

وذكر ديودور الصقلّي في السفر العشرين من تاريخه ملكا لوبيّا يدعى أيلماس ، لكنّه لم يعرّف به ولا بمملكته ولا بالقبائل التي كان يسوسها أيام زحف أغتوكلاس (19) «Agathoclès» على افريقية في أواخر القرن الرابع قبل المسيح وكان يستهدف القضاء على قرطاج ملكة البحر الأبيض المتوسّط ، وعقد أغتوكلاس حلفاً مع الملك اللوبي على حدّ قول ديودور الصقلّي . فهل كان أيلماس ملكا على قبائل بني ماسيل ؟ وربوعها تتضمّن المنطقة الشرقية من القطر الجزائري الشقيق وعلّها كانت تمتدّ حتى مدينة مكثر . على أنّ النصوص القديمة تثبت وجود المملكة الماسيلية منذ القرن الرابع قبل المسيح وليس في إمكاننا نفي كيانها قبل ذلك التاريخ . فصمت المصادر عن شيء لايحتّم عدم وجود ذلك الشيء . من ذلك نكون قد أخطأنا إذا قلنا بنشأة المملكة الماسيلية في القرن الرابع قبل المسيح . فكلّ ما يمكننا قوله هو أنّ أقدم

(19) فيما يتعلق بزحف اغاتكلاس انظر : B. H. WARMINGTON *Histoire et civilisation de Carthage* P. 152 - 164.

ما لدينا من الوثائق حول هاته المملكة يعود إلى ذلك القرن ممّا لاينفي ولا يثبت وجودها قبل هذا التاريخ ، وبذلك نكون أدّينا بإخلاص وأمانة محتوى النصّ القديم . وليس للمؤرّخ أن يتعدّى حدود النصوص والشهادات . والإخلاص نحو الوثائق أساس كلّ عمل تاريخي علمي . فعلى المؤرّخ أن يخضع للوثائق وليس له أن يستخرج منها مالا تحتويه ، وهذه هوّة قد ينزلق فيها المؤرّخ إن لم يتشبّث بسلطان العقل ويبتعد عمّا قد يرومه ويتلاءم مع عقائده وأهوائه . فهدف المؤرّخ هو إحياء الماضي قصد فهم الحاضر وسبك المستقبل (20) .

ومهما يكن من أمر فالمصادر القديمة - يونانيةً كانت أو رومانية - لا تكفي لدراسة ماضي الأفارقة وحضارتهم في فجر التاريخ . فكيف كانوا قبل حلول الفنيقيين بينهم ؟ لقد تعسر علينا معرفة ذلك معرفة دقيقة ضافية . إنّنا لا نشكّ في وجود حضارة افريقية منذ أواخر الألف الثانية قبل المسيح ، حضارة لها نظمها السياسية وتقاليدها ، ممّا يثبت أنّ سكان هاته الربوع قد تجاوزوا المرحلة البدائية . فلمّا حلّ ركب عليسة بالديار التونسية وجدوا أهل البلاد منظّمين عاملين تحت ظلّ صولجان الملوكية ، ممّا ينبىء

(20) راجع: J. GALMETTE, *la France au moyen-âge* - Paris 1942 في مقدمة هذا الكتاب ص. 6 - 12 يبين العلاقة المتينة التي تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل .

بتطوّرهم في ميادين السياسة والاجتماع . لكنّه من العسير أن نقدّر ذلك التطوّر حقّ قدره . فأصداء ذلك في كتب القدماء ضئيلة ، ولعلّ الذين صنّفوا الكتب والرسائل من بين الأفارقة القدامى ذكروا أشياء تتعلّق بمجتمعهم القديم ، لكنّ مؤلّفاتهم انقرضت جميعها . ورد في بعض الكتب الرومانية أنّ الملك يُوبَا الثاني- وقد تبوّأ عرش بني ماور في القرن الأول بعد المسيح- ورد أنّه صنّف كتبا عديدة في التاريخ والجغرافيا (21) .

على أنّ الأثريين كشفوا الغطاء على بعض بقايا الحضارة الإفريقية العتيقة . وقد حاول بعض المؤرّخين رسم لوحة عن هاته الحضارة على ضوء ما ذكره اليونان والرومان وعلى ضوء المعطيات الأثرية وإن كانت بسيطة متواضعة من حيث مظهرها عسيرة من حيث الاستنطاق والتفسير .

على أنّ المعطيات الأدبية والأثرية تتكاثر ابتداء من القرن الثالث قبل المسيح . ولئن تناول اليونان والرومان الحديث حول الأفارقة وأطالوه ابتداء من القرن الثالث فذلك لالشيْ سوى أنّ الأفارقة لعبوا دوراً عظيما في الحروب التي شبّت بين البونيقيين والرومان حتّى كان من العسير على مؤرّخ أن يتحدّث عن هاته الحروب دون أن يتعرّض للأفارقة . وتعدّدت كذلك المصادر

(21) يوبا الثاني ملك افريقي عاش في القرن الاول بعد المسيح وكان اقرب الى الادب وتصنيف الكتب منه إلى العرش والسياسة .

الأثرية كالبنايات ، ومن أشهرها ضريح دقة ، (22) ويبدو أنّهم شيّدوه ليأوي جثمان أمير نوميدي . ومن تلك المصادر الأثرية نقائش خطّت سطورها بأحرف لوبية يمكنك مشاهدة نماذج منها في معروضات متاحفنا القومية . ومنها نقود ضربت في المصارف اللوبية وعليها صور الملوك الأفارقة ، وكنّا قد أشرنا إلى التي تحمل صورة يوغرطة .

فيبدو على ضوء هاته المصادر المختلفة أنّ مَغْربنا الكبير كان إذ ذاك منقسما إلى أربعة أقسام سياسية فالديار التونسية كانت تخضع لنفوذ قرطاج. وإلى جانب الأراضي البونيقية كنت تجد مَمْلَكَاتٍ ثلاث : مملكة بني ماور وكانت تمتدّ من المحيط إلى نهر الملوية . وتتبعها مملكة بني مازيسيل وكانت تَمْتَدُّ من نهر الملوية إلى مدينة سرتة Cirta وإن كانت حدودها الشرقية تتميّز بعدم الاستقرار . كانت تتقدّم وتتقلّص حسب الظروف السياسية . وأشهر من تبوّأ عرش هاته المملكة رجل يُدْعَى سيفاكس Syahax (23) . ثم نجد مملكة ثالثة تعيش تحت صولجانها قبائل بني ماسيل ، وتمتدّ أراضيها من رأس بوقرعون غرباً إلى الحدود البونيقية شرقا ، وكانت هاته الحدود

(22) انظر : C. POINSSOT. *Les ruines de Dougga.* Tunis 1958 . P. 58-61.

(23) ملك بني مازيسيل عاش في القرن الثالث قبل المسيح وقد تزوج فتاة بونيقية تدعى سفونزبة ابنة عزربعل تزوّجها توطيداً للحلف الذي عقده مع صديقه حنبعل .

تتقدّم نحو الشرق وتتقلّص نحو الغرب حسب الظروف السياسية فيبدو أنّ مدينة مكثر (24) ، ومدينة الكاف(25) خضعتا إلى سلطان قرطاج حيناً وإلى صولجان بني ماسيل حيناً آخر . وكانت مملكة بني ماسيل تضمّ جبال الأوراس ، وأعظم ملك تبوّأ عرش بني ماسيل هو بلاريب مَسّنيسا ونريد أن نقدّمه لكم في الصفحات التالية .

تحدّث المؤرّخون القدامى عن مسّنسيا عرضاً ؛ ذكروه باعتبار الدور الذي لعبه أثناء الحرب البونيقية الثانية ، (26) وقد يعود الفضل إليه وإلى فرسانه في تفوّق الجيوش الرومانية حتّى تسلّطت على افريقية . نظر القدماء إذاً إلى مسّنيسا من زاوية الحروب التي خاضها ضدّ أهل قرطاج ، فهم لم يذكروه تخليداً لتاريخه وبطولته . بل اكتفوا غالبا بالحديث عمّا قد ييسّر للقارئ معرفة الحروب التي خاضتها رُومَا . لذلك لن تجد في الكتب القديمة شيئاً عن طفولة مسّنيسا . ولماذا الحديث عنها

(24) انظر : G. PICARD *Civitas Mactatitana in Karthago VIII*, 1958

(25) كانت مدينة الكاف تسمى سقة فينيريا . لدينا عنها وثائق ادبية تعود إلى القرن الثاني قبل المسيح حيث ذكرها بوليب اثناء حديثه عن حرب المرتزقين التي شبت نارها غداة الحرب البونيقية الاولى . أمّا الوثائق الاثرية من بنايات ونقائش فهي تكاد لاتحصى . تحدث عنها البكري وسماها شقبنارية .

(26) الحرب البونيقية الثانية : اندلعت في عام 219 وانتهت بانهزام حنبعل في وقعة زامة سنة 201 قبل المسيح وكان قائد الجيوش الرومانية اذاك يدعى شبيون ولقبوه بالافريقي اجلالا للانتصارات التي سجلها بأرض افريقية .

وهي لاتفيد شيئا من حيث مشاركة القائد النوميدي في الحرب البونيقية الثانية ؟ ولايخفى عليك أنّ الرومان تحدّثوا عن مسّنيسا لأنّ في ذلك وسيلة ناجعة للتباهي بتفوّق الرومان على البونيقيين والأفارقة أنفسهم . أمّا طفولة الأمير فهي لاتجديهم نفعا ، ولم تطأ قدم روما أديم أرضنا إلاّ بعد أن تجاوز مسّنيسا طفولته فلم يعرفه الرومان إلاّ شاباً يقود طائفة من النوميديين في جنوب اسبانيا ، ثم عرفوه وهو يعمل ويناضل لاسترجاع حقوقه في المُلْكِ . أفلم يأمر مسّنيسا بتسجيل تاريخه ؟ قد يكون ذلك ! لكن ليس لدينا مايثبته . على أنّ المصادر القديمة أشارت إلى أبويه . كان أبوه يدعى غَيَّةَ ورد اسمه في النصوص القديمة وفي النقائش اللوبية نفسها . وباتّفاق النصوص والنقائش لم يبق للشك مجال" في هذا الشأن .

كان غيّةُ ملكا على قبائل بني ماسيل لكنّنا نجهل متى تبوّأ عرش المُلْكِ ، كما لانعلم شيئا عن الظروف التي علته يتسلّط ويمسك الصولجان ، فهو لم يخلف أباه زِلَلْصَانَ . إذ تثبت النقيشة اللوبية التي سبق ذكرها أنّ زِلَلْصَانَ كان شافطاً أي قاضيا لايتمتّع بحقوق التاج والصولجان . فهل قام غَيَّةُ بتحوير النظم السياسية وأقام دولةً ملوكية تسهر على شؤون قبائل بني ماسيل ؟ ويكون بذلك أول من تبوّأ العرش في الديار الماسيلية . لكِنّ بُوليب ـ وهو مؤرّخ يوناني عاش في

القرن الثاني قبل المسيح - يثبت في السفر الخامس عشر من تاريخه وجود المملكة الماسيلية منذ القرن الرابع . من ذلك يرجّح أنّ غيّة وصل العرش بطريقة شرعية وإن لم يكن خليفة أبيه وذلك لأنّ نظام الخلافة عندهم يَفْتَحُ طَرِيقَ العرش لمن كان أكبر سِنّاً في العائلة المالكة ، طريقة تشبهُ التي عهدناها لدى العائلة الحسينية في تونس .

كان غيّةُ ملِكاً في الديار الماسيلية أثناء حرب المرتزقين ، تلك التي خاضها عبد الملقرط البرقي (27) «Amilcar Barca» غداة رجوعه من صقلية (28) ، وكان غيّة من حلفاء البونيقيين وأصدقائهم مِمّا جعل قرطاج تعوّل عليه في النيل ممّن عاداها . ونراه يؤازر مَدِينَة عليسة ضدّ سِيفاكس ملك بني مازيسيل . بل قد كان يمدّ إليها يد المعونة كلّما دعت الحاجة لذلك . فواضح انّنا لانعرف إلاّ القليل عن غيّةَ أبي مسنيسا ، أمّا أمّه فقد ورد في كتب زُنَرَاص (29) «Zonaras» وكتب سِلْيُوسَ إيطالكوس

(27) سميت حرب المرتزقين لان جنود قرطاج الذين تمرّدوا غداة الحرب البونقية الاولى في سنة 240 قبل المسيح كانوا من المرتزقة .

(28) عبد ملقرط هو ابو حنبعل ساهم في الحرب البونيقية الاولى واخمد نار حرب المرتزقين ثم توجّه إلى جنوب إسبانيا حيث تسلّط على قبائل الإيبار

(29) زنـــراص «ZONARAS» مؤرخ يوناني عاش في القرن الثاني عشر ميلاديا .

(30) «Silius Italicus» أنّها كانت كاهنة تؤمن الطبقات الشعبية بقدرتها على معرفة أسرار المستقبل ويرجّح أنّها كانت نوميدية الأصل . ذلك كلّ ما وصلنا عن أمّ أعظم ملوك الأفارقة في ذلك العصر . فهل تنتمي إلى عائلة غيّة نفسه ؟ أم هي من إحدى العائلات النوميدية الشريفة ؟ كيف تعرّف بها غيّة حتّى علق بها وتزوجها ؟ وهل تزوّجها لأسباب سياسية أم كان ذلك من باب المحبّة والهوى ؟ تلك أسئلة لايستطيع المؤرّخ الجواب عنها لفقره لمصادر كافية .

فنحن لانعرف مَتَى ولا كيف تزوّج غيّة بهاته الكاهنة وقَدْ مَنَّتْ عليه بطفل حوالي 238 قبل ميلاد عيسى أي في ظروف كانت قرطاج تقاسي فيها حرب المرتزقين . وسُمِّيَ الطفل مسّنيسا . وكبر وترعرع في ظروف يكتنفها الغموض ، على أنّه قضّى طفولته وشبابه في مدينة البونيقيين حسب ما أورده أبيان (31) «Appien» . حتى نما في كنف المبادئ البونيقية وتشبّع بحضارة البونيقيين كما سنراه بعد حين .

أمّا من حيث خَلْقُهُ فليس لدينا ما يُمَكِّننا بِمَدكُم بصورة ذلك الأمير أثناء الفترة الأولى من حياته أي قبل تبوّئه

(30) سيليوس ايطالكوس «SILIUS ITALICUS» شاعر روماني عاش في القرن الاول بعد المسيح .

(31) ابيـــان «APPIEN» مؤرخ يوناني عاش في القرن الثاني بعد المسيح .

العرش الماسيلي . على أنّ صورته نقشت على نقودٍ ضربتْ بأمر منه أو بأمر من أبنائه وأحفاده . وتوجد هاته النقود في غالب الدراسات المتعلّقة بالمسكوكات النوميدية ، وقد سبق ذكر المجموعة التي قام بتصنيفها يحنّى مزار J. MAZARD (32) ففي العدد السابع عشر من هاته المجموعة نرى صورة الملك مسّنيسا وهو في الأربعين أو الخمسين من عمره . له ملامح مُعْتَدِلة ويعلو مقلته حاجبٌ كثيف ، أمّا شعره فكان طويلا ، وكانت له لحية طويلة مُقَرَّنة . تلك هي صورة مسّنيسا كما تبدو على النقود النوميدية . وكثيرا مانقشت حروف اسمه تحت صورته ممّا لايترك للشك مجالا في نِسْبَتِهَا إليه .
وكشف الغطاء على نقش في بلاد القبائل بالقطر الجزائري عليه صورة رَجُل فنسبوها إلى مسّنيسا ، على أنّه من العسير البتّ في هذا الشأن إذ عبث الدهر بالنقش حتّى فقدت الصورة بيانها ممّا يجعلنا لانطمئنّ للافتراض الذي أشرنا إليه مُنْذُ حين .
ويوجد في متحف اللوفر «Le Louvre» رأس صِيغَ من نحاس ، وقيل : إنّه رأس الملك مسّنيسا . لكنّه قول لايمكن الأخذ به بل أصبح من المتأكّد أن لاعلاقة بين رأس اللوفر وعاهل قبائل بني ماسيل .

(32) فيما يتعلق بالنقود التي ضربها مسنيسا انظر «J. Mazard»
Corpus Nummorum Numidiae Mauritaniaeque Paris 1955.

وإلى جانب هاته المصادر الأثرية ينبغي أن لانترك ما أورده القدماء في وصف مسّنيسا . فلقد أثبت المؤرّخ اليوناني أبيان «Appien» أنّه كان جميلا في شبابه طَوِيلَ القامة ، وكان قَوِيّ البنية ممّا جعله يثبت في وجه الشيخوخة ويحتفظ بقوّته ونشاطه دون مبالاة بتعاقب السنين وطول الزمن . فقد رُوِي أنّه كان يستطيع البقاء على متن حصانه طيلة يومه ، كما كان يستطيع قضاء يومه واقفاً دون أن يناله التّعب . وفي الثمانين من عمره كان يمتطي حصانه قفزا وكان يأبى استخدام السَّرْج بل يركب فرسه عاريا كَغَيْرِهِ من النوميديين .
وورد في نصوص بوليب وأبيان وديودور الصقلّي وغيرهم أنّ الملك مسّنيسا كان يستقبل المطر والبرد القارس مكشوف الرأس ، وممّا أوردوه عن قوّة بنيته قيادته لجيشه وهو في الثامنة والثمانين من عمره : قاتل طيلة يومه الجيوش البونيقية ، وفي صباح اليوم التالي وجده شيبيون واقفا أمام خيمته وبيده رغيف يابس يأكله . وجاء في نصوص بوليب أنّه كان لايتجاوز ذلك الرغيف اليابسَ عند الفطور .
أمّا من حيث الخلُق فقد كان مسّنيسا لايعرف الخوف ولاَ يَلِجُ الوِسْوَاسُ ضميره . حاكت شخصيته عناصرُ مختلفة قد تبدو متناقضة لكنّها تَتَّحِدُ في صقله وجعله طموحاً قادراً على الصمود ، فكان لايتردّد في مجابهة الأخطار إذا كانت

الجرأة طريقا تدفع إلى الهدف . وله من المثابرة والمرونة في عمله وعلاقاته البشرية ما يَمُدُّه قوّة تجعله يسيطر على العقبات ويسود . وكان يتحمّل الحرمان والفاقة أيّام الحرب ، ولايخاف التعب والإرهاق ، بل يعيش حياة أبسط الفرسان ، ولعلّ إيمانه بالنجاح كان يساعده على تحمّل الأتعاب والحرمان ، ومما كان يدهش القدماء خضوعه للواقع وملاءمته للظروف فهو يحسن العيش في البادية تحت خيمة بسيطة لاحرس له سوى كلاب ضارية ، كما يُحْسِنُ العيش في قصره عند إقامته بسرتة عاصمته ، حيث كان يُقيم الولائم وتعرض فيها أوان من فضة وكؤوس من ذهب ، ويتسلّط فنّ الموسيقى تعزفها فرقة يونانية على حدٍّ قول بَطْلَيْموس إيفرجات (33) .

ذلك ما نعرف عن مسّنيسا من حيث الخلق والخلق ، وقد يكون بعض الشطط والمغالاة فيما أورده القدماء ، ويعسر علينا مراقبة هاته الروايات المبعثرة في كتب مختلفة تعود لأزمنة مختلفة . فَلَقَدْ قدّمْنا لكم في صَفَحَات متواضعة صورة مسّنيسا كما رسمها المؤرّخون القدامى ، ولعلّ أبحاثا أخرى سيما في ميدان الآثار تزوّدنا بما يثري مَعْلوماتنا حول هذا الملك النوميدي ويمكّننا من مراقبة المصادر الأدبية .

(33) بطليموس افرجات «Ptolémée Evergète» ملك يوناني الاصل . وقد استولى على عرش مصر من سنة 247 إلى سنة 222 قبل الميلاد .

الباب الثاني
مسّنيسا الأمير

مسّنيسا في شبه جزيرة الإيبار

قضّى مسّنيسا طفولته بين البونيقيين حسب رواية أبيان السالفة الذكر . وكان ذلك باعتبار الصداقة التي تربط أباه وعائلته بقرطاج (34) . لقد كان غـيّـة يمُدُّ المدينة بالجنود أيام المحنة ، ومنهم من أرسلوا إلى اسبانيا حيث كانت جيوش قرطاج تجابه الكتائب الرومانية تحت قيادة شبيون أثناء الحرب البونيقية الثانية ، وكلّف مسّنيسا إذ ذاك وهو في الخامسة أو السادسة والعشرين من عمره بقيادة الجنود النوميديين . (35) ومكث الأمير بشبه جزيرة الإيبار من سنة 212 إلى سنة 206 قبل المسيح مع أنّه كان يتردّد على أرض الوطن لأسباب مختلفة

---

(34) كانت لِغَيّة علاقات متينة تربطه بقرطاج. كان يمد اليها يد المساعدة ايام الحرب
انظر: STÉPHANE GSELL - *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord I. III* P. 178

(35) انظر المصدر نفسه ص. 183 - 184 .

لم يُصارِحْنا بها التاريخ . فلعلّه كان يأتيها ليُعزّز صفوفه بجنُود آخرين ولعلّه كان يأتيها لمُهِمّةٍ سياسية تتعلّق بمصيره ومطامحه .

وتوفي أبوه أيّام إقامته باسبانيا إلاّ أنّ العرش لم يعد إليه بل لأحد الذين كانوا أكبر منه سنّاً كما تقتضيه قوانين الخلافة عندهم . تبوّأ عرش الملك إذ ذاك أميريدعى أوزَقْلاَسْ ، وكان طاعناً في السنّ وكان قد تزوّج من فتاة بونيقية (36) حسب ماورَدَ في السفر التاسع والعشرين من تاريخ تيت ليف ، ويبدو أنّها كانت من أقارب حنّبعل ابنة أخته حسب بعض الروايات . لكن سرعان ما توفيّ أوزَقْلاَسُ وكان له ابنان خلفه أحدهما باعتباره أكبر أفراد العائلة المالكة سنّاً . غير أنّه كان عديم الجاه لا شأن له بين الأمراء وأعيان القبائل . وتمرّد أحدهم فعْلاً وشقّ عصا الطاعة وكان له من الأتباع والأنصار ما جعله يتحدّى السلطة الشرعية ويتصدّى لجيوش الملك حتّى تغلّب عليه وقتله أثناء إحدى المعارك . وافْتكّ شعارات الملك لكنّه لم يَمْتَطِ العرش بل تركه إلى أخ الملك القتيل واكتفى أن يكون وليّاً عليه حتّى يحتفظ بكامل مقاليد الحكم .

لاشكّ أنّ الأمير المتمرّد كان يخاف مسّنيسا وقد أصبح

(36) فيما يتعلق بالتناسل بين البونيقيين والنوميديين انظر صلوست حرب ، بوغرطة ، الفقرة 78

يتمتّع بشرعية الملك بعد موت أوزَقْلاَس وابنه الأكبر . فلا بُدّ إذن للأمير المتمرّد من حليف يساعده ويعترف بسياسته . فاقترب من قرطاج وكانت تعيش إذ ذاك ظروفاً عسيرة لاتترك لها إمْكَانِيةَ النظر في شرعية المتمرّد كما لايمكنها مجابهة سياسة المُخْتَلِسين . إنّ سنة 206 خطيرة جدّاً بالنسبة لقرطاج ومَصيرها . ولانفهم سياسة المدينة البونيقية خلال تلك السنة إلاّ بعد النظر في مجرى الأحداث : لقد انتصرت الجيوش الرومانية في اسبانيا . وفي سنة 206 لم يبق للبونيقيين فيها سوى مدينة قَادِس . (37) وبَاتَ شبيون (38) يفكّر في أنجع الطرق لِلالْتِحَاقِ بأرض افريقية حتّى يضرب قرطاج في عقر دارها . لكن كيف العمل ؟ فتبيّن لشبيون أن لاسبيل إلى تحويل الحربِ فوق أرض الأفارقة إن كان هؤلاء من أنصار البونيقيين . فَقَبْلَ التوغّل في هاته السياسة الجريئة كان على شبيون إيجاد أنصار فيها ، الأمر الذي جعله يَقْتَرِبُ من بعض ملوكهم . وكان أعظمهم إذ ذاك يدعى سِيفَاكِسْ وقد بسط نفوذه على أرض شاسعة تَمْتَدُّ من نهر الملوية إلى مدينة

(37) قادس : مدينة فنيقية اسسها الفنيقيون في منتوف الالف الثانية قبل المسيح على سواحل جنوب اسبانيا . كانوا يأتون شبه جزيرة الايبار سعيا وراء اقتناء المعادن من فضة ونحاس وقصدير .

(38) ينتمي شبيون الإفريقي إلى عائلة من أشراف الرّومان . لعب دورا رئيسيا في الحرب البونيقية الثانية .

قسنطينة الحالية ، وأخضع لصولجانه قبائل عديدة تقطن بتلك الربوع ، وما كان شبيون ليجهل الاختلاف الذي شبّ أو قد يشبّ بين البونيقيين وهذا الملك العظيم الطموح . من ذلك نراه يتّجه إليه ليطلب منه ربط علاقات التعاون والمودّة . ولعلّ شبيون لم يفكّر في الأمير مسنيسا وكان يشوب أمْرَهُ الغموضُ . أجل إنّ عرش بني ماسيل يعود إليه شرْعيًّا لكنّ الظروف لم تساعده . أمّا رُوما فكانت بعيدة عن خصومات الأفارقة ولايريد شبيون إلاّ النجاعة . حتّى أنّه كان يأبى إطالة النظر في الحق والشرعية . ولا شرعية في الحرب سوى الانتصار على العدّو حسب النظرية الشائعة بين الرومان في أيّامهم . فما كان شبيون يسعَى إلاّ وراء ملك افريقي يمكّنه من تكسير شوكة البونيقيين . النجاعة هي مقياسه الوحيد ، تراه مستعدّاً للتعاون مع ملك ولوكان من المختلسين ولقد نظرت قرطاج إلى الأمور نفس النظرة من نفس الزاوية بنفْس المنظار . كانت تشعر بخطر الرومان . وليس التنبّؤ بسياسة شبيون أمراً عسيراً . فلمّا اكتسحت الجيوش الرومانية شبه جزيرة الإيبار أصبح من الحتمي أن ينطلق شبيون إلى أرض افريقية ، وتلك سياسة تقليدية سبق التفكير فيها منذ زمن مضى . وحاول الرومان إنجازها أثناء الحرب البونيقية الأولى (39) . ولئن ذهبت

(39) في حرب رغولوس انظر : ستيفان اقزال : المصدر السابق . الجزء الثالث ص . 79 ـ 88 .

مساعي رغولوس أدراج الرياح فذلك لأنّه حلّ بأرض الأفارقة دون أن يكون له بها رجال قبلوا مُساعدته . وأبى شبيون الوقوع في نفس الخطإ . ممّا جعله يفتّش عمّن يؤازره في قطر لايعلم عنْه إلاّ القليل . (40)

كانت قرطاج تعْلَم كلّ ذلك ، كما كانت تعلم أنّ شبيون سوف يتوجّه إلى أعظم ملوك الأفارقة وقتئذ وهو سيفاكس . ولعلّ الرومان كانوا يرون تناقضاً جذْرِيًّا بين سياسة قرطاج وسياسة ملك بني مازيسيل ، وقد شبّت حروبٌ بين الدولتين . (41) وقد يقرّبه ذلك التناقض مِنْ صُفُوفِهِم فلا شكّ أنّ القيادة الرّومانية خمّنت في ذلك قبل عرض صداقتها على ملك بني مازيسيل ، ولاشكّ أنّ قرطاج وقفت على التخْمينات الرومانية لمّا تناست كلّ ما قد يُبْعِدُها عن سيفاكس ، وأرسلت إليه تُبيّنُ ضرورة التعاون ضدّ عدوّ مشترك . وبذلك قبلت أن تضحّي بصديق لها وهو الأمير مسّنيسا ذلك الذي ما انفكّ يقاتل في صفوفها إلى سنة 206 . ضحّتْ به تحت وطأة الظروف . كان مسّنيسا بعيدا عن العرش واختلس الحكم أمير متمرّد شجّعه سيفاكس رغم التقاليد الشرعيّة . فالظروف الخطيرة المتشعّبة جعلت قرطاج تساند سياسة الملك

(40) انظر الخريطة

(41) راجع ستيفان اقزال . الكتاب الآنف الذكر الجزء الثالث ص. 178 ـ 182 .

المازيسلي ، ولعلّها أخطأت لمّا تجاهلت قوّة الحَــقّ وسُلْطَانِ الشَرْعيَّةِ .

كان سيفاكس في تلك السنة الخطيرة أي سنة 206 يسيطر على الوضع في افريقية من نهر الملوية إلى الحدود البونيقية لأنّ الأمير المتمرّد كان تحت سَطْوَتِه لا يَتَجَاسَرُ على سياسة قد تناقض سياسَتَهُ وهو الذي سانده ولا بقاء لـــه بِدُونِه . فإن التحقت جيوش سيفاكس بصفوف الرومان تبعتها جُيُوش الأمير المتمرّد . تلك هي الظروف التي جَعَلت قرطاج تُضَحِّي بمسّنيسا ومصالحه رغم شرعيتها ، وباتت تتقرّب من سيفاكس وتَعْرِض عليه صداقتها . طالبة أن يَنضمّ صفوفه إليها حتّى تتمكّن من مجابهة الرومان الذين يُريدُون بها وَبافريقية شرّاً .

وشَعُرَ مسّنيسا بالخطر الذي بات يحدق به ، وأيقَنَ بِخَفَايَا سياسة قرطاج وتبيّن أنّها سَوْفَ لا تَتَرَدَّدُ في التَضْحية به ، فلم يبق له إلاّ الاتّصالُ بقائد الرومانِ ، ويذكر تيت ليف أنّه اتّصل فعلا بالقيادة الرومانية في ربيع سنة 206 قبل المسيح أي غداة انْتِصَارِ كتائب شبيون في اسبانيا . فهل وقع اتّصاله بالقيادة الرومانية تحت تأثير ذلك الانتصار ؟ وهل أصبح بَعْدَ ذلك يؤمِنُ بانهزام قرطاج ؟ وهل أراد مغادرة صفوفٍ كُتِبَتْ لها الهزيمة أم هل غادر

قَرْطَاج لَمّا تنكّرت لحقوق الصداقة والشرعية وقبلت أن تضحّي به على أن تَنْتَصر وتحيا ؟ يَعْسُرُ علينا الوقوف على الحقيقة التاريخية لأنّ المصادر لم تحتفظ بالأحداث جميعها . لقد ذكرت البعض منها وأطنبت في تفصيلها أحياناً لكنّها ذكرتها حدثاً حدثاً بصفة مقطّعة دونَ أيّ تنسيق بينها . فهي لاتُمَكِّنُنَا من رُؤْيَة توَلُّدِ الأحداث . فالأحداث لا يُضَافُ بعضها لبعض كما تضاف الأرقام بَلْ يَتَوَلَّدُ بعضها عن بعض ، حتّى أنّك تَرى الحدث سبباً ونتيجة في نفس الوَقْتِ . فلم ينظرِ القدماء هاته النظرة التأليفيةِ تجاه الأحداث بل كانوا يَرَوْنَها مفكّكة في غالب الأحيان .

فعَلى المؤرّخ أن يتجاوز الأحداث المفكّكة التي قد يَذكرها القدماء . وعليه أن ينسِّقَ بينها حتّى يُعِيد للحقيقة وجْهَهَا الصحيح ، ولكنّ هذا العمل يشترط مَعْرِفَةَ الأحداثِ معرفةً ضافيةً مهما كَثُرَتْ تفاصيلُها . فالوقوف على الحقيقة التاريخية وغيرها يتوقّف أحياناً على معرفة بعض الجزئيات الطفيفة . ترون كيف يَعْسُرُ علينا تقدير موقف مسّنيسا حق قدره لمّا توخّى ذلك المُنْعَرَج في سياسته تجاه قرطاج سنة 206 . فهل كانت مَوَاقِفُهُ إذ ذاك نتيجة تحالفِ قرطاج مع سيفاكس كَمَا يَبْدُو على ضوء بعض المصادر الأدبية ؟ نحن لانستطيع البتّ في ذلك ! إذ لانَدْرِي هل كان

مسّنيسا يَثْبُتُ بإخلاصه نحو قرطاج لَو لَمْ تضحّ به وبمصالحه .

٥ مسّنيسا يتّصل بالقيادة الرومانية :

ومهما يكن من أمرٍ فلقد عقد الأمير مسّنيسا العزم على محالفة الرومان وهم في حاجة له لإنجاز سياستهم تجاه قرطاج كما كان هو في حاجة إليهم لاسترجاع مَمْلَكَتِهِ . ولم يبق إذ ذاك لمسنيسا إلاّ الوقوف في وجه الذين ابتزّوا منه غرشه وصولجانه ، وبات يفكر في خطة تيسّر له بلوغ الهدف وليس له في افريقية قوّة تساعده إلاّ بعض الذين أخلصوا إليه من بين القبائل النوميدية . أمّا أعداؤه في افريقية فهم كثيرون وقد يسقط تحت ضرباتهم دون أن تَسْترعى مصائبه نظرَ أيّ كان .

فلا بُدّ له إذن من حليف يناصره ويمدّه بيد المساعدة . وما إن شعر بفتور البونيقيين إزاءه حتّى اقترب من الرومان . وجاء في السفر الثامن والعشرين من تاريخ تيت ليف أنّ مسّنيسا وقع اتّصاله بضابط روماني يُدْعى سيلاَنُوسُ «Silanus» في ربيع سنة 206 قبل المسيح أي غداة انتصار الجيوش الرومانية في شبه جزيرة الإيبار . ولم تسفر المحادثات بين الرجلين على نتيجة ملموسة . إلاّ أنّ الأمير النوميدي كان يرغب في مقابلة

شبيون نفسه وتمّ الاتّفاق على ذلك بعد التشاور . ولمّا حان الوقت طلب الأمير من القيادة البونيقية أن يَخْرج بجنُوده ينهب حتى لايَفْقدُوا نشاطهم ويكونوا دائما على استعداد لمقابلة العدوّ ومجابهة الطواري فَسُمِحَ له بذلك . وهي خطّة ناجعة مكّنَتْهُ من الاتّصال بشبيون دون أن يفقد ثِقَةَ البونيقيين . ولما قابل شبيون عرض عليه صداقته وأعرب له عن استعداده لمؤازرة الرومان إذا ما حلّوا بأرض افريقية . أما شبيون فلا نَدْرِي هل التزم بِوُعُودٍ تجاه الأمير . لم تذكر المصادر [illegible] القائد الروماني قَبِلَ ما تقدّم به مسّنيسا . وأنّ الرجلين تَبَادلاَ عباراتِ القسم . ولئن قبلت السطات الرومانية عروض الأمير النوميدي ووعوده فالمرَجَّحُ أنّها يئست من ملك المازيسيل ، ولعلّ شبيون ارتضى مسّنيسا حليفا له بَعْدَ ما أعرب سيفاكس بأقواله وأفعاله عن اختياره لقرطاج .

تمّ الاتفاق إذن بين القائد الروماني والأمير النوميدي وعَادَ كِلاَهُمَا إلى معسكره . وبات مسّنيسا يترقّبُ ظروفا تساعده على مغادرة اسبانيا والالتحاق بأرض وطنه ومملكته . ويبدو أنّه اغتنم فرصة غياب القائد البونيقي ليأخذ طريق العودة خُفية ، وكان ذلك في خريف سنة 206 وذكَرَ تِيتْ ليف أنّه اتّصل بأنْبَاءٍ من أرض الماسيل جعلته يُسْرِعُ بالعودة ،

وجاء في تاريخ أبيان أنّ القيادة البونيقية كانت على علم برجوع الأمير إلى أرض وطنه فأرسلت صحبته فرساناً أمرتهم باغتياله أثناء الطريق على أنّ هذا الخبر مشكوك فيه يتناقض مع مجرى الأحـداث .

• مسّنيسا يعود إلى افريقية :

غادر مسّنيسا مدينة قادس متّجها نحو افريقية وحلّ بمملكة بني ماور (42) وطلب من عاهلها يد المساعدة فوضع تحت تصرّفه حرسا بعدّ ألف رجل . وبفضلهم تجاوز مملكة سيفاكس وأدرك أرض أبيه حيث وجدَ ثلّةً من الذين بقُوا إليه مخلصين . على أنّهم كانُوا أقلّ عددا ممّا كان ينتظره الأمير . وما كان ذلك ليُعَرِّضَهُ للقنوط والاستسلام . بل كان يؤمن بالنجاح رغم تواضع إمكانياته العسكرية وكان يأمُلُ أنْ يَدْفَعَ نجاحُه النوميديين إليه فيَلْتَفّوا حوله ويقاتلوا في صفوفه .

وفي تلك الظروف كان عدوّه الذي اختلس عرشه قاصداً مدينة سيرتة لزيارة سيفاكس فارتمى عليه مسّنيسا فجأةً وقتل الكثير من جنده ولاذَ المتمرّد بالفرار حتّى أدرك عاصمة سيفاكس .

(42) سوف نعود إلى ذلك عند حديثنا حول مسنيسا

وكان لانتصار مسّنيسا صدًى عظيم بين قبائل الماسيل حتّى كان النوميديون يقبلون عليه أفواجاً يعزّزُونَ صفوفه طالبين أن يسترجع الأرض التي كانت تعيش تحت ظلّ أبيه . وانتصر ثانية على المتمرّدين وتمكّن من الاستيلاء على العرش لكنّه باتَ يخاف شرَّ سيفاكس وهو أدْهَى وشوكته أقوى . فلجأ إلى طرق سياسية ظنّها ناجعة حيث أرسل لابن عمّه يطلب منه تجاوز صفحة الماضي وتسامحا فعلاً ، كما أرسل للأمير المتمرّد صنيعة سيفاكس ووعده بالحلم وبإعادة أمواله ، وتمّ الوفاق فعلا رغم المساعي البونيقية المعادية .

أمّا سيفاكس فلم يُعِر اهتماماً لما جرى بين أمراء الماسيل ، ولعلّه قبل الأمر المقضي ، لكنّ قرطاج أرسلت إليه تشير إلى الخطر الذي يتضمّنه انتصاب مسّنيسا على عرش بني ماسيل ، مذكّرةً أنّه سوف لن يكتفي ذلك الرجل الطموح بأرض أبويه بل ستراه يعمل على توسيع أراضيه ، وفي ذلك خطر على قرطاج ، وفيه خطر على مَلِك بني مازيسل . فالقضاء على طموح مسّنيسا أمر بات حتمياً . واقتنع سيفاكس بالنظرية البونيقية وشرع في مطاردة مسّنيسا واكتساح الأراضي الماسيلية ، وانهزم الملك النوميدي وترك العرش ولاذ بالفرار صحبة نفر من فرسانه وتحصّن بجبل يشرف على مدينة

هيبون (43) وهي مدينة عنابة الجزائرية . على أنّ المؤرخين لم يتّفقوا على ضبط موقع ذلك الجبل ، وقد سمّاه تيت ليف في كتابه التاسع والعشرين جَبَل بلُوزَ . (44) قيل : إنّه على مقربة من الحدود البونيقية إذ ذاك وكان قريباً من البحر يشرف على سهول فسيحة يشقّها نهر كبير . ولعلّ النهر هو مجردة والسهول توافق سهول جندوبة وبو سالم . وتمكّن مسّنيسا وأنصاره من البقاء في تلك المنطقة لحصانة جبالها ووفرة مروجها ومياهها المتدفّقـــة .

وكان رفقاء الملك الشريد ينزلون ليلا على الأراضي البونيقية ينهالون عليها نهبا وتخريباً ممّا كبّد البونيقيين خسائر فادحة ، فطلبوا من سيفاكس أن يضع حدّاً لأعمال مسّنيسا ورُفقائه ، فأرسل أحد ضبّاطه ويدعى بُوكار على رأس جيش يعدّ 6000 رجل من مشاة وفرسان مهمّته أن يأتي برأس النّوميدي . وانطلق بُوكار نحو جبل بلّوز وسقط عدد كبير من رجال مسّنيسا وأموالهم تحت قبضته . ثم أخذ يطارد الملك ورفقاءه إلى أن بلغوا قمّة الجبل . فظنّ بُوكار أن لافائدة

(43) هبون مدينة بالقطر الجزائري الشقيق وهي عنابة الحالية انظر مثلا :
ERWAN MAREC, *Hippone la Royale, Antique Hippo-Regins*, Alger 1954.

(44) فيما يتعلق بجبل بلّوز انظر : CH. TISSOT et S. REINACH.
Géographie comparée de la Province romaine d'Afrique T. I. P. 28.

في متابعتهم فأشار على معظم جيشه بالعودة ولم يترك لديه إلاّ كتيبة ليطارد بعض الذين نزلوا من جبل بلّوز .

ولمّا كان يحاصرهم تمكّن مسّنيسا ورُفقاؤه من الفرار وقد توخّوا سُبُلاً عسيرة لكن سرعان ما التحق بوكار بهم يطاردهم حتّى بلغوا نهراً عظيما ، فألقى الفارّون بأنفسهم فيه وجرّتهم المياه وهلك اثنان منهم ، وكان جنود بُوكار ينظرون إليهم واعتقدوا أن لامفرّ لمسّنيسا من الهلاك ولا فائدة في اقتحام خطر المياه . وعاد بوكار وأحاط سيفاكس علماً بموت ملك الماسيل وشاع النبأ وبلغ قرطاج ، على أنّ الحقيقة كانت عكس ذلـــك .

فقد خرج مسنيسا ورجلان من رفقائه سالمين . وأدركوا ضفّة النهر رغم غزارة المياه الجارفة . خرجوا وتواروا بين الأعشاب ثم لجؤوا إلى مغارة حيث قضى مسّنيسا زمناً يعالج جُرُوحه ، وكان رفيقاه يخرجان كلّ يوم ويختلسان ما قد يسقط تحت أيديهما . وما إن شفي مسّنيسا من جروحه حتّى خرج من ملجئه والتحق بقبائل الماسيل فمدّته بالجنود مشاة وفرساناً ممّا ساعده على استرجاع أراضيه ، بل وتجاسر على مناوشة المازيسيل فأثار غضب سيفاكس وخرج لمقاومته بكلّ مالديه من قوّى . قسّم جيشه فيلقين ترأس أحدهما وسار يطارد مسّنيسا . وقلّد ابنه ورمينة قيادة الفيلق الثاني ،

والحطّة كانت أن يقع النوميدي بين الجيشين ، وكان الالتحام وانهزم مسّنيسا مرّة أخرى ولاذ بالفرار صحبة 60 فارسا حتّى أدرك مرتفعات طرابلس : كان ذلك في سنة 205 قبل الميلاد ومكث بها زمنا . ولمّا أقبلت الجيوش الرومانية على افريقية التحق بقيادتها وعرض عليها صداقته وإخلاصه. وسوف نعود إلى تفاصيل هذا الحدث .

شبيون في افريقية :

لقد حاول شبيون كما أسلفناه جذب سيفاكس وربط علاقات الصداقة والتعاون معه ، لكنّ عاهل بني مازيسيل آثر ضمّ صفوفه إلى جيش قرطاج إيماناً منه بخطر السياسة الرومانية وهي ترمي في جوهرها إلى التسلّط على الأراضي الافريقية جميعها والقضاء عاجلا أم آجلا على كلّ سلطة تتصدّى لها . وهي سوف لاتتردّد أمام الجبروت والقمع حتّى تكون لها السيادة المطلقة في افريقية .

درس الوضع السياسي فتبيّن حتمية التعاون مع قرطاج ، وبالتعاون معها قد ينتصر ويحتفظ بعرشه وقد ينهزم وتكون الطامة الكبرى . أمّا ورقة الرومان فهي خاسرة بالنسبة له طال الزمن أو قصر . وذلك أنّه إذا تعاون مع الرومان ينهزم بهزيمتهم ويسقط من أعلى عرشه . وبانتصارهم قد يحتفظ

بالعرش لكنّ الرومان ينتزعون منه كلّ سلطة وقد يفتكّون منه الصولجان إذا أبى الامتثال لأوامرهم . فالتعاون مع الرومان إذن خطر في كلتا الحالتين . فعلى ضوء هاته المعطيات اختار سيفاكس الورقة البونيقية رغم الرياح المعاكسة لقرطاج . كان يأمل أن تتظافر جهوده وجهود البونيقيين لتكسير شوكة الرومان .

واتّصل ملك بني ماسيل بشبيون كما سبق ذكره وعرض عليه صداقته ووعده بمدّ يد المساعدة يوم تحلّ جيوشه بأرض الأفارقة . ورجع القائد الروماني إلى وطنه في موفّى سنة 206 وانتخبوه قنصلاً لكنّه وجد معارضة شديدة فيما يتعلّق بسياسته الافريقية . ولعلّ المعارضة لم تنس مجازفة رغولوس أثناء الحرب البونيقية الأولى . وقد فشلت قبلها محاولة أغتوكلاس «Agathoclès» . على أنّ الطبقات الشعبية كانت مخلصة لشبيون تعزّه وتقدّره وتساند سياسته ، الأمر الذي جعله يحظى بولاية صقلّية مع إمكانية الانطلاق إلى أرض افريقية . وحلّ شبيون بالجزيرة الإيطالية سنة 205 قبل ميلاد عيسى ، وقضى غالب تلك السنة في إعداد العدّة للمجازفة الإفريقية ، على أنّه بادر بإرسال أحد أعوانه وكان يدعى ليليوس «Laelius» على رأس أسطول حربي مهمّته نهب سواحل هيبون وتخريبها وهي مدينة عنّابة الجزائرية ، ولعلّه وقع الاختيار عليها لأنّ

المنطقة بعيدة عن المراكز البونيقية وعن القوات المازيسيلية ، بعيدة باعتبار صعوبة التنقّل إذ ذاك في تلك الربوع . ثم إنّ مدينة هيبون توجد في أراضي بني ماسيل وكان الوضع فيها متقلّباً والسلطة ضعيفة لاتسيطر على القبائل جميعها بل من النوميديين من كانوا مناهضين لسياسة الاختلاس ويسعون في صالح ملكهم الشرعي مسّنيسا . وأوردت بعض النصوص القديمة أنّ القيادة البونيقية لم تكن على علم بالحملة الرومانية وغارة ليليوس .
ولمّا بلغها نبأ الكارثة استولت الدهشة على القلوب سيما ولم يكن في وسع البونيقيين معرفة عدد السفن التي ألقت مراسيها على شواطئ هيبون ، كما كانوا يجهلون عدد الجنود الذين حلّوا بالأرض الإفريقية حتّى أنّه ذهب في اعتقادهم أنّ شبيون هو الذي زحف بجيشه يريد مقاتلتهم في ديارهم حسب خطّته المعروفة . من ذلك أصدرت سلطات قرطاج أمراً يقضي بالتعبئة ، وشدّت قرطاج مئزرها تتحصّن وتتهيأ لمجابهة الرومان وجهّز الأسطول وأقلعت السفن نحو هيبون .
أمّا الأمير مسّنيسا فاتّصل حالاً بليليوس كما أشرنا إليه منذ حين صحبة نفر من فرسانه وأعرب عن قلقه بسؤال ليليوس عن سبب تأخّر شبيون وبطئه في إنجاز سياسته الافريقية . وأحاط القيادة الرومانية علماً بالوضع الراهن وقتئذٍ مشيراً إلى حرب كان يخوضها سيفاكس ضدّ بعض

القبائل المجاورة . وألفت اهتمام حلفائه نحو هاته الظروف المساعدة حيث ينبغي أن تزحف الجيوش الرومانية قبل تخلّص سيفاكس من الحرب ، إذ بانتهائها قد يصبح مؤهّلاً لمجابهة الرومان بأشدّ وطأة وأكثر عنف وأشار في تقريره إلى المساعدة التي يمكنه تقديمها . وتحدّث بإطناب عن أنصاره وأتباعه من مشاة وفرسان . ثمّ أشار على الضابط ليليوس أن لايبقى طويلا بشواطئ هيبون خوفا من الأساطيل البونيقية ، وعاد الأمير إلى معسكره وأقلعت السفن الرومانية إلى صقلّية .
لقد وردت رواية هاته الأحداث عن المؤرّخ تيت ليف . على أنّها تثير فينا بعض التساؤلات : فلمّا أقبلت السفن الرومانية على أرض افريقية كان مسّنيسا شريداً لجأ إلى مرتفعات طرابلس فكانت تَفْصِلُه عن ليليوس مسافة تربو عن 600 كلم . فكيف يتجاسر على قطعها وخطر السقوط في أيدي البونيقيين أو في يدي سيفاكس يهدّده . ثم قَطْعُ تلك المسافة يتطلّب زَمَناً . من ذلك يرى المؤرّخ الفرنسي ستيفان اقزال (45) «Stéphane Gsell» أنّ الأمير لم يكن بِلِيبيا كما تَزْعُمُه النصوص القديمة ، بل من المرجّح أنّه كان متحصّنا بالجبال التي تشرف على مدينة هيبون ، فيكون من اليسير عليه إذ ذاك الإحاطة بحلول سفن ليليوس والاتّصال به عاجلاً .

(45) ستيفان اقزال الكتاب الآنف الذكر الجزء الثالث ص. 196 .

• شبيـــون بإفريقيـــة :

أمّا الحلف الذي عقده البونيقيون مع سيفاكس فلم يكن عائقاً في طريق شبيون ، وقد أقرّ العزم على تنفيذ سياسته الافريقية . ولما أعدّ العدّة وأخمد الصيفُ رياح البحر وعواصفه خرج بأسطوله من مرفإ ليليبي Lilybée وكان يتركّب من أربعين سفينة حربية وأربعمائة ناقلة .أمّا عدد مشّاته فقيل 10000 وقيل 16000 . وكان عدد الفرسان يربو عن الألفين . وأمر الملاّحين بالاتّجاه نحو خليج قابس . لكنّ الرياح أبت إلاّ أنْ تقود السفن الرومانية إلى رأس سيدي علي المكي ، ويبدو أنّها ألقت مراسيها قرب مدينة غار الملح حيث أقام شبيون معسكره (46) وأمر باحتلال المرتفعات وأشار لخيّالته أن تنهب وتراقب تطوّر الوضع في تلك الربوع . وسقطت مدينة العالية (47) تحت أيدي الرومان فأسّروا سكّانها ونهبوها ، ولم تمض أيّام حتّى انطلق شبيون نحو مدينة أوتيك وأقام معسكره على قمم جبل منزل الغول .

وأقبل مسّنيسا على شبيون صحبة فرسانه البواسل واختلف المؤرّخون في ضبط عددهم . فقالوا : مائتان وقالوا : ألفان . على

(46) Castra Cornelia راجع المصدر نفسه ص. 219 ـ 220 .

(47) مدينة العالية : لم يقع الاجماع على ضبط اسمها العتيق ولن يكون ذلك الا بوجود نقيشة تثبته .

أنّنا نجهل متّى غادر مقرّ إقامته وكيف تمكّن من جمع الفرسان والالتحاق بالجيوش الرومانية وبات يقاتل البونيقيين معزّزاً صفوف رُوما . فلمّا بان الجيش البونيقي أمر شبيون الأمير مسّنيسا أن يتقدّم نحو المعسكر القرطاجي ، على أن يتقلّص أمام العدو فور الالتحام معه . بذلك تطارده الخيّالة البونيقية فتبتعد عن مراكزها وعندها يفاجئها بفرسانه بعد أن ينالها التعب .

وأنجز الأمير الخطّة حيث ظهر بفرسانه قرب المعسكر البونيقي فحملت عليه الفرسان أفواجاً فعرف كيف ينسحب ويجبرهم على مطاردته حتّى وصل بهم إلى مرتفعات كانت تخفي فرسان شبيون ، وعندها كان الالتحام وانضمّ الأمير إلى ساحة القتال وتكبّدت الخيّالة البونيقية خسائر جسيمة في الأرواح .

وقد اختلف المؤرّخون في سرد هاته الأحداث : فديون كاسيوس (48) «Dion Cassius» أورد أنّ الأمير النوميدي كان إذ ذاك قد تحالف مع شبيون دون أن يكون البونيقيون على علم بذلك ، وباتّفاق مع القائد الروماني اتّصل بالسّلط البونيقية ونصحها أن تحمل على الجيش الروماني ففعلت ممّا جعل الجيش القرطاجي يسقط في كمين تَطْعَنه

(48) مؤرخ يوناني عاش في القرن الثاني والقرن الثالث بعد المسيح .

السيوف الرومانية وارتمى عليه مسّنيسا من خلف . ويضيف ديون كاسيّوس أنّ القيادة البونيقية كان يتقاسمها حنون وعزرّ بعل . وسقط حنّون أسيراً أثناء المعركة وأسّر عزربعل أمّ الأمير النوميدي مسّنيسا . ولمّا تمّ الاتفاق بين الخصمين لتبادل بعض الأسرى عاد حنّون إلى ذويه وعادت أمّ الأمير إلى معسكر ابنها . وورد عن المؤرّخ أبيان أنّ مسّنيسا تقَابَلَ خفْيَةً مع شبيون وأشار عليه بنصب كمين قرب برج كان قد أقامه أغتُوكلاس «Agathoclès» أيام زحفه على أرض افريقية في أواخر القرن الرابع قبل المسيح . ثمّ اتّصل مسّنيسا بالقائد البونيقي عزر بعل وحمله على الخروج من المعسكر قصد الاستطلاع ومراقبة أهل أوتيك . فخرج حنّون على رأس ألف فارس من نخبة الفرسان وعرض عليه الأمير أنْ يرافقه صحبة جنوده . ولمّا أدرك حنّون البرج الآنف الذكر وتوجّه نحو مدينة أوتيك ظهر نفر من رجال العدوّ . فنصح الأمير النوميدي القيادة أن تأمر بالهجوم على الرومان ، ولمّا وقع الالتحام ارتمى الأمير على الجيش البونيقي من خلف وكان فرسان قرطاج بين شقّي الرحى وكان الأسر مصير الذين لم يسقطوا في ساحة الوغى .

ويضيف أبيان أنّ مسّنيسا لم يتردّد بعد المعركة في الالتحاق بحنّون . وقبض عليه وحمله أسيراً لمعسكر شبيون

ويذكر المؤرّخ تبَادُلَ الأسرى ويشير إلى أمّ الأمير النوميدي تلك التي عوّضوها بحنون .

ولئن لم يتّفق المؤرّخون في تفاصيل الأحداث فليس فيهم من يشكّ في الدور العظيم الذي لعبه مسّنيسا في تلك الوقعة . فهو الذي يسّرَ عمل شبيون ولعلّه هو حائك الخطّة وله الفضل في تنفيذها ونجاحها . وإن لم يشر المؤرّخون لذلك بكلّ وضوح .

الباب الثالث

مسينيسا

والعرش النوميدي

بات مسّنيسا يقود الجيش النوميدي تَحْتَ راية الرومان .
ولمّا كان الشتاء نصب شبيون معسكره قرب مدينة أوتيك ، وقيل في المكان الذي نشأت فيه مدينة قلعة الأندلس . وخيّمت بالقرب منه جيوش قرطاج وكانت إذ ذاك تحت قيادة عزربعل . وأمَرَ سيفاكس بإقامة خيامه في موقع يُوفّر له إمكانية الاتّصال بحلفائه ومراقبة العدّو وتحرّكاته .
وكان ربيع سنة 203 وبدأ كل من الخصمين يتأهّب للقتال ، فنظم شبيون جيوشه حسب الطريقة المعمول بها عند الرومان : فوقفت المشاة صفوفاً في الوسط وحفّتهم الخيّالة الإيطالية من الجهة اليمنى ، وكان مسّنيسا وفرسانه بالجناح الأيسر ، وما أن وقع الاصطدام حتّى أدبرت صفوف البونيقيين وعاد سيفاكس إلى أرض مملكته وعاد القائد البونيقي إلى قرطاج .

• سقــوط سيفــاكس :

كان النصر إذاً حليف شبيون ، فاجتمع بأعوانه من ضمنهم مسّنيسا واتّفقوا على تقسيم الأعمال والجيوش ، فكان للأمير النوميدي أن يقود صحبة ليليوس كتائب النوميديين وبعض الكتائب الرومانية وسدّد ضرباته نحو سيفاكس حتّى لايتمكّن من تضميد جروحه وإعداد العدّة للقتال من جديد . فاتّجه إذن مسّنيسا وليليوس نحو الغرب لكنّهما عدلا في الأخير عن متابعة سيفاكس لأنّهما أيقنا أن لاسبيل إلى الالتحاق به ، وبعد خمسة عشر يوماً مضت ولج القائدان أرضَ بني ماسيل فرحّبت بهما القبائل واستقبلت أميرها أحسن ما يكون الاستقبال وقضي على الجنود والولاة الذين سلّطهم سيفاكس بالديار الماسيلية .

وما كان ملك المازيسيل ليعترف بالوضع والهزيمة سيما وكانت زوجته صفونزبه «Sophonisbe» تحرّضه على البطش والانتقام . وهي قرطاجية الأصل تزوّجها سيفاكس قصد توطيد العلائق بينه وبين قرطاج ، وقيلَ : إنّها كانت خطيبة مسّنيسا أيام كان من حلفائها وقضت السياسة كما قلنا أن تتزوّج ملك بني مازيسيل .

ومهما يكن من أمر فقد عمد سيفاكس إلى جمع جنود يعزّزون صفوفه وتأهّب لمقابلة الرومان وحليفهم النوميدي .

وكان المعسكر قرب مدينة سيرتة من الجهة الشرقية . وخرجت طلائع الكشّافة يتعرّفون على أسرار المنطقة من حيث السبل والتضاريس فوقع الاصطدام . حتّى كان على الخيّالة أن تتدخّل ، وكان لسيفاكس عدد كبير من الفرسان فحملوا بسرعة ، وكاد الرومان يذهبون ضحيّة كرّاتهم لولم يأت المشاة يتصدّون لضرباتهم وكأنّهم سدود من حديد يعطّلون تحرّكات الفرسان فكلّما اقتربوا منهم أوْقفوا خيلهم حائرين ثم أدبروا فكان الكرّ والفرّ ، وفي أثناء المعركة صادف أن سقط سيفاكس من جواده في ظروف غامضة وأقبل عليه العدّو وهو طريح الأرض فَغَلَّلُوهُ وحملوه إلى ليليوس . كان ذلك في الرابع والعشرين من شهر جوان سنة 203 ق. أورده الشاعر أوفيد «Ovide» (49) والمعلوم أنّه لم يقع الاتّفاق بين المؤرّخين حول هاته الأحداث : لقد أوردها تيت ليف اعتماداً على رواية بُوليب وأوردها أبيّان مع بعض الاختلاف في النصّ : ذكر أبيّانُ معركةً دارت بين مسّنيسا وسيفاكس. أدْبَرت جنود المازيسيل وجُرِحَ حصان سيفاكس فسقط راكبه وعندها أسرع مسّنيسا وقبض على عدوّه وعلى أحد أبنائه وأرسلهما فوراً إلى شبيون . وهناك رواية أخرى تقول :

(49) اوفيد Ovide شاعر روماني عاش في القرن الاول قبل المسيح وفي بداية القرن الاول بعده فهو إذن من المخضرمين

إنّ سيفاكس كان ممتطياً نبلا فرماه جندي روماني برمحه فسقط . ومهما كثرت الروايات واختلفت في بعض تفاصيلها فالثابت أنّ البطل المازيسيلي سقط أسيراً تحت قبضة الرومان وبسقوطه تألّق نجم مسّنيسا في سمّاء افريقية حيث انتشى بالنصر وتابع طريقه نحو عاصمة سيفاكس قصد فتحها والتسلّط عليها ، وتمّ الاتفاق أن يتقدّم حتّى جدران المدينة ولمّا أدركها أمر بمناداة أعيانها وأحاطهم علما بمصير ملكهم فلم يثقوا بصحة النبإ وقابلوا القائد النوميدي بالصمت . لكنّهم سرعان ما استولت عليهم الدّهشة والحيرة لمّا أبصروا سيفاكس مَغْلُولاً مثقلا بالسلاسل فهرولوا عند ذلك وفتحوا أبواب المدينة فدخلها مسّنيسا وأسرع نحو القصر حيث وجد الأميرة صُفُونِزْبَة (Sophonisbe) تلتقط الأنباء ، فلمّا فوجئت برؤية مسّنيسا خرّت على الأرض تتضرّع إليه وتسألُه أن لايتركها لعبةً بين أيْدي الرومان (50) .

• صفــو نــزبــه :

وليس لقلب مسّنيسا أن يبقى جامداً كالحجر أمام دُموع الجمال ، بل تأثّر أيّما تأثر واشتعلت نار الحبّ الذي

(50) فيما يخص الأميرة البونيقية ومسّنيسا انظر :
Stéphane Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. III P. 187, 238 et 239.

ما انفكّ يكنّه لأميرة حالت دون حبّها ظروف قاسية فوعدها أن يفعل ماتريده مالكة قلبه . ورأى من الأنسب والأفضل أن يتزوّجها في اليوم نفسه إذ بزواجها به تبتعد عن شبح الأسر ، ومصير الأسرى متعلّق بمشيئة القيادة الرومانية . وتذكر المصادر الأدبية أنّ مسّنيسا كان يحتفل بزفافه لمّا وصل ليليوس إلى مدينة سيرتة ، فلم يخف غضبه عمّا فعله الأمير النوميدي بل وفكّر في القبض على البونيقية حتّى يُرسلها وسيفاكس إلى معسكر شبيون فاستعطفه مسّنيسا فقبل على أن يكون الحكم لشبيون في هذا الأمر .

ولمّا وصل سيفاكس إلى المعسكر الروماني يجرّ أذيال الخيبة مثقلا بالسلاسل كان الجنود والضبّاط يتزاحمون ليشاهدوه من قريب ويتعرّفوا على الظروف التي أسقطته تحت أيدي أعدائه . وتحدّث المؤرّخون عن تأثُّر شبيون لمّا رأى الملك مَغْلُولاً ، وتذكر أنّه كان ضيفه سنة 206 قبل الميلاد في قصره ، فرقّ حاله وأشار أن يعاملوه بلطف وإنسانية .

أمّا سيفاكس فحاوَل التماس المعذرة ملاحظا أنّ سياسته كانت أملتها عليه زوجته البونيقية . وقد افتكّتْ منه عقله ورشده ، وأضاف قائلا حسب ما أورده تيت ليف : إنّه ارتاح لنبإ زواج تلك المرأة الخطيرة بألدّ أعدائه فلا شك أنّها ستقوده إلى المهلكة . ونجد نفس الرواية في كتب ديودور

الصّقلي وأبيان وغيرهما . على أنّه من العسير أن نُثْبِتَها . بل من المرجّح لدينا أنّها رواية وُضِعَتْ لأهداف سياسية دعائية . فيها تشويه لملك افريقي حيث يبدو في مظهر دنيء لاقيمة له ولا سلطان إذ غامر بمُلكه تحت تأثير امرأة. وفي تلك الرواية تعليل لموقف شبيون إزاء زواج مسّنيسا بالأميرة الأرملة .

فلمّا أقبل مسّنيسا على شبيون صحبة ليليوس أثنى عليه ولعلّه أطنب في تقديم عبارات الشكر إليه أمام الجنود ، ثم اختلى به وعاب عليه زواجه بامرأة تكنّ العداوة لروما ، ولاحظ أنّه بفعلته تجاوز الحدود واستولى على حقّ من حقوق الشعب الروماني . وأيقن مسّنيسا بالخطر . ورجع إلى خيمته مُسْتَسْلماً لألمه ثمّ أرسل أحد غلمانه وحمّله كأساً مليئ سمّاً وأمره بتقديمه لصفونزبة . ففعل . ولما أتاها الغلام فهمت صفونزبة فأخذت الكأس وشربته دون خوف ولا تردّد . ولنا عن هذا الحدث روايات كثيرة . منها التي ذكرناها لتيت ليف ويتّفق في ذلك مع ديودور الصّقلي على أنّ هذا الأخير يُثْبِتُ أنّها أي صفونزبة أخذت كأس الموت من يد النوميدي نفسه . أمّا في رواية أبيّان فالبونيقية لم ترافق زوجها الثاني إلى معسكر شبيون بل مكثت بقصرها ترقّب مَجْرَى الأحداث . ولمّا التقى مسّنيسا بشبيون واستمع إلى تقريعه عاد إلى سرتة صحبة نفر من الرومان كُلّفُوا بأخذ

البونيقية ، لكنّه تّصل بها خُفْيَةً وقدّم لها السمّ وقَفَلَ راجعاً إلى معسكر شبيون .

ومن الصور التي رسمت على جدران مدينة بُمْباي (Pompei) وهي التي ذهبت ضحية انْفِجَارِ بُرْكَانِ الفيزوف Vésuve بالقرب من مدينة نَابُلي (Napoli) استيقظ البركان سنة 79 بعد الميلاد ونفخ بناره ورمّاده فكانت أكواماً قبرت تحت عبثها مدينة بمباي ثم كشف الغطاء على أنقاضها وتواصلت الحفريات إلى القرن العشرين ، وهي الآن من أشهر المعالم الأثرية بالقطر الإيطالي ، فمن الصور التي رسمت على جدرانها إذن صورة قد تمثّل موت صفونزبة إذ نرى امرأةً فوق سريرها وقد مسكت بيدها كوباً والى جانبها رجل قيل : إنّه مسّنيسا . على أنّ ستيفان اقزال لايساند هذا التفسير .

ومهما يكن من أمر فلقد انتهت أيام صفونزبة ، وفي اليوم التالي جمع شبيون الجنود وخطب فيهم شاكراً مسّنيسا وأسند إليه رَسمياً لقبَ الملك .

لقد وردت هاته الأحداث في السفر الثلاثين من تاريخ تيت ليف وإن دلّت روايته على شيء فهي تنبئ بسياسة الهيمنة التي قررت روما توخّيها مع الأمارة . لقد عاتب شبيون مسّنيسا لما تزوّج بالأميرة البونيقية ، وبذلك أظهر له أن

لاحَقَّ له في شيْ إنْ لم ترتضِه السياسة الرومانية . وفي معاتبته لمسّنيسا دوس لحقوق الأفارقة ، لكنّ روما كانت لاتبالي بهم ولا بحقوقهم . ثمّ أسند شبيون لقب الملك لمسّنيسا وأشعره بذلك أن لاحقّ له في العرش إلاّ برضا الرومان . فكأنّ شبيون كان يريد السيطرة على افريقية بواسطة الأفارقة أنفسهم !

بل وأورد تيت ليف أنّ مسّنيسا أوفد رُسُلاً يطلبون تزكية مجلس الشيوخ بروما حتّى يَطْمَئِنَّ على عرشه ويسترجع الأراضي التي كانت تعيش تحت صولجان أبيه . وهذه الرواية تثبِتُ إنْ صَحَّتْ امتثال مسّنيسا لهيمنة الرومان ، وكأنّه قد أصبح هو الآخر يعتقد أن لاسَبِيلَ لوجوده إن لم ترتضه روما ملكا . الأمر الذي جعله يبغي مرضاتها . وبذلك داس الملك النوميدي حقوق افريقية وضحّى بها في سبيل حبّه للعرش وإن سلبه الرومان من جميع نفوذه مبدئيا . أرادته رُوما مَلِكاً لأنّها كانت تأبى مُجَابَهَةَ المشاكل مباشرة ومصلحتها تقتضي إذ ذاك أن تبقى افريقية بين يدي أحد الأفارقة . بشرط أن يكون مُخْلِصاً مُتَفَانِياً يَذُوبُ أمام ارادة الرومان . وعلى مسّنيسا كان تبيّن كُلَّ ذلك لكنّه غضّ الطرف وارتكب الخيانة العظمى ، إذ بابتعاده عن مبدإ حرّية المملكة النوميدية وبقبوله مبدأ الهيمنة الرومانية ، شارك في سقوط الأراضي الافريقية تحت رِبْقَةَ الاستعمار الروماني . فلمّا عاتبه

شبيون في شأن صُفُونزبة وأسند إليه لقب الملك كانت الخطوة الأولى في التسلّط على افريقية على كلٍّ فذلك ما يبدو لنا على ضوء النصوص الرومانية ، وكثيراً ما يذكر تيت ليف أو صَلّوسِت أنّ العرش النوميدي هو مِلْكُ روما وقد أعطته لمسّنيسا جزاء الأعمال التي قام بها في صالحها أيام الحرب البونيقية الثانية ، على أنّه من العسير علينا دائما مراقبة الرواية التي يقدّمها لنا المؤرّخون في هذا الشأن .

سقط إذن سيفاكس ومثَلَ مغلولا بين يدي شبيون ولُقّبَ مسّنيسا بلقب الملك فكانت ضربة قاسية بالنسبة لقرطاج حتّى أنّها طلبت الهدنة قصد الدخول في مفاوضات تؤدّي لوضع حَدٍّ للحرب . فاغتنم مسّنيسا قيام الهدنة وعاد إلى مملكته لتدعيم مركزه فيها ، وأرسل شبيون معه ثلّة من أعوانه يقودون كتائب من المشاة والخيّالة . أرسهم كي يساعدوا الملك النوميدي على تَوْطِيدِ مكانته بين القبائل الافريقية والتسلّط على مملكة سيفاكس . وعلّق المؤرّخ الفرنسي ستيفان اقزال «Stéphane Gsell» بقوله : إنّ شَبْيُونَ لم يرسل القوات الرومانية صُحْبَةَ مسّنيسا باعتباره حليف الرومان فحسب ، بل أرسلهم ليُشْعِرَه بدينه إزاء روما وجيوشها . فكأنّ الكتائب الرومانية هي التي فتحت المدن الافريقية واكتسحت الأراضي وأخضعت القبائل ، فهي إذن ملك لروما

باعتبار حق المنتصر . ومن حقوق الرومان أن يضعوا مسّنيسا على عرش الأفارقة ، وفي ذلك إشارة ضمنية لحق روما في استرجاع العرش الافريقي والاحتفاظ به أو إسناده لمن تريد . فالهدية التي قدّمها شبيون لمسّنيسا تكنّ خطراً عظيماً على الملك النوميدي نفسه وعلى افريقية جمعاء. بذلك تحصّل الرومان على شرعية التدخّل في شؤون افريقية متى أرادوا وبالطّرق التي يَرْتَضُونَهَا .

• واقعـــــة زامـــة :

كان مسّنيسا يجوب الأصقاع النوميدية لمّا أرسل إليه شبيون يَدْعوه إلى الالتحاق به فوراً إذ كانت المعركة على وشك الاندلاع ، وقد رجع حنّبعل من إيطاليا (51) وجهّز جيشا وأخذ يتقدّم سعيا وراء الالتحام بالجيوش الرومانية . فأسرع شبيون صحبة 10000 رجل من أبطال نوميديا . ولمّا حان وقت القتال ونظمت الصفوف على مقربة من مدينة زامة (52) (Zama) كان مسّنيسا على رأس جيشه يعزّز صفوف

(51) لما أقبل شبيون على افريقية ارسلت قرطاج القائد حنبعل تأمره بالعودة الى ارض الوطن . إذا أردت التفاصيل انظر :.STÉPHANE GSELL, T. III P. 170

(52) زامة : اشتهرت هذه المدينة بالمعركة التي دارت بين جيوش شبيون وجيوش حنبعل . لم يقع الاجماع حول ضبط موقع زامة ولكنه من المرجح انها كانت تقع في المنطقة التي تمتد بين مدينتي الكاف ومكثر ولعل بقاياها توجد تحت بنايات مدينة جامة .

شبيون بالجناح الأيمن ، وقد لعب دوراً هامّاً في القضاء على فرسان البونيقيين : هجم عليهم ، بشجاعة ، ولمّا أدبروا طَارَدهم وقتّل الكثير منهم ثمّ ترك الفارّين وارتمى على مؤخّر الجيش البونيقي صحبة الضابط الروماني ليليوس فكانت ضربة حاسمة قضت على جيش قرطاج . كان الجنود يتساقطون كأوراق الخريف حتّى غطّتْ جُثَثُهم ساحة الوغى . أمّا رجال مسّنيسا فسقط منهم ماينيف عن ألفي رجل حسب الأرقام التي ذكرها المؤرّخون القدامى .

ومن الذين وصفوا وقعة زامة يجدر الإشارة إلى أبيّان وقد نقل عن أخباري رُوماني لم يحتفظ التاريخ باسمه ، وجاء في روايته أنّ شبيون تصارع هووحنّبعل أثناء المعركة : ألقى كِلاَهُمارمحه تجاه عدوّه فأدرك رُمْحُ شبيون ترسَ القائد البونيقي وأدرك رمْحُ حنّبعل فرس شبيون فسقط ، لكنّه سرعان ما اعتلى حصاناً ثانيا ورمى حنّبعل برمحه فأخطأ مَرماه ، وعند ذلك أسرع الملك مسّنيسا تجاه حنّبعل ورماه برمحه فتصدّى له بالترس وسدّد حنبعل ضربته نحو حصان الملك النوميدي فأسقطه وسقط الملك غير أنّه وثب واقفاً واتّجه نحو القائد القرطاجي خلال مطر غزير من الحِرَابِ والسهام كان يتلقّاها بترسه وهو من جلد فيل . ولمّا كان يقتلع حربة من جلد ترسه رماه حنّبعل فأخطأ المرمى ثم

رماه ثانية فأصابه في ذراعه، حتّى أن شبيون خاف عليه وأسرع نحوه لكنّ الملك ضمّد جروحه بسرعة وامتطى حصّاناً وعاد إلى المعركة .

ويشكّ بعض الباحثين في صحّة هاته الروية ، ولم يذكرها بوليب أصدق المؤرّخين القدامى وأكثرهم ثقة سيما وقدْ عرَف مسّنيسا ولعلّه تحادث معه حول أحداث الحرب البونيقية الثانية .

وانتصر الرومان ووضعت الحرب أوزارها واشترط شبيون على قَرطاج أن تعيد لمسّنيسا كلّ ما انتزعته لأبيه وأجداده ، على أنّ هذ البنْد من المعاهدة كان يكتنفه الغموض ممّا جعل مسّنيسا يبتزّ الأراضي البونيقية ذريعة أنّها كانت لأجداده في زَمَنٍ مّا وليس للبونيقيين حقّ إشهار الحرب حتّى وإنْ كانوا مظلومين . فكان مسّنيسا يتحدّى قرطاج وهو في مأمنٍ من ردود الفعل . واتّسعت أرجاء المملكة النوميدية وأصبحت مدينة سيرته عاصمة له ، وكانت [illegible] قدّمها له شبيون كما أهدت لهُ رُوما المملكة المازيسيليّة بعد القضاء على أحفاد سيفاكس وأشهرهم أزكُوبَرْزَانُ . وقد حكم قبائل المازيسيل حتّى منتصف القرن الثاني قبل المسيح وكان له جيش مُهَابٌ

لكنّه سقط في آخر الأمر وانفرد مسّنيسا بالحكم في افريقية ، وكانت مملكته تمتدّ مِنَ الحدود البونيقية إلى نهر الملوية . تبوّأ العرش وتَتَوّجَ كما تثبته النقود التي ضربت بأمر منه . ويبدوأنّه عمل على تركيز دولته على أسس اقتبس مبادئها من عالم اليونان . دولة لها خزينتها وأموالها حتّى تتمكّن من خلق جيش عتيد منظّم في إمكانه خوض الحروب حسب التقاليد والقوانين العسكرية . وأصبح جيشه يَعْتَمِدُ الخيّالة والمشاة وكان يستخدم الفيلة حسب الطرق البونيقية ، كما كان له أسطول لايتردّد في مجابهة الأمواج وتعاطي القرصنة كما أوْرَدَهُ سيسرون «Cicéron» (23) أمّا [illegible] بالإدارة فليس لدينا ما يطلعنا على دواليبها ، ويرجّح أنّه كان يعتمد على أبنائه والمخلصين من ذويه في تنفيذ القوانين ومراقبة أمن الدولة وقيادة الجيش . فكان يُرْسل أبناءه للتفاوض مع الدول الأخرى كقرطاج وروما . وكان يسيطر على القبائل النوميدية عن طريق شيوخها وأمرائها : تمتثل القبيلة بامتثال أميرها ، وإن شقّ عصا الطاعة رأيتها تخرج هي بدورها عن طاعة الملك . فهذا أمير نوميدي يدعى أفتار «Aftar» تمرّد والتفت قبيلته حوله ، فما كان من مسّنيسا إلا أن يرسل إليه جيشاً يقاومه . فيبدو أنّ القبائل النوميدية كنت لاتَتَرَدّدُ في الخروج عن النظام

[illegible] AMPS: [illegible] P. [illegible]

الباب الرابع

سيناء الملك

* سياسته الاقتصادية :

كان جلّ الأفارقة أقواماً رحّلاً يجوبون الأرض سعيا وراء المراعي ، وكانوا ينتقلون من صقع إلى صقع حاملين بيوتهم الخفيفة يستخدمون الجلد والشعر لصنعها ، وإذا استقرّوا في ربع من الربوع تراهم يشيّدون بيوتهم أحياناً من القشّ والطين تلك التي تسمّيها المصادر القديمة « مَابَلْيَا » (Mappalia) (54) . ينتقلون دافعين أمامهم حيواناتهم وهي التي تمنّ عليهم بجلودها ولحومها ولبنها . وكانت القبائل أثناء انتقالها من مكان إلى آخر وتفتيشها على المراعي تتصدّى حروب عديدة قاسية للذود عن حرّيتها والدفاع عن ديارها

(54) فيما يتعلق بالمساكن الافريقية انظر :
STEPHAN GSELL. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. V. P. 213-231.

وذويها . ونلمس ذلك [illegible] إذا علمنا أنّ النهب والسبي من أسباب العيش المه[illegible]ة لدى الأفارقة ممّا يجعل القبائل في حالة حرب دائمة . وقد تتعرض القبيلة نتيجة الحرب الضروس .

فهي ظروف قاسية لاتساعد الحضارة على التفتّح واليناعة ، بل تقضي عليها . ولمّا تبوّأ مسّنيسا عرش الملك وكان يُؤمِن بضرورة تغيير الوضع وخَلْقِ دولةٍ قويّة مهابة وتوفير ظروف لنشأة الحضارة ورفاهية الإنسان في الدّيار الافريقية ، كان يؤمن بخطر الحياة المتنقّلة ولا سبيل لوضع أسس دولة قويّة مستقرّة على قبائل رحّل تَعيشُ يَوْماً هُنَا وتَنْتَقِل غداً إلى مكان سواه . وهل يمكن لدولة أن تسيطر على مشاكل قوم يجهلون الاستقرار ؟ وحياة البادية لاتُيَسِّرُ الاتّصال بين الدولة والمواطن . وكيف تكون القوانين والمشاريع نافذة المفعول إن لم يكن للدولة وسائل المراقبة والضغط عند الحاجة . من ذلك بات مسّنيسا يُفكِّرُ في القضاء على الحياة المتنقّلة وحمل القبائل على الاستقرار حتّى تتمكّن الدولة من تعزيز قواها ومسك المقوَدِ وإدارة شؤون البلاد وهي شروط أساسية لمن أراد البقاء على العرش . فالضّرائب والبداوةُ من المتناقضات . فالقبائل لاتخضعُ لقانون ولا تشارك في تزويد بيت مال الدولة مادامت تجوب البلاد ، لاتعرف الاستقرار ولا تنتسب لمدينة أو لقرية معيّنة .

إنّ حياة الرحّل مظهر من مظاهر الاقتصاد ، بل هي نتيجة اقتصاد يعتمد تربية الحيوان . فلن تعرْفَ القبائل الافريقية الاستقرار إلاّ إذا وَقَعَ تَحْويلٌ في اقتصادها . كذلك نرى مسّنيسا يعمل على تشجيع الفلاحة وتلقين القبائل أنجع الأساليب الفلاحية ، حتى يصبح الإفريقي محبّاً للأرض ومنتوجاتها ويعبّر عن حبّه لها بالحراثة والزراعة وغرس الأشجار ، فيتذوّق لذّة الحياة القارّة بما تَمُنُّ به عليه من يُسْرٍ وطمأنينة . وعمل مسّنيسا جاهداً لبلوغ هذا الهدف ، وكانت سياسته ناجعة إنْ صَدَقَ المؤرّخون في ما أوردوه ، وقد مجّدوا سياسته في الحقل الفلاحي ، ومن الذين نوّهوا بعمل مسّنيسا تجدر الإشارة إلى بُوليب : كانت نوميديا عاجزة بطبعها عن الإنتاج على حدّ قول المؤرّخ اليوناني . فلمّا تبوّأ مسّنسا عرش الملك أقام الدليل بأعماله على أنّها تثمر وتمُنُّ بكلّ ما تنتجه الأقطار الأخرى وكان يخدم الأرض ويعمل على حراثتها وزراعتها حتّى أثمرت . فكانت أنجع أساليب الدعاية للاستقرار وتعاطي الفلاحة . ذلك ملخّصُ ما ذكره بوليب في هذا الصدد (55) .

(55) يبدو ان مسنيسا عمل على تشجيع الفلاحة انظر 8 ـ 7, 16 . Polybe XXXVI.,

وبفضل تلك السياسة [illegible] الإنتاج وتكاثرت القمــوح وتخلّصت البلاد من شبح المجاعة . وبل ودخلت نوميديا عالم التجارة على أنّ بعض المؤرخين يلمسون مبالغة في أقوال بوليب ، ويزعمون أنّه إذ نوّه بأعمال مسّنيسا فذلك من باب الصداقة التي يكنّها له .

وإلى جانب الفلاحة فقد عمل الملك النوميدي على تنشيط قطاع التجارة ، و[illegible] قام به في هذا الميدان ضَرْب النقود . سبكت بعضها من نحاس وأخرى من رصاص . وتحمل النقود صوراً وحروفاً . فعلى هذه نشاهد ميماً ونُوناً ، وعلى تلك نقرأ جيماً ونونا ، وترى على أخرى حرفي الهاء والتاء ، وبقيت هاته الحروف ألغازاً حتّى كُشِفَ الغطاء على نقدين قرب مدينة قسنطينة . أولهما تحلّى بصورة فيل نُشَاهِدُ تحتَ سوقه أحرفاً بونيقية مُحِيَ بعضها وبقي بعضها جليّاً يُقْرَأ وهي « م ـ س ـ ن ـ س ـ ن » وما من شك أنّ لنا في هاته الأحرف الخمسة مركّبات اسم الملك النوميدي مسّنيسا وكان الأفارقة ينطقونه « مَسِنْسَنْ » .

وعلى النقد الثاني نقرأ الأحرف التالية : « هـ ـ م ـ م ـ ل ـ ك ـ ت ـ » وهي كلمة بونيقية الأصل تعني « الملك » . فهذان النقدان ساعدا النميّين على حلّ الرموز الآنفة الذكر . تحمل بعض النقود الافريقية كما رأينا منذ حين حرفي « الميم

والنون » وهما يشيران إلى اسم مسّنيسا فعوض أن يكتبوه كاملا نقشوه باختصار حسب الطريقة المعهودة لدى البونيقيين ، إذ يبدو أنّهم إذا أرادوا اختصار كتابة الأسماء اكتفوا بالحرف الأول والأخير من الكلمة (56) فمسنسن يُخْتَصَرُ كتابيّاً بوضع حرفي الميم والنون . أما كلمة « المملكة » فاختصارها يكون برسم الميم والتاء . فعلى ضوء هذا التحليل تمكّن النميّون من حلّ غالب الرُّموز الحرفية التي سطّرت على النقود الافريقية النوميدية . ولاشك أنّ كثرة النقود تُثْبِتُ يناعة الاقتصاد وحيوية التجارة . وقد لعب مسّنيسا دوراً عظيماً في هذا الحقل خاصّة في الجهة الشرقية من مملكته ، لأنها أكثر تطوّراً وفرها مُدُناً .

وعلى بعض هذه النقود نجد صورة الملك مسّنيسا . نقود سبكت من نحاس ، ويبدو أنّه لم يَسْتَخْدِم الذهب والفضة في مصارفه . والحقيقة أنّه لم يعثر البحّاثون إلى يَوْمِنَا هذا على أيّ نقد من هذين المعدنين . ويثبت جبرائيل كـامبـس «Gabriel Camps» أنّ مسّنيسا كان شديد الحرص على اكتناز سبائك الذهب والفضة ، (57) كما كان يكتنز الجواهر

(56) انظر : J. CHABOT : *Essai sur le système d'abréviation utilisé dans l'écriture punique in Bull. Archéo du comité*, 1944 P. XIII - XX.

(57) انظر : GABRIEL CAMPS, *Massinissa*, Paris 1969 P. 208.

وغيرها من الأشياء ، وهي سياسة تقليدية عرفها القدماء في الشرق والنرب من وادي الرافدين إلى المدن اليونانية ، كما عرفتها قرطاج وتشبثت بها قروناً طويلة رغم تناقضها مع مقتضيات التجارة . (58) وبقي ملوك الأفارقة متشبثين بهاته النظرية الاقتصادية البدائية كما ينعتها بعض الأخصائيين .

على أن النقود النحاسية النوميدية كانت نافذة المفعول داخل حدود المملكة ، ولعلها كانت تستخدم خارجها أيضاً . وتبدو مشيرة إلى ذلك نقود كشف الغطاء عنها في بلاد البلقان : (59) عثروا على كنز في مدينة « كرلا » بالقطر البلغاري ، وعثروا على كنز في مدينة « مازين » بالبلاد اليوغسلافية ، ويعد هذا الأخير 328 نقدا لكنها ضربت في القرن الأول قبل المسيح ، أي لاعلاقة لها بالملك مسّنيسا . وتجدر الإشارة كذلك إلى نقد نوميدي عثر عليه بمنطقة الأرموريك (Armorique .) بالبلاد الفرنسية .

كانت بعض المدن والأقطار لاتتاجر إلا بالعملة الذهبية أو الفضية ، وما كان مسّنيسا ليجهل تلك الظروف ، فكان يبيع البضاعة الافريقية كالقموح والعاج وريش النعام

(58) فيما يتعلق بالسياسة النقدية البونيقية انظر : G. et C. Ch. PICARD: «*la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal*, Paris 1958 P. 182-183.

(59) نقود نوميدية عثر عليها في بلاد البلقان انظر : G. CAMPS, *Massinissa*. P. 207-208.

وبيضها والحيوانات كالقردة بنقود فضية أو ذهبية ، ويحتفظ بها لسد حاجته . فبتجارته كان يجمع العملة الصعبة حسب تعبيرنا العصري .

أمّا الضرائب التي كانت تدفع لبيت مال المملكة فكانت من القموح والحيوانات . ذكر سترابون «Strabon» أن مسّنيسا كان يصدر كل سنة أمراً يقضي بإحصاء الخيل وهي عملية تيسّر ضبط الضرائب التي تفرض على أرباب هاته الحيوانات . وكانت المدن أيضاً تدفع ضرائبها عيناً ، وكانت تلك الضرائب ثقيلة بالنسبة للمدن التجارية كالتي توجد على الخليج بالجنوب التونسي .

على كل فالثابت أن سياسة مسّنيسا في ميادين الاجتماع والاقتصاد كانت تهدف خاصّة إلى تخفيف وطأة حياة الترحال ، وذلك بتشجيع الفلاحة وتنشيط التجارة في الداخل والخارج .

ه سياسته تجاه قرطاج والحضارة البونيقية

ليس لأحد أن ينكر إشعاع قرطاج في الديار النوميدية ، وليس لمؤرّخ أن يتجاهل الدور الذي لعبته مدينة حنّبعل في تحضير القبائل اللوبية الافريقية . فكان ملوك الأفارقة ينظرون إليه بعين الاعتبار والإكبار ، وقد أتى إليها بعضهم

وتلقّن فيها مبادئ الحضارة وأساليب الحكم ، وكثيراً ماتزوّجوا بفتيات بونيقيات . لقد تعرّضنا منذ حين إلى الأميرة صُفونزبة ابنة عزربعل تلك التي زوّجها أبوها سيفاكس بعد أن وعد بها مسّنيسا على أنّها تسلّمت كأس الموت من يد عشيقها الأول .

وكان مسّنيسا من عشّاق مدينة عليسة وتشبّع بمبادئ حضارتها ، وقد قضّى فترة من شبابه في المدينة وقضى أخرى مع أبنائها في المعسكرات ، وقاتل في سبيلها حتّى ألقت به ظروف جبّارة في أحضان الرومان وأصبح من أعداء قرطاج وقاتل جيوشها ، على أنّه بقي متعلّقا بالحضارة البونيقية . فمَنْ أراد النظر في موقف مسّنيسا تجاه قرطاج وجب عليه التبصّر والتمعّن حتّى يفرّق بين الوجهة السياسية والوجهة الحضارية .

فمن حيث السياسة لقد رأينا الظروف التي عملت على حفْرِ الخندق بين مسّنيسا وأرباب السياسة في المدينة البونيقية . وضعت الحرب أوزارها وتبوّأ مسّنيسا عرش الملك ، لكنّه ما انفك يكتسح الأراضي البونيقية ، ولعلّه كان يريد القضاء سياسيا على قرطاج بامتصاص دَمِها ووضع يده عليها . كان يبتزّ أموالها ولا حق له سوى القوّة التي كان يَسْتَمِدُّها من صداقته لروما .فكان لايتردّد في الجوْسَسَةِ والوشاية بقرطاج كلّما أوجبت ذلك سياسته التوسّعية . ففي سنة 174

قبل المسيح أحاط روما علما بمحادثات كانت تدور بين قرطاج وملك مقدونيا . وجازته روما فكان له أن يكتسح سبعين مدينة بونيقية على حدّ قول تيت ليف . وتابع الملك النوميدي سياسته التوسّعية حتّى اندلعت حرب بينه وبين مدينة حنّبعل في سنة 150 . وقد استغلّتها روما لشنّ الحرب البونيقية الثالثة .

كانت قرطاج إذ ذاك تقاسي ضُعْفاً شديدا ، ليس في إمكانها مجابهة الكتائب الرومانية العتيدة . وما كان الرومان يجهلون ذلك الضعف ، بل كانوا واثقين أنْ لاخطر في بقائها . ولئن عقدو العزم على تحطيمها فذلك حتّى لاتسْقط في يدي حليفهم مسّنيسا . وكان في رأيهم يغذّى أمل التسلّط عليها حتّى تكون عاصمة لمملكته الشاسعة . تلك التي يريدها أن تمتدّ من مرفإ قرطاج إلى عباب المحيط . والمعلوم أنّه كان ينادي بسياسة توحيد الأفارقة تحت صولجانه . وكان له في قرطاج نفسها حزب يدعو إلى التعاون مع ملك النوميديين لكنّه أخفق . بل حكم على أنصاره سنة 150 قبل المسيح وقد أوفد الملك إذ ذاك ابنيه مِسّبسا وغُلُسَّا إلى قرطاج للدفاع عن المضطهدين . (60) ومالقيا عند أهل قرطاج سوى التنكّر والمعارضة فاستمدّ الملك مِنْ ذلك ذريعة الحرب وحمل على

(60) انظر : STÉPHANE GSELL. *histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. III. P. 323.

بعض مدنها ، نذكر منها النصوص القديمة مدينة أوْرُسْكُوبَا «Oroscopa» بالشمال التونسي . على أنّ المؤرخين لم يفلحوا في ضبط موقعها . وقد تكون في جبال خمير على حدّ قول جبرائيل كامبس .

فالثابت أنّ الحرب البونيقية الثالثة قد شنّهَا الرومان لاخوفا من قرطاج كما تدّعيه أسطورة كاتون (61) بل كانت حرباً تستهدف وضع حدّ لسلطان مسّنيسا دون القضاء عليه. وقد شعر الرومان بخطر سياسته الافريقية إذ بنجاحها تعرقل سياسة روما التوسّعية . على كلّ فسياسة مسّنيسا حيال قرطاج كانت خطيرة تريد استئصالها من الحقل السياسي . بل كان يأمل أن تكون عاصمة لمملكته الافريقية الشاسعة . وبتصرّفاته إزاء قرطاج تظهر أنّه سياسي طموح . لكنّه أخطأ في تخميناته حيث لم يقرأ حساباً للواقع إذ ذاك . كان يريد القضاء على قرطاج وشرع في تطبيق خطّته ، لكنّه جهل أو تجاهل ما في بقاء قرطاج من حصانة لعرشه إذا رام له البقاء . أثْبَتَتْ الأحداث أنّه كان على مسّنيسا أن يسعى في التعاون مع قرطاج إثر انتهاء الحرب البونيقية الثانية ، وقد استرجع عرشه وصولجانه بل واتّسعت مملكته . فبالتعاون مع قرطاج يكون من العسير أن تفرض روما عليه سياستها ، وببقاء قرطاج والتعاون

(61) فيما يتعلق ببيتة كاتون انظر : Pline l'Ancien XV, 74-75.

معها كان يستطيع التخلّص من التبعية ، من ذلك يبدو أنّه أخطأ الحساب . حيث أغرته السلطة الآنية ولم يُفكّر في نتيجة سياسته وهي القضاء على المملكة النوميدية . وفتح باب افريقية إلى الكتائب الرومانية وجبروتها . فبالقضاء على قرطاج أمضى الملك مسّنيسا وثيقة تتضمن بَسْطَ نفوذ الرومان على افريقية من السواحل التونسية إلى أمواج المحيط .

وبقدر ما كان الملك يريد موت المدينة البونيقية من حيث هي قوة سياسية ، بقدر ما كان متشبّعا بثقافتها ومتشبّثا بها ، ولعلّه كان ينوي حمل القبائل الافريقية على استيعاب الحضارة البونيقية كما استوعبها هو نفسه . من ذلك أنّه اتّخذ لغة قرطاج لغة رسمية له وقد تعلّمها وأتقنها منذ صغر سنّه . ففي أثناء حديثنا عن النقود النوميدية أشرنا إلى الحروف البونيقية التي سطّرت عليها تفسيراً لبعض ما تتحلّى به من صور . وقرأنا اسم الملك مسّنيسا على بعضها . أليس ذلك دليلا قاطعا على استخدام لغة حنّبعل في قصر مسّنيسا ؟ وإلى جانب النقود تحق الإشارة إلى النقائش التي خطّتْها اليد النوميدية في أيام مسّنيسا وأحفاده ، وقد أزيح التراب عن أكثرها في خرائب معبد الخفرة قرب قسنطينة بالجزائر . وتجدون هاته النقائش معروضة في متحف هاته المدينة .

وفيما يتعلّق باستعمال اللغة البونيقية في قصر مسّنيسا

لنا شهادات أدبية : أورد سيسيرون «Cicéron» أنّ أسطول الملك ألقى مراسيه يوماً في أحد ملاجئ جزيرة مالطة ، واتّفق أن ولّج أمير البحر معبد الإلهة عشترت (62) وإذا بنابي فيل يقمان تحت بصره كان قدّمهما بعض الزائرين قرباناً . وأعجب أمير البحر بالنابين وقرّر أن يأخذهما ويقدّمهما هديّة للملك . وأعجب الملك بالهدية فعلا أيّما اعجاب ، لكنّه لمّا علم قصّتهما أمر أن تقلعَ سفينة خماسية نحو الجزيرة لإرجاع النابين إلى مكانهما المقدّس . وأوصى بتسطير نقيشة بونيقية الحروف تتضمّن أنّ الملك تسلّم النابين ولا علم له بمصدرهما وأمر بإعادتهما إلى المعبد فورَ إحاطته بالحقيقة .

قد يعسر علينا مراقبة هاته الأحداث سيما ولم ترد إلاّ في نصوص سيسيرون «Cicéron» لكنّها رواية تشير إلى الملك مستّنيسا وشخصيته . فهي تذكر أسطول المملكة النوميدية ، وها قد أصبحَ قادراً على خوض مياه البحر الأبيض المتوسّط قصدَ التجارة أو القرصنة . ثمّ تنبئ هاته الرّواية بورع مستّنيسا إذ كان يحترم المعابد حتّى أنّه لم يتردّد في إرجاع النابين إلى مقدّس عشترت ، وعمد إلى تجهيز سفينة خماسية لتقوم بتلك المهمّة الخطيرة في نظره وقد تشير النقيشة إلى

---

(62) فيما يخص معبد الآلهة عشترت بجزيرة مالطة انظر :

«*Missione archeologica a Malta*».

اللّغة البونيقية واستخدامها في دواليب الدولة النوميدية . كان المعبد بونيقياً وكانت جزيرة مالطة من الأصقاع التي اكتنفتها حضارة قرطاج فهذه ظروف قد تحتّم استعمال لغة قرطاج حتّى يكون مضمون النقيشة في متناول الزائرين . على أنّ الكاتب لم يتعرّض لهاته التفاصيل ولعلّه قال « نقيشة بونيقية » لما كان يعلمه عن حظّ اللغة القرطاجية لدى الأفارقة في القصور والمدن والأرياف .

لقد ولجت الحضارة البونيقية قلوب الأفارقة منذ عهد قديم كما نلمسه في حقل الديانة خاصّة . كانت لهم آلهتهم الدينية وأقاموا لها النصب كالتي نجدها في متحف باردو ، وأشهرها نصبٌ وجدوه قرب مدينة باجة . وذكر المؤرّخ اليوناني هيردوت «Hérodote» (63) أنّ الأفارقة كانوا يعبدون الشمس والقمر . وإلى هاته المعتقدات الافريقية أضافوا معتقدات أخذوها عن أهل قرطاج ، فكان مستّنيسا يعبد الشمس ، وكان يهاب آلهة قرطاج ، وأقيمت النصب في أيامه قرباناً لبعل حمّون ولتانيت ، فهو لم يُشحْ بوجهه عن معتقدات مدينة قاتلها وحاولَ جُهْدَهُ القضاء عليها . بل تمكنّت الحضارة البونيقية بلغتها وديانتها وتقاليدها في قلوب النوميديين ، وثبتت قروناً بعد موت قرطاج وارتحالها

---

(63) انظر : هيرودوت «HÉRODOTE» السفر 4 ـ الفقرة 188 .

من دنيا السياسة . عمل مستنبسا على نشر الحضارة البونيقية بين القبائل الخاضعة لصولجانه . وإن ولَجَتْ تلك الحضارة المدن النوميدية قبل جلوسه على الأريكة الافريقية . فيحقّ لنا أن نقول : إنّه كان صديق الحضارة البونيقية يتكلّم لغتها ويدين بديانتها ولم تتعدّ عداوته إزاءها حدود السياسة .

مستنيسا والبــلاد اليونانية :

على أنّ الحضارة البونيقية لم تعُقْ مستنيبا عن التشبّع بحضارات أخرى . فلم يكن من الذين يشيحون بوجوههم عمّا تعيشه الشعوب في مختلف الأصقاع . ولعلّ الحضارة البونيقية هي التي ساعدته ففتحت له نوافذ على الحضارات الأخرى حتّى أبصر نور الحضارة اليونانية وكانت إذ ذاك تكتسح القلوب وتسيطر عليها . لقد كان مستّنيسا باتّصال متين مع البلاد اليونانية : أصبحت بعض المواني على شواطئ افريقية ملكا له كالتي تقع بين نهر الملوية ومدينة طبرقة ، وكالتي توجد بين خليج قابس ومدينة لبدة الكبرى (64) بالقطر الليبيّ الشقيق . وكانت هاته المواني تأوي أسطول الملك . وفيه سفن تجارية وأخرى حربية تهاجم العدوّ أيام الحرب وترافق التجّار عبر البحر وتسهر على صيانة أموالهم بالتصدّي إلى القرصنة ومطاردة لصوص البحر . وبفضل هاته السفن ـ تجارية كانت أوحربية ـ تمكّن النوميديون من الاتّصال مباشرة بالبلاد اليونانية ، والتبادل معها البضاعة والأفكار .

ولجت الحضارة اليونانية الدّيار الافريقية منذ زمن بعيد وعن طريق قرطاج خاصّة ، حتّى أنّه من أراد دراسة الحضارة البونيقية وجب عليه قراءة وزن لبني اليونان وحضارتهم . وقد أثّرت على أبناء قرطاج كما تشهد به بقايا المدينة . إلاّ أنّ أبواب المدن الافريقية فتحتْ على مصاريعها في وجه اليونان وحضارتهم على عهد مستّنيسا حيث قويت حركة التبادل بين مدنه والمدن اليونانية . وازدادت العلاقات بينه وبين أرباب الحكم في الديار اليونانية متانة وانتظاما . ومن الجزر اليونانية التي كانت باتّصال متين مع مستّنيسا تجدر الإشارة إلى جزيرة رودس «Rhodes» وكانت لها مكانة عظمى في دنيا التجارة وقتئذ . كانت رُودس تبتاع الخشب والعاج من بلاد مستّنيسا كما أثبته ستيفان اقزال «Stéphane Gsell» على ضوء رواية صدرت في معجم اليوناني سويداس «Suidas» (65) قد عاش في القرن العاشر

(64) لبدة الكبرى «Leptis Magna» مدينة أسسها الفنيقيون على السواحل الليبية الحالية وقد عظم شانها ايام الامبراطور سبتميوس سفيريوس «SEPTIME SÉVÈRE» وما زالت بقايا بناياتها الشامخة تثير اعجاب السواح واهتمام علماء الآثار.

(65) سويداس «SUIDAS» لغوي يوناني

ميلاديا وصنّف معجما للغة اليونانية وأورد في ذلك المعجم فقرات عديدة اقتبسها من كتب القدماء . و إلى جانب رواية سيوداس ينبغي ذكر قوارير صنعت بجزيرة رودس كما تشهد به خواتمها . وتثبت هاته القوارير مدى التبادل التجاري بين جزيرة رودس والبلاد الافريقية في عهد مسّنيسا .

ولم تكن تلك الروابط وقفا على جزيرة رودس ، بل كان لمسّنيسا أصدقاء في عاصمة البلاد اليونانية : أثينا . فهذا تاجر يوناني كان يتباهى بالصداقة التي يكنّها له ملك الأفارقة ، وأقام تمثالا في جزيرة ديلوس «Délos» تقديراً وإجلالا لصديقه النوميدي العظيم ، وكان التمثال مصحوباً بنقيشة (66) يونانية تجدونها بالسفر الحادي عشر من مجمع النقائش اليونانية تحت رقم 1115 . ويبدو أنّ التمثال والنقيشة يعودان إلى سنة 170 قبل ميلاد عيسى . ومِنْ حبّ مسّنيسا للحضارة اليونانية أنّ ابنه مسطنبال «Mastanabal» تعلّم لغة افلاطون وكرع بشغف من حوض الأدب اليوناني حسب ما أورده تيت ليف . (67) وشارك مسطنبال في ألعاب أثينا وفاز في سباق الخيل وكان ذلك بين سنتي 168 و 169 .

ومن بين الصداقات التي كانت لمسّنيسا في بلاد اليونان

(66) انظر : G. CAMPS. *Massinissa* - Paris 1960 P. 199.

(67) كان مصطنبال بن مسنيسا يحسن اللغة اليونانية انظر : Tite-Live Epitome du livre L.

تجدر الإشارة إلى ذكر أحد ملوك الأقطار اليونانية بآسيا الصغرى . أحاطه مسّنيسا بعطفه وعنايته وقام له تمثالا في جزيرة ديلوس ، وكانت هي الأخرى مصحوبة بنقيشة يونانية . (68) وفي خرائب هاته الجزيرة كشف الغطاء عن نقيشة سطّرت حروفها على صفيحة من رخام ، وممّا تتضمّنه النقيشة اسم غُلُوسّا «Gulussa» وهو أحد أبناء مسّنيسا . (69)

وأحاط كرم مسّنيسا بمعابد الجزيرة حيث أرسل إليها سنة 169 كمّية من القمح تبلغ 11600 قنطار بيعت لفائدة معبد أبلون «Apollon» أفلا يثبت كلّ هذا حبّ مسّنيسا للحضارة اليونانية ؟ إنّ الهدية التي قدّمها لمعبد أبلون «Apollon» تشير إلى شعوره نحو الديانة اليونانية . لقد ألمعنا إلى وَرَعِه وتَقْواه أثناء حديثنا عن جزيرة مالطة ومعبد عشترت . كان يتعبّد للآلهة الافريقية اللوبية . وكان يتعبّد لآلهة قرطاج ، وها نحن نراه يتقرّب إلى أبُلُّونْ إله الشمس عند اليونان . وحاول بعض المؤرّخين أن يثبتوا دور مسّنيسا في نشر الحضارة اليونانية في بلاده ، وما دخول إلهتي الفلاحة

(68) انظر :
P. ROUSSEL et J. HATZFELD. *fouilles de Délos, inscriptions - Dédicace du roi Nikomedès au roi Massinissa Bull. de correspondance hellénique* T. XXXIII, 1909. P. 473-522.

(69) نظر عدد 15 .

ديميتار «Déméter» وكُوري «Coré» المعابد الافريقية إلاّ نتيجة لذلك العسل الجبّار . ذلك ما بيّنه المؤرّخ الفرنسي جيروم كركبنو (70) «Jérôme Carcopino» في مقال نشرته المجلّة التاريخية سنة 1928 . والمعلوم أنّ عدداً من النقائش المتعلّقة بالمتي الفلاحة كشف عنها الغطاء بالديار النوميدية . وأورد القدماء أنّ الأفارقة كانوا حريصين على عبادة هاتين الإلهتين ، ويحتفلون بأعيادهما حسب الطقوس والمراسم اليونانية.

التحقت ديميتار بدنيا آلهة قرطاج منذ بداية القرن الرابع قبل المسيح ، ولعلّها دخلت بيوت الأفارقة منذ ذلك العهد . لكنّ مسّنيسا شجّع تلك العبادة باعتبارها عنصراً من عناصر الحضارة اليونانية التّي كان يريد إدخالها في قلوب الأفارقة . ولعلّه من الأرجح أنّه كان يؤمن بفاعلية تلك العبادة من حيث هي ضمان الخصب ووفرة المحصول .

دخلت إذن حضارة اليونان بيوت الأفارقه وقلوبهم في عهد مسّنيسا وأقبل بعض اليونانيين على سيرته عاصمة المملكة النوميدية واستقرّوا بها وأبقوا آثارهم في معبد الحفرة حيث عثر على نصُبٍ أتيست قرباناً لتانيت وبعل حمّون ، لكنّها خطّت بلغة يونانية وأحرف يونانية ممّا يثبت أنّ تلك الجالية

(70) انظر : JÉROME CARCOPINO. *Le culte des Cérères et les Numides* Revue historique T. CLIX. 1928. P. 1-18.

دخلت مجتمع الأفارقة فتأثّروا به وأثّروا فيه . وكيف نتحدّث عن بني اليونان في عاصمة مسّنيسا دون أن نشير إلى قصر الملك حيث كانت تقام الولائم والحفلات والموسيقى اليونانية تشنّف الآذان حسب ما أورده بعض القدماء . فكلّ ما أسلفناه يبيّن مدى تعلّق مسّنيسا بالحضارة اليونانية وحبّه لفنونها الجميلة كما تثبت إشعاعه وسمعته في ديار بني اليونان .

ه مسّنيسا والحضارة النوميدية :

يبدو أنّ اسم الملك مسّنيسا يتركب من عنصرين لوبيين : أولهما « مس » ويعني « الأمير » والعنصر الثاني « أنسن » ويعني الجميع . فاسم الملك يعني إذاً « أمير الجميع » . وأورد تيت ليف أنّ الملك كان يردّد « افريقية للأفارقة » غير أنّ رُومَا لم تغفُل عن طُموح مسّنيسا وخطر سياسته ، وعملت على شنّ الحرب البونيقية الثالثة قصد القضاء على سياسةٍ تعرقل خطاها على أرض افريقية ، وتجلّت هاته السياسة الرومانية بعد موت الملك سنة 148 حيث قسّمت المملكة من حيث السلطة على أبنائه الثلاثة . فكانت الشؤون الإدارية لمسّبْسَا (Micipsa) وكلّف غلوسا «Gulussa» بقيادة الجيش . أمّا العدلية فهي من مهام الأمير مسطنبال «Mastanabal» ولقّب كلّ واحد منهم بلقب الملك .

جاء في بعض النصوص القديمة أنّ مستّنيسا هو الذي فوّض أمر الخلافة لصديقه شبيون ، لكنّها رواية يَعْسُرُ علينا مراقبتها ، بل يرّجح أنّها من وضع الرومان أنفسهم ، وضعوها على ضوء مقتضيات سياستهم . وقد ارتدت النصوص القديمة ألواناً دعائية جليّة . أقبل شبيون على سيرتة عاصمة المملكة النوميدية إثر وفاة الملك . وعمدَ إلى تقسم الملك بين الإخوة الثلاثة طبق سياسة وقع تخطيطها في روما قبل وفاة الملك وهي سياسة تتلخّص في قولهم « فرّقْ تَسُدْ » ولاشكّ أنّهَا تَهْدِفُ إلى بسط الهيمنة الرومانية على أرض الأفارقة ، وقد خطا الرومان الخطوات الأولى في هذا السبيل غداة الحرب البونيقية الثالثة ، وسبق أن ذكرنا بوادر هاته السياسة الرومانية التوسّعية أثناء حديثنا عن الحرب البونيقية الثانية حتّى أنّ شبيون هو الذي لقّب مستّنيسا بلقب الملك في حفل حضره الجنود .

خاب مستّنيسا في الحقل السياسي وأثبتنا أنّه لم يحسن النظر في عاقبة الأمور إذ تورّط مع الرومان ولم يعرف الحدّ الذي ينبغي الوقوف عنده . فسياسة الملك النوميدي تحمل في طيّاتها بسط نفوذ الرومان على أرض افريقية من مرفإ قرطاج إلى مياه المحيط ، ولكن فلنتساءل عن موقفه تجاه الحضارة الافريقية النوميدية . نجد في كتب التاريخ قديما وحديثا أنّ افريقية كانت منغمسة في ظلمات ما قبل التاريخ لمّا أقبل عليها

الفنيقيون في منتهى الألف الثانية قبل المسيح . كان الأفارقة - حسب أقوال بعض المؤرّخين إذ ذاك - قبائل تعيش مندمجة في الطبيعة قد لاتشعر بوجودها حتّى أرست السفن الفنيقية على سواحلهم ومدّتهم بنور الحضارة فاستناروا . على أنّ الحقيقة التاريخية تبدو لنا غير تلك .

إنّ الأساطير المتعلّقة بحلول السفن الفنيقية وتأسيس قرطاج تشير إلى وجود نظام سياسي تخضع إليه القبائل الافريقية . والنظام السياسي وإن كان بدائيًّا ينبئ بتطوّر المجتمعات البشرية . فلم تتمكّن عليسة من تأسيس قرطاج إلاّ بعد تفاوض أجرته مع ملوك الأفارقة ، وبشرط أن تدفع ضريبة سنوية ألمعت إليها النصوص القديمة دون مامرّة .

ونجد في أسماء المدن ما قد يثبت أنّ الفنيقيين لم يجدوا بافريقية وَضْعاً تَحِفُّ به ظلمات ما قبل التاريخ ، بل كانت تسير نحو التحضّر والتطوّر . فغالب المدن أسماؤها لوبية . فالمرجّح أنّها إذن من تأسيس أهل البلاد نشأت قبل حلول الفنيقيين . من تلك المدن نكتفي بذكر لبدة الصغرى - لمطة - وسِقّة (Sicca) وهي مدينة الكاف وطَبّسة وتُونَاس وغيرها كثير، ويبدو أنّ الفنيقيين اكتفوا بتنمية المدن والقرى الافريقية الأصل دون أن يغيّروا أسماءها . والمعلوم أنّ المدن والقرى ظاهرة تجسّم كيان الحضارة . وبالمدن والقرى

تتقلّص ظلمات ما قبل التاريخ . ومن الذين يؤمنون بالحضارة اللوبية وبشخصيتها وطرافتها يمكن أن نذكر جبرائيل كاميس ، وقد أشار بإلحاح إلى عناصرها السياسية والفنيّة والعقائدية واللغوية خاصّة .

إنّ للأفارقة لغة يتخاطبون بها كلاماً وكتابة . وأيّ عنصر حضاري أقوى من الكتابة . فإنّ الحروف اللوبية تشير إلى مستوى الحضارة الذي أدركه الأفارقة ، وفي الحروف "تـوْق" نحو سبك شخصية حضارية . لقد تحدّث الأسقف فـــولجانس «Fulgence» وهو افريقي عاش في عهد الفندال عن الكتابة اللوبية ، وذكر أنّها تستخدم ثلاثة وعشرين حرفا لكنّه أخطأ حيث بان على ضوء النقائش أنّ عدد حروفها أكثر ممّا أشار إليه الأسقف الافريقي . وكشف الغطاء عن هاته النقائش في كثير من المدن الافريقية منها : دقة ومكثر وقسنطينة وغيرها . وجمع شابو «Chabot» ثلّة من هاته النقائش في كتاب أجزاؤه ثلاثة ، وذلك سنة 1940 . وتحدث الأستاذ جامس فيفريي «James Février» عن الكتابة اللوبية في كتابه « تاريخ الكتابة » .

وأمّا فيما يتعلّق بأصل هاته الكتابة فيرى بعضهم أنّها اقتبست من الكتابة اليونانية العتيقة ، وكان الفرنسي ريني دوسّو «René Dussaud» من أنصار هاته النظرية ،

ونشأت نظرية ثانية تعيد الأحرف اللوبية إلى كتابات سامية وركّزوها على أمرين اثنين : أوّلهما عدم وجود الحركات في كلّ من هاته الكتابات ، والأمر الثاني تشابه بين أحرف الكتابة اللوبية وأحرف بعض الكتابات السامية كالفنيقية وكتابات أخرى بجنوب جزيرة العرب ؛ ويتجسّم هذا التشابه في الصوت والتصوير ويرى الأستاذ فيفريي «Février» أنّ الكتابة اللوبية تأثّرت بالكتابة البونيقية .

لهذه الكتابة اللوبية نظام عمودي ، وهل تثبت هاته الظاهرة وجود الكتابة عند اللوبيين قبل تغلغل الحضارة البونيقية في ديارهم ؟ سؤال تعسر الإجابة عنه ! على أنّ أقدم النقائش اللوبية التي عثر عليها حتى يومنا لاتتجاوز حدود القرن الثالث قبل المسيح . فمنها نقيشة لوبية بونيقية تذكر معبداً أقامه مسّبسا «Micipsa» إجلالا لأبيه سنة 139 قبل الميلاد . ومن المؤرّخين من يرى أنّ الكتابة اللوبية نشأت أيّام ماسّنيسا وبإيعاز منه . ولكنّها نظرية لاعماد لها ، بل في سياسة ماسّنيسا ما يفنّدها إذ يتّخذ اللغة البونيقية لغة رسمية كما تشهد به النقائش والنقود . فهل يحقّ لنا أن نعيب عليه عدم اكتراثه بعناصر الحضارة اللوبية حيث كان يؤمن بتفوّق الحضارة البونيقية ويرى فيها أوعب الطرق لتحضير القبائل التي تعيش تحت صولجانه ؟

الباب الخامس

يوغرطة

طفولته وشبابه

* مـوت مسّنيسـا :

التحق مسّنيسا بعالم الأموات سنة 148 قبل المسيح ، وكانت نار الحرب البونيقية الثالثة قد شبّت بعد . لكنّ صمتا عميقا يحفُّ بالمكان الذي احتضن بقاياه . فلم يذكر القدماء عن ذلك شيئاً . وفيما أن ذكروه فلم تصلنا أصداء أقوالهم . على أنّه يوجد بضواحي مدينة قسنطينة على بعد أميال قليلة رسم بنيةٍ أطلق عليها سكّان الجهة اسم « صومعة الحرب » (71) قالوا صومعة لأنّها تشبه الصومعة من حيث

---

(71) صومعة الخرب: ضريح شيدوه من جنادل مفصلة نلمس في بنايته تاثير الفن اليوناني. توجد بقاياه على بعد اميال من مدينة قسنطينة وقيل انه ضريح مسنيسا انظر :
STÉPHANE GSELL «*Monuments antiques de l'Algérie*» I 65-61. BONNEL, *Monument Greco-punique de la Soumat* (près le Constantine) *Rec. les Not. et Mém de la société archéologique de Constantine* T. XLIX, 1915 P. 167-178.

الهندسة . أمّا لفظة « الخرب » فهي تشير إلى حالة البنية المتداعية الخربة .

ولقد أعارها الأثريّون والمؤرّخون اهتمامهم منذ بداية هذا القرن حيث كلّف الأثري « بُونال » بدراسة الصومعة بما في ذلك من تنقيب وترميم حتّى نشر مقالا في شأنها سنة 1915 في المجلّة التّي كانت تصدرها ثلّة من أحبّاء الآثار بمدينة قسنطينة ضمن عددها التاسع والأربعين . وأبرز بُونالْ خصائص تلك البِنَايَةِ حيث شاركت عناصر فنّية مختلفة في سبك جمالها . فيها عناصر يونانية الأصل وعناصر فِرْعَوْنِيّة . فالأساطين الدررية تذكرنا الحضارة اليونانية و « الحلق المصري » «La gorge égyptienne» يذهب بنا إلى مصر الفراعنة ومزج هاته العناصر الفنّية المختلقه في بِنْيَةَ واحدة ، ظاهرة من أبرز ظواهر الفنّ الفينيقي البونيقي . نلمسها في ضريح دقّة وفي المدراسن وهو ضريح يتباهى بجماله وروعته جوار جبال الأوراس . وشيّد « المدراسن » في القرن الثالث قبل المسيح . شكله مستدير وقطر دائرته 59 مترا . وساهمت ـ كما أشرنا منذ حين ـ في سبك جماله أساطين يونانية يشرف عليها « الحلق المصري » ونجد هاته العناصر الهندسية منقوشة على نصب التوفات .

والثابت أنّ « صومعة الخرب » ضريح احتضن رفات

شخصية لامعة من عظماء الأفارقة . وبرهان ذلك ما وجدوه بالبناية من قوارير وأسلحة مختلفة مقبورة في سرب شيّدوه تحت « الصومعة » . فمن هاته الشخصية الافريقية اللاّمعة التي دفنت بهذا الضريح ؟ قد يكون مسّنيسا ! ولعلّ الرماد الذي كانت تحتويه القوارير الانفة الذكر هو كل مابقي من جثمان ذلك الرّجل العظيم . فهل أمر الملك بإقامة ضريحه وهو على قيد الحياة ؟ أم ترى أقاموه إجلالا للملك بعد موته ؟ ليست لنا وثائق تساعدنا على معرفة ذلك ! كما ليس لنَا مَايُثْبِتُ قَطْعاً أنّ الضريح ضريح مسّنيسا ، بل قاله المؤرّخون ويقولونه على سبيل الافتراض فحسب . وقد أقاموا هذا الافتراض على تاريخ البنية نفسها وهي تعود إلى القرن الثاني قبل المسيح ، ولاشك أنّ مسّيننا هو أعظم الملوك الأفارقة الذين ارتحلُوا إلى عالم الأموات في ذلك القرن . توفيّ كما أسلفنا سنة 148 قبل ميلاد عيسى . ولكن كيف يشيّدون ضريحا شامخاً ويدفنون فيه بقايا أعظم ملك عرفوه دون أن يخطّوا نقيشة تذكر اسم الفقيد وتنوّه بأعماله وأيامه ؟ فهل وجدت تلك النقيشة وأتى عليها الدهر ؟ ذلك مالا سبيل إلى الاجابة عنه حاليّاً .

لقد كشف الغطاء في خرائب مدينة دقّة عن نقيشة بونيقية لوبية مضمونها أنّ أهل المدينة شيّدوا معبداً إجلالا

لستّيسا في السنة العاشرة من مُلك مِسِبْسا «Micipsa» وتوجد هاته النقيشة في متحف باردو . ولَها قيمة عظيمة من حيث المكانة التي كان يتمتّع بها الملك النوميدي في نفوس رعاياه بمدينة دقّة ، ولعلّها تشير أيضاً إلى تقاليد دينية منها أنّ الأفارقة اللوبيين كانوا يعبدون ملوكهم بعد موتهم . ولهاته النقيشة قيمة تاريخية إذ هي من الوثائق التي تثبت ماذكرته المصادر الأدبية من أمرِ مسبسا حيث كان خلفاً لأبيه وانفرد بالحكم بعد موت أخويه .

ولم يرالرومان حرجاً في ذلك ، وهم واثقون من إخلاص مسبسا ومودّته وتفانيه في خدمة مصالحهم . فكان لايبخل عليهم بالجنود والفيلة ، كما كان يساهم في تجهيز جيوشهم بالقمح والذخيرة الحربية ، ممّا جعل الرومان يطمئنّون إليه ولايضايقونه . غير أنّ شبيون فرض عليه أنْ يتبنّى أحد أبناء أخيه وكان يدعى يوغرطة . وبذلك أصبح لمسبسا ثلاثة أبناء يتقاسمون العرش بعد موته .

• يـــوغـــرطـة :

فمن هو يوغرطة وما هي شخصيته وما هو الدّور الذي لعبه في حقل السياسة ؟ ذلك مانريد التعرّف عليه في هاته الصفحات التالية المتواضعة ! ولكن ما هي المصادر التي تساعدنا

على معرفة هاته الشخصية الافريقية اللاّمعة ؟ كلّ من يريد الحديث عن يوغرطة لابدّ له أن يعود إلى كتاب صنّفه مؤرّخ رُوماني عاش في القرن الأول قبل المسيح وهو يدعى صَلّــــوســت «Salluste» أتـى الديار الافريقية وأقام بها زمنا وهو يسوس شؤون نوميديا في عهد يوليوس قيصر . ويبدو أنّه كان أثناء إقامته بإفريقية يفكّر في تاريخ الحرب التي شبّت نارها بين الرومان ويوغرطة ، على أنّه لم تتح له فرصة القيام بذلك العمل إلاّ بعد رجوعه إلى رُوما ومغادرته الحياة السياسية . واختار العزلة قصد الانغماس في ميادين الفكر والأدب . فالكتاب الذي ألّفه صلّوست حول يوغرطة وبطولته يشكّلُ وثيقة أساسية لمن تعلّقت همّته بمعرفة هذا الرجل العظيم ، وبالتعرّف على أحوال افريقية في منتهى القرن الثاني قبل المسيح . ومن الوثائق التي قد تعود إلى يوغرطة تجدر الإشارة إلى نقود من ذهب وفضة نسبوها إليه ، وهي التي ذكرها يحنّى مزار ضمن كتابه حول نميات نوميديا ومريطانيا من الصحيفة الرابعة والأربعين إلى الثامنة والأربعين منه . على أنّنا سوف نعتمد في بحثنا على كتاب صلّوست رغم تعدّد مواطن الضعف فيه ، فقيمته أدبية أكثر منها تاريخية ، ولا يوجد فرق بين الأدب والتاريخ في العصور القديمة وحتّى في القرون الوسطى ، ممّا يدعونا إلى الحذر

والفطنة . سيما ولم يتحدّث المؤرّخ عن يوغرطة والأفارقة قصد التعرّف عليهم والتعريف بهم . بل صنّف كتابه ليبرز نقط الضعف ومواطن الخلل الذي اعترى مجتمع الرومان في عصره ، ولعلّه كان يريد من وراء ذلك توعية معاصريه ولفت انتباههم نحو أخطار كانت تحدق بهم ، ومهلكة كانوا منها يقتربون .

وتثبت افتتاحية الكتاب الروماني هذا الرأي حيث تضمّنت أفكاراً فلسفية حول البشرية وما قد يعتريها عندما تصارع الرذيلة الفضيلة . ونرى المؤلّف يرفع في مقدّمة كتابه من شأن العقل والروح وما يتولّد عنهما من أعمال خالدة . وأكثر هاته الأعمال نفعاً في رأي المؤلّف هو التاريخ. ويضيف صلّوست في آخر هاته الافتتاحية أنّه أراد وصف الحرب التي شبّت نارها بين الجيوش الرومانية وجيوش يوغرطة ملك النوميديين . وذلك لسببين اثنين : كانت الحرب ضروساً متقلّبة الأحوال ، وهو السبب الأول . أما الثاني فهو التصدّي لوقاحة الأشراف أثناء تلك الحرب .

وقبل أن يدخل صلّوست في صلب الموضوع تناول عرض الأحداث التي حفّت بتبوّؤ مسنيسا عرش الملك . ثم ذكر مسبسا وانفراده بالحكم بعد موت أخويه ، ويثبت أنّ يوغرطة أنجبه مصطنبال أحد أبناء مسنيسا من امرأة لم يتزوّجها

بالطرق الشرعية . (72) بل كانت أمّه جارية عرفها مصطنبال «Mastanabal» في ظروف لم يدقّقها التاريخ . ينتمي يوغرطة إذن إلى العائلة المالكة من جهة أبيه دون أن تكون له حقوق أفراد العائلة الشرعيين بل اكتسبها لمّا تبنّاه عمّه مسبسا بإيعاز من شبيون كما أثبته صلّوست في الفقرة الخامسة من كتابه . ولهاته التفاصيل قيمة تاريخية عظمى إذ تبرز التقاليد اللوبية حول الزواج والعائلة وشرعية الأبناء .

على كلّ فلقد ولد يوغرطة وجدّه مسّنيسا على قيد الحياة ويبدو صغير السن بعد وفاته .

٥ طفولة يوغرطة وشبابه :

لاشك أنّ مصطنبال لم يهمل تربية ابنه ، ولعلّه كان باتّصال مع أمّه ويمدّها بما كانت تحتاجه للقيام بواجباتها نحو الطفل الصغير . أو هل سلّمه مصطنبال إلى مُرْضعة تسهر على طفولته ؟ ليس لدينا وثائق تمكّننا من البتّ في هاته المشاكل التاريخية ، ولم يعرها مؤرّخنا عناية بل مرّ عليها صامتاً ولم يتعرّض لها ولو بإيجاز . فهل عسرت عليه الإجابة

(72) فيما يتعلق بالعائلة عند البربر انظر : STÉPHANE GSELL *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T. V.* P. 35 - 58.

عن تلك الأسئلة ؟ كيف ذلك والحال أنّه كان من اليسير عليه البحث عنها ، وتسليط الأضواء الكافية عليها بالرواية والكتب ؟ لقد كان في مقدوره أن يسأل عن يوغرطة وطفولته الأولى بعض أمراء الأفارقة من الذين ينتمون إلى عائلة مسّنيسا من قريب أو بعيد .غير أنّ المؤرّخ الروماني أمسك عن ذلك لأسباب نجهلها . بل يرجّح أنه لم ير حاجة في ذلك . سيما والأهداف التي يرمي لها من وراء كتابه لاعلاقة لها بيوغرطة مباشرة ، بل هو لايتحدّث عن يوغرطة إلاّ إذا كان في ذلك تعريض بالمجتمع الروماني في القرن الأول قبل المسيح ، والتنديد بعيوبه . ترون إذن كيف لانعرف عن طفولة يوغرطة سوى أنّ عمّه مسبسا تكفّله بعد موت أبيه . ويضيف صلّوست أنّه أي مسبسا أحسن إليه كما كان يحسن لابنيه. ولمّا بلغ يوغرطة سنّ المراهقة أصبح قويّ البنية جميل الخلقة ، وكان آية في الحذق والذكاء . فلم ينل منه البذخ ولم تنل منه البطالة ، بل كان يتعاطى ركوب الخيل حسب التقاليد النوميدية ، وقد عرف أهل افريقية بحذقهم لركوب الخيل .

وكان يوغرطة شغوفاً بالرياضة يهوى رمي الحراب والعدْو ، وكان يتبارز في ذلك مع أترابه وينتصر عليهم جميعا ممّا جعله مقدّراً مبجّلاً عندهم . وإلى جانب الرمي والعدْو كان يوغرطة مولعا بالصيد يقضي فيه غالب أوقاته ، والصيد رياضة جديرة

بالملوك والأمراء تغذي جسم الإنسان قوّة وتغذّي روحه شجاعة سيما إن كان الصيد في أرض مليئة بالوحوش والضواري كما كانت عليه أقطار مغربنا في العصور القديمة . لقد كانت تأوي الفيلة والأسود وغيرها من الحيوانات المفترسة ، وفي الكتب القديمة ، يونانية كانت أورومانية ، شهادات كثيرة تثبت قولنا . فكان يوغرطة يحبّ الصيد ويهوى مطاردة الأسود . وممّا ذكره صلّوست في هذا الشأن حرص الأمير النوميدي على أن يكون من الذين يبادرون بضرب الأسد إن لم يكن هو أول من يسدّد له ضرباته .

ومن خصال الأمير الشاب أنّه كان سريع العمل يكره التفاخر والتباهي بأعماله ، حتّى كان يجمع بين الحذق والشجاعة وقوة الجسم والتواضع ممّا جعله محبوبا بين رفاقه ينظرون إليه بعين الاعتبار والتقدير ولا يضمرون له البغضاء وشرّ الحسد .

أمّا مسبسا فقد استبشر بادئ ذي بدء بما كان يتحلّى به يوغرطة ابن أخيه من قوّة وجمال وحذق وشجاعة ومكانة بين أترابه ، وكان يرى في قيمة يوغرطة ووزنه شرفا له ولذويه . ولـمّا شعر بثقل شيخوخته وتأمّل في صغر سنّ أبنائه أيقن بخطر يتجسّم في وزن شخصية يوغرطة ، تلك التي كانت تزداد كلّ يوم قوّة ومكانةً في النفوس . أوجس مسبسا خيفةً

من ابن أخيه وكان يؤمن بما تنطوي عليه طبيعة الإنسان من حبّ للسلطان ولهفة في إرضاء أهوائها وتحقيق طموحها . وظهر لميسبسا أنّ خطر يوغرطة يضاهي شيخوخته وصغر سنّ ابنيه ، وفي ذلك منشّط يملي الجرأة وينمّي الطموح في النفس .

ويرجّح أنّ ميسبسا كان يعيش الحيرة وعدم الاطمئنان على مصير ابنيه حتّى فكّر في القضاء على يوغرطة كيداً واغتيالا . لكنّه خاف عاقبة الأمور نظراً لتعلّق النوميديين بالأمير . فقد لايتردّدون في الذود عنه والانتقام له إذا أصابه شرّ . فكان ميسبسا يخاف يوغرطة مؤمنا بالخطر الذي يشكله بالنسبة لابنيه خاصة ، وكان مع ذلك لايستطيع التخلّص منه خوفاً من قيام النوميديين عليه وهم لايخشون التمرّد . فكيف الخروج من هذا المأزق ؟

على أنّ ميسبسا كان لايجهل شجاعة يوغرطة وحبّه للحرب فنشأت فيه فكرة تعريضه لخطر الحرب علّها تتكفّل بتخليصه من شرّ يهدّده . وكان الرومان إذ ذاك يخوضون حرباً ضدّ القبائل الإيبارية باسبانيا ، وكانت عصا القيادة بيد شبيون فأرسل ميسبسا لمؤازرة الرومان كتائب من خيّالة ومشاة وأسند قيادتها ليوغرطة وأمله أن يقتنصه الموت أثناء المعارك . لكنّ الأحداث أبت إلاّ أن تخيّب ظنّه . ذلك أنّ

يوغرطة وإن كان جسوراً مقداماً فهو لايلقى بنفسه في المعمعة إلاّ بعد تفكير وتخطيط يضمن له الخروج منها منتصراً سليماً . وما كان ليجابه الأخطار حبّاً للأخطار بل لايجابه خطراً إلاّ إذا حتّمته مقتضيات الهدف المرسوم .

ولمّا التحق يوغرطة بمعسكر شبيون أبدى من الحذق والشجاعة ما جعل القيادة الرومانية تعجب ببطولته وتتعلّق به لما لمسوه فيه من تفان وإخلاص لروما ولقائدها شبيون ، حتّى أصبح هذا يطمئنّ له ويكلّفه بأعسر المهمّات واكثرها تشعّباً ويعتبره من أخلص أصدقائه ، بل وتمكّن يوغرطة بتفوّقه وتواضعه من إغراء الذين كانوا يعيشون معه في المعسكر واكتسح قلوبهم ، ومن بينهم ثلّة من شباب روما النبيل كانوا لايعرفون شيئاً سوى التكالب على الثروة والجاه فساهموا في تغذية ما في نفس الأمير النوميدي من طموح ، وكانوا يمدّونه بيد المساعدة ليكون ملكا على افريقية بعد موت ميسبسا .

وانتصر الرومان في اسبانيا ووضعت الحرب أوزارها وعاد النوميديون إلى وطنهم . وقد نال يوغرطة جزيل الشكر من شبيون الذي أثنى عليه في خطاب ألقاه أمام الجنود ، ثم اختلى به في خيمته ونصحه بأن يعتني بصداقة الرومان ويغذّيها بأعمال وأقوال تشاهدها وتسمعها الجماهير الرومانية مذكّراً أنّ العلاقات الشخصية لاتكفي مؤونة رغم منافعها

واوصاه أن يعرض عن تقديم [illegible] الهدايا إلى الذين عرفوا بوزنهم في الحياة السياسية لأنّ الخطر [illegible] في رغبة اشتراء ما يملكه الشعب الروماني جميعه من فئة لا تر[illegible] شيئاً سوى مصالحها الشخصية . وأضاف شبيون قائلا ليوغر[illegible] : إن تحصّلت على صداقة الرومان وأحسنت تغذيتها نلـ[illegible] المجد وتبوّأت عرش الملك ، وإن أردت السير بسرعة في [illegible] السبيل أي نحو المجد والعرش ذهبت أعمالك سدى وألقت بـ[illegible] أموالك في المهلكة . ثمّ سلّم شبيون يوغرطة رسالة كلّفه [illegible] تقديمها إلى مسبسا جاء فيها : لقد أبدى عزيزك يوغرطة في [illegible]رب نومانس «Numance» شجاعة منقطعة النظير . [illegible] بشرى أزفّها إليك ولا شكّ أنّها ستنشر قلبك فرحا . ليو[illegible]رطة من الخصال ما جعله عزيزاً علينا ، وسنعمل جاهدين [illegible] يشاطرنا مجلس الشيوخ هذا الشعور كما يشاطرنا إياه الشعب الروماني ، فها أنّي أقدّم لك أطيب التهاني باسم الصداقة [illegible] تربط بيننا . لك في يوغرطة رجل جدير بك وجدير بجد[illegible] مسّنيسا . إنّ الحديث الذي دار بين شبيون ويوغرطة [illegible] الرسالة التي بعث بها القائد الروماني إلى ملك الأفارقة إذ [illegible] يثبتان ما للرومان من سيطرة على الأوضاع السياسية بافريقيا [illegible] وقتئذ . اختلى شبيون بيوغرطة وأثبت له أن لا سبيل إلى العر[illegible] دون مرضاة رُومَا وشعبها . وفي الرسالة التي أمره بتبليغها [illegible]سبسا عبّر شبيون عمّا تريده

رُوما . عبارات عذبة وتهاني تتضمّن أوامر تتعلّق بسياسة مِسبسا تجاه يوغرطة . ولعلّ شبيون كان محيطا بتخمينات مِسبسا وخواطره التي أشرنا إليها منذ حين . والمرجّح أنّ القائد الروماني كان يرى في يوغرطة ضماناً لهيمنة روما على الديار الافريقية والنوميدية منها خاصةً .

ولمّا تسلّم الملك الرسالة وأحاطّ بمحتواها أيقن أن لا سبيل إلى إبعاد يوغرطة وإقصائه عن العرش ، وذلك رغم خطورته ودهائه . بل شعر مِسبسا أنّ روما توصيه خيراً بيوغرطة إن لم نقل : إنّها تأمره بسياسة التبجيل والتقدير إزاءه . وتكيّف الملك حسب مقتضياتٌ الظروف ، وبعد التفكير في الإقصاء ولو بالكيد والاغتيال أصبح يفتّش عن مسلك يدْفعه إلى نيل عطف يوغرطة وإخلاصه ، من ذلك أنّه أوصى مؤكّداً أن يتمتّع يوغرطة بحقوق الوراثة بما فيها العرش على غرار ابنيه أدِرْبعل ويمبسال ، على أنّ الوصية لم تكن في حقيقة الأمر إلاّ خضوعاً لمشيئة الرومان ، وقد تضمّنتها رسالة شبيون كما أسلفناه .

وكان إذ ذاك مسبسا شيخا طاعن السنّ ، فلم تمض إلاّ سنون قلائل حتّى وافاه الأجل وارتحل إلى عالم الأموات . وجاء في رواية أوردها صلّوست أنّ مِسبسا دعا يوماً ـ وهو طريح الفراش ـ ذويه وأصدقاءه وأبناءه وخاطب يوغرطة بحضورهم

قائلا : كنت طفلا صغيراً يتيماً عديم المال والأمل . فأخذت بيدك حتّى رفعتك إلى وراثة العرش. فعلت ولا رغبة لي سوى أن تكون محبّتك لي تساوي المحبّة التي يكنّها لي أدربعل ويمبسال . وأثبتت الأحداث أنّي لم أكن مخطئا ، فيما فعلت ، حيث أكسبتني وأكسبت عرشي عزّة بعد رجوعك من قلعة نومانس «Numance» فضلا عن خصالك الأخرى العديدة المختلفة . شجاعتك زدت الصداقة التي تربطنا بالرومان متانة . لقد ذاع اسم عائلتنا في الديار الاسبانية .

أمّا وقد أبت الطبيعة إلاّ أن تضع حدًّا لحياتي فباسم هاته اليد التي بيدي وباسم الواجب نحو العرش أتوجّه إليك طالباً منك إحاطة هذين الطفلين بعطفك ، فهما ابنا عمك من حيث الولادة وأخواك بفضل إحساني إليك . أطلب منك ألاّ تحاول الاعتماد على غيرهما . فالعرش لاتكون حراسته بالجيوش والأموال بل حراسته بالصداقة . ولاتكون الصداقة بالجيوش ولا تقتنى بالأموال ؛ بل ينالها المرء بالمجاملة والإخلاص ، وهل يوجد صديق أجدر بالصداقة من أخ ؟ وأيّ صديق لك إن كنت عدوّ ذويك ؟ إنّي تارك لكم عرشا قويًّا إن حسنت سياستكم . ضعيفاً إن لم تحسنوها . فبالوحدة والاتفاق تقوى الدول الصغيرة ، وبالتفرقة تنهار أعظم الدول . أنت يا يوغرطة أكبر أبنائي سنًّا وأمتنهم حكمةً ، فإليك يعود عبء

المسؤولية في توجيه الأمور حتى تكون في خير الجميع . ذلك أنّه إذا شبّ خصام بين قوم فالقوي يبدو ظالما وإن كان مظلوماً . أمّا أنتما يا أدربعل ويمبسال فعليكما باحترام هذا الرجل العظيم وتوقيره . لكما في شجاعته إسوة حسنة فاعملا حتّى لايقال : إنكما دون يوغرطة قيمة .

ذلك نصّ الكلمة التي توجّه بها ميسبسا إلى أبنائه وهو يحتضر . رواية أوردها صلّوست دون الإشارة إلى مصدرها . ونحن لم نقدّم لكم ترجمة حرفية ، بل اكتفينا باحترام المعاني الأساسية . ولا شك أنّها تكتسي قيمةً عظيمةً لفهم سير الأحداث كما يقدّمها المؤرّخ الروماني . قلنا « كما يقدّمها المؤرّخ الروماني » لأنّنا لانستطيع إثبات تاريخيتها ، كما لايحقّ لنا تفنيدها . على أنّه من المرجّح أنّها رواية من وضع المؤرّخ نفسه ، وتشتمّ رائحة ذلك من النزعة الفلسفية التي طغت عليها . والمعلوم أنّ صلّوست كان من هواة الفلسفة ، وكان يريد من وراء كتابه درس المجتمع الذي يعيش فيه حتّى تبرز أخطاؤه ، وكان يريد مدّ القاري بالحكمة والعظــة أليس ذلك هو معنى التاريخ في نظر القدماء : تعرض الأحداث في كتبهم قصد استخلاص الحكمة منها والاتّعاظ بها . وللقرون الوسطى نفس النظرية في هذا الشأن حيث يقول ابن خلدون في مقدّمته : « اعلم أنّ فنّ التاريخ فن غزير المذهب

جمّ الفوائد شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتّى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » .

تبدو الكلمة التي نسبها المؤرّخ الروماني إلى مسبسا في ثوب حقيقة فلسفية ، وكأنّه أراد من الأحداث أن تكون مصداقاً لتلك الحقيقة الفلسفية ، وهذا من العوامل التي تجعلنا نشكّ في تاريخيتها ، ونفترض أنّها من وضع المؤرّخ وأجاب يوغرطة عن كلمة أبيه حسب رواية صلّوست إلاّ أنّ المؤرّخ اكتفى بإشارة عابرة ، ولعلّه لم ير في ذلك فائدة حيث أعرب عن أفكاره الفلسفية في الكلمة الآنفة الذكر ولم يبق له إلاّ سرد الأحداث .

• خـــلافـة ميسبْســـا :

توفّي مسبسا سنة 218 قبل الميلاد وخلفه على العرش أبناؤه الثلاثة طبقا لما أوصى به الفقيد . أقيمت الجنازة ودفن الملك حسب التقاليد النوميدية ، لكنّنا نجهل المكان الذي حوى رفاته . على أنّهم عثروا على نقيشة بونيقية بين أطلال مدينة شرشال بالقطر الجزائري ، وهي نقيشة قبرية تتعلّق بموت مسبسا وبالضريح الذي أقاموه له . وقام الأستاذ

جـــامس فيفـــريـي «James Février» بدراسة النقيشة ونشر مقاله في مجلّة الدراسات الأشورية والآثار الشرقية في الجزء الخامس والأربعين سنة 1951 . وخطّت حروف النقيشة على صفيحة من المرمر كانت مرشوقة على أحد جدران الضريح . لكن أيّ ضريح ؟ وفي أي مكان يوجد هذا الضريح ؟ فهل كان في مدينة شرشال ؟ ولكن كيف يدفن الملك في مدينة تبعد عن عاصمته بما ينوف عن أربعمائة وخمسين كلم ؟ أمّا الأستاذ فيفريي فهو يرى أنّ مسبسا دفن بمدينة سيرته «Cirta» وأخذت النقيشة منها وحملت إلى مدينـــة شرشال في ظروف نجهلها ، على أنّها نظرية لم يقع الإجماع عليها ، وقد ناقشها جبرائل كامبس وحاول إبراز مواطن الضعف فيهـــا .

ولمّا انتهى الإخوة الثلاثة من دفن مسبسا أبيهم عقدوا أوّل اجتماع لهم قصد النظر رسميا في شؤون المملكة . وشبّت عند ذلك أوّل مشكلة بينهم . كان الأفارقة في ذلك العهد السحيق يولون قيمة عظمى لمكان الجلوس حيث يتبوّا المقعد الأوسط أعظم القوم شرفاً ، ولمّا ولج الإخوة قاعة الاجتماع وجلس يوغرطة أتى أدربعل وجلس على يمينه . أمّا يمبسال وهو أصغرهم سنًّا فلقد أبى الجلوس إلى جانب يوغرطة بل أخذ مقعده وجلس إلى جانب أخيه أدربعل

حتّى لايكون يوغرطة يـ ـا أي على مقعد الشرف . وكان يمبسال مزهوًا بطبعه ، ـان يحتقر يوغرطة باعتبار دناءة مولده من جهة أمّه ، ومـ ـان يوغرطة ليجهل ذلك النقص ، ولعلّ ذلك الشعور هو ـي صقله وجعله يسمو ويتفوّق على الذين يتمتّعون بشر ـ المولد . وكثيراً ما يكون الشعور بالنقص حافزا يدفع المر ـل استدراك ذلك النقص ويساعده على النموّ والتفتّح ، خاصّ إذا كان له من الجأش ما يكسّر الحواجز ويتحدّى الوسط حتّى يكون القضاء على الظروف التي قد تنذّى النقص في النفس لتذيب الشخصية .

ـعندما انتقل يمبسال ـقعده وجلس يمين أخيه أدربعل أحسّ يوغرطة بسهم ـحدّى ، ولعلّه تألّم من الطعنة لكنّه كتم غيظه ولم يفه بشيء ، على أنّ أدربعل غضب من فعلة أخيه ودعاه أن يحـ ـسن يوغرطة ، وامتثل يمبسال على مضض وحمل مقعـ ثانية وجلس إلى يسار يوغرطة وهو يكاد يتميّز من الغيـ . كان ذلك ويوغرطة متمسّك بالصمت ، وفي عينيه يلـ ـ التهكّم والازدراء ، شأن رجل رصين متّزن تجاه شاب تـ ـر عليه عواطف فطرية . ويوغرطة وإن لم يفه بشيء فلسان ـ ـ يقوله : مهلا يمبسال . إنّي أترقبك في منعرج الطريـ ـ ولن أترك فرصة القضاء عليك تنفلت . على أنّهم تجاوز الأزمة وشرعوا في درس الوضع

قصد حلّ بعض المشاكل التنظيمية والإدارية . عرض يوغرطة مشروعاً يتعلّق بإلغاء الأوامر التي أصدرها مسبسا في السنوات الخمسة الأخيرة . وذلك باعتبار شيخوخته التي نزعت منه بعض إدراكه . وقد أصدر أوامر خطيرة لاتتماشى وصالح العرش ، على أنّ صلّوست لم يذكر شيئا من تلك الأوامر بل اكتفى بالإشارة إليها حتّى أننّا نجهل محتواها . فلو تعرّض لها المؤرّخ الروماني بشيء من التفصيل لكانت فائدتها عظيمة لمن أراد البحث عن سياسة مسبسا في الداخل والخارج . ولفهمنا الغرض الذي كان يوغرطة يستهدفه من مشروعه الآنف الذكر . فلماذا اكتفى صلّوست بالإشارة إلى تلك الأوامر ولم يعرها اهتماما كبيراً ؟ فهل يعود ذلك إلى عدم اهتمام المؤرّخ بشؤون المملكة النوميدية حيث لايهتمّ بتاريخها من حيث هو بل يستخدمه وسيلةّ لتدعيم أفكاره السياسية ونظرياته الفلسفية الخاصة بالمجتمع الروماني في القرن الأول قبل المسيح ؟ لذلك تراه يقتطف من تاريخ يوغرطة أحداثاً تساعده على بلوغ هدف رسمه مسبّقاً وهو التعريف بالأوضاع السياسية في روما وقتئذ .

وليس من الغريب أن يكون مشروع يوغرطة من وضع صلّوست حتّى يتمكن من تقديم مسرحية تدور بين أبناء مسبسا وفيها يتفوّق الأديب على المؤرّخ . ثمّ إنّها وسيلة

تجمل المؤرّخ يواصل حديثه في الخصام الذي شبّ بين يوغرطة وأخيه يمبسال . نحن نقدّم لكم هاته الافتراضات حتّى نعرب عن احترازنا تجاه صلّوست وما جاء في كتبه من روايات وأخبار . واحترازنا لايعني التفنيد قطعا بل نتيجة عجزنا عن مراقبة أقواله ، ولا تكون المراقبة إلاّ بتوفّر الوثائق ، أدبية كانت أو أثريةً نقائشية .

على أنّ يمبسال بادر بالمصادقة على مشروع يوغرطة بل وتحمّس له إذْ فيه شرّ لصاحبه : ذلك أنّ ميبسا أصدر أمره بتبنّي يوغرطة ومنحه حقّ الوِرَاثَةِ قبل موته بثلاث سنوات ، فبمقتضى المشروع يصبح يوغرطة بعيدا عن العرش لاحق لهُ في الوراثة ، وتأزّم الوضع من جديد وحزّ موقف يمبسال في نفس يوغرطة حتّى بات لايفكّر إلاّ في الانتقام من رجل تكبّر وتعنّت . تجاوز يمبسال الحدود ، فما بقي ليوغرطة إلاّ البحث عن أنجع الوسائل للقبض عليه والفتك به .

لم يبق للتفاهم بابٌ يُفْتَحُ . فلجأ الإخوة إلى تقسيم السلطة والأموال ، وانفرد كلّ واحد منهم بإقليم حسب قرار وقع الاتّفاق عليه . وقسّمت الأموال واتّجه كلّ واحد منهم إلى قلعة تأويه وأمواله . واتّفق أنْ كان الملك يمبسال بمدينة ترمدة «Thirmida» وهي قلعة توجد قرب مدينة دقّة ، وشاءت الصدف أن يكون في القلعة ضابط من أنصار

يوغرطة وأصدقائه ، وسكن يمبسال منزل الضابط . ولم يخف ذلك على يوغرطة فأقبل على صديقه وطلب منه أن يطلعه على خفايا المنزل وأقفاله ، وعلى ضوء ذلك أمرَ يوغرطة بتقليد المفاتيح حتّى يتيسّر له ولوج القلعة ومنزل الضابط عند الحاجة . وكان يمبسال يوصد الأبواب ليلا ويحتفظ بالمفاتيح خوفا من الأخطار .

أمّا يوغرطة ـ وكانت له المفاتيح الضرورية ـ فقد بات يتحيّن الفرص لتنفيذ خطّة تستهدف القضاء على يمبسال . وأقبلت ذات ليلة كوكبة من جنود يوغرطة ودخلوا المنزل وبادروا بالتفتيش عن الملك بعد قتل الحرس . وظلّ جنود يوغرطة يرتعون في الدار ويعيثون فيها فسادا حتّى وقعوا على يمبسال ـ وكان قد التجأ إلى كوخ أحد العبيد ـ فقطعوا رأسه وأتوا به إلى سيّدهم . وردت هاته الأحداث في الكتاب الثاني عشر من تأليف صلّوست حول حرب يوغرطة . ولا تخفى علينا قيمة تفاصيلها . فهي تنبئنا بوجود قلعة قرب مدينة دقّة ، كما تنبئنا بوجود نظام إقطاعي في عهد ملوك البرابرة . فهذا ضابط نوميدي يملك داراً في قلعة ترمدة ، ويبدو أنّ الدار كانت محصّنة توصد أبوابها بمفاتيح ، وكانت أبوابها عديدة حيث تمكّن يمبسال من الفرار والتجأ إلى كوخ أحد العبيد الذين يعملون بالضيعة أو حقل فسيح ، ويحيط بالدار المحصّنة أكواخ

تجمل المؤرّخ يواصل حديثه في الخصام الذي شبّ بين يوغرطة وأخيه يمبسال . نحن نقدّم لكم هاته الافتراضات حتّى نعرب عن احترازنا تجاه صلّوست وما جاء في كتبه من روايات وأخبار . واحترازنا لايعني التفنيد قطعا بل نتيجة عجزنا عن مراقبة أقواله ، ولا تكون المراقبة إلاّ بتوفّر الوثائق ، أدبية كانت أو أثريةّ نقائشية .

على أنّ يمبسال بادر بالمصادقة على مشروع يوغرطة بل وتحمّس له إذْ فيه شرّ صاحبه : ذلك أنّ ميسبسا أصدر أمره بتبنّي يوغرطة ومنحه حقّ الوِرَاثَةِ قبل موته بثلاث سنوات ، فبمقتضى المشروع يصبح يوغرطة بعيدا عن العرش لاحق لهُ في الوراثة ، وتأزّم الوضع من جديد وحزّ موقف يمبسال في نفس يوغرطة حتّى بات لايفكّر إلاّ في الانتقام من رجل تكبّر وتعنّت. تجاوز يمبسال الحدود ، فما بقي ليوغرطة إلاّ البحث عن أنجع الوسائل للقبض عليه والفتك به .

لم يبق للتفاهم بَابٌ يُفْتَحُ . فلجأ الإخوة إلى تقسيم السلطة والأموال ، وانفرد كلّ واحد منهم بإقليم حسب قرار وقع الاتّفاق عليه . وقسّمت الأموال واتّجه كلّ واحد منهم إلى قلعة تأويه وأمواله . واتّفق أنْ كان الملك يمبسال بمدينة ترمدة «Thirmida» وهي قلعة توجد قرب مدينة دقّة ، وشاءت الصدف أن يكون في القلعة ضابط من أنصار

يوغرطة وأصدقائه ، وسكن يمبسال منزل الضابط . ولم يخف ذلك على يوغرطة فأقبل على صديقه وطلب منه أن يطلعه على خفايا المنزل وأقفاله ، وعلى ضوء ذلك أمرَ يوغرطة بتقليد المفاتيح حتّى يتيسّر له ولوج القلعة ومنزل الضابط عند الحاجة . وكان يمبسال يوصد الأبواب ليلا ويحتفظ بالمفاتيح خوفا من الأخطار .

أمّا يوغرطة ـ وكانت له المفاتيح الضرورية ـ فقد بات يتحيّن الفرص لتنفيذ خطّة تستهدف القضاء على يمبسال . وأقبلت ذات ليلة كوكبة من جنود يوغرطة ودخلوا المنزل وبادروا بالتفتيش عن الملك بعد قتل الحرس . وظلّ جنود يوغرطة يرتعون في الدار ويعيثون فيها فسادا حتّى وقعوا على يمبسال ـ وكان قد التجأ إلى كوخ أحد العبيد ـ فقطعوا رأسه وأتوا به إلى سيّدهم . وردت هاته الأحداث في الكتاب الثاني عشر من تأليف صلّوست حول حرب يوغرطة . ولا تخفى علينا قيمة تفاصيلها . فهي تنبئنا بوجود قلعة قرب مدينة دقّة ، كما تنبئنا بوجود نظام إقطاعي في عهد ملوك البرابرة . فهذا ضابط نوميدي يملك داراً في قلعة ترمدة ، ويبدوأنّ الدار كانت محصّنة توصد أبوابها بمفاتيح ، وكانت أبوابها عديدة حيث تمكّن يمبسال من الفرار والتجأ إلى كوخ أحد العبيد الذين يعملون بالضيعة أو حقل فسيح ، ويحيط بالدار المحصّنة أكواخ

العبيد الذين يعملون بالضيعة ، ويرجّح أن تكون الدار والضيعة من أملاك العرش . لكنّها اقتطعت لضابط مقابل أعمال يقدّمها خدمة للملك ، فالضابط يساعد الملك على بسط نفوذه في تلك المنطقة ويعزّز صفوفه عند الحاجة .

تَرَوْنَ كَيْفَ توقفنا هاته الفقرة من كتاب صلّوست على النظم الإدارية لدى الأفارقة في القرن الثاني قبل المسيح . ولا شك أنّ الدار المحصّنة التي أشرنا إليها منذ حين تذكّرنا بمنازل محصّنة نجدها على ألواح الفسيفساء التي كشف عنها الغطاء في بعض المدن التونسية العتيقة ، ومنها لوحة توجد بمتحفنا القومي بباردو وتعرف اللوحة باسم « دار الأمير يوليوس » .

الباب السادس
سياسة التحرير

* يوغرطة وأدربعل :

شاع مقتل يمبسال بين القبائل الافريقية ، وكان له وقعه العظيم في نفس أدربعل و تسلّط الخوف على قلوب الأفارقة وانقسموا حزبين متفاوتين . فلقد التفّت الأغلبية حول أدربعل ، لكنّ أبطالا آثروا الانضمام لصفوف يوغرطة وأخذ الخلاف بين الأخوين يتفاقم مِمّا جعل يوغرطة يميل إلى وسائل العنف فيحمل على المدن ويتسلّط عليها ، ويبدو أنّه فكّر في التخلّص من أخيه حتّى ينفرد بالعرش ويبسط نفوذه على كامل الأراضي النوميدية . وظهر أنّ يوغرطة مصمّم" على بلوغ هدفه مهما كانت الظروف وقد يعمل بالمبدإ القائل « الغاية تبرّر الوسيلة » . فما كان من أدربعل إلاّ أن يحيط رُومَا علما بتفاصيل الأحداث عن طريق رسل أوفدهم

إلى مجلس الشيوخ وكلّفهم بإبلاغهم نبأ اغتيال يمبسال ، وبالظروف التي حفّت بالجريمة الشنعاء . وأخبرهم بالوضع الذي يسود المملكة الافريقية وبالخطر الذي يهدّد كيانه .

وإلى جانب هاته الحملة السياسية التي قام بها ضدّ يوغرطة كان أدربعل يتهيّأ لمجابهة عدوّه في ساحة الوغى ، وكان الالتحام فعلا بين الجيشين ، لكنّ النصر كان نصيب يوغرطة ولاذ أدربعل بالفرار يجرّ وراءه غبار الهزيمة . ولمّا أصبح من العسير عليه البقاء في حدود المملكة النوميدية لجأ أدربعل إلى المنطقة الرومانية ، وهي تشمل الأراضي التي تسلّطت عليها جيوش شبيون غداة الحرب البونيقية الثالثة وسقوط قرطاج سنة 146 قبل المسيح (73) ، وبدخوله المنطقة الرومانية أفلت أدربعل ونجا من خطر يوغرطة . حيث كان من العسير عليه مطاردته فيها وقد أصبح تحت حماية الجيوش الرومانية ، وهل يتجاسر يوغرطة على مهاجمة الرومان ؟ على أنّ صلّوست لم يخبرنا بالمدّة التي قضّاها أدربعل بالديار الرومانية ، كما لم يقل شيئا حول نشاطه فيها .

(73) انتهت الحرب البونيقية الثالثة سنة 146 قبل الميلاد وكانت نتيجتها تحطيم قرطاج واستولت روما على الاراضي البونيقية باستثناء المدن التي انفصلت عن قرطاج قبل انتهاء الحرب ومنها اوتيك وحضرموت (سوسة) ولبدة الصغرى (لمطة) احتفظت هاته المدن بحريتها على حد قول النصوص القديمة

لكنّ أدربعل غادر افريقية وأقلعت به سفينة نحو رُوما ، غايته الاتّصال شخصيا بأعضاء مجلس الشيوخ حتّى يعرّف الشعب الروماني بالوضع الراهن في المملكة النوميدية .

أمّا يوغرطة فقد بات يسود القبائل الافريقية ، لكنّه شعر بالخطر . وكان على جرأته وقوّة شخصيته يخاف غضب الرومان ، وما ذلك منه إلاّ اعتراف بواقع مُرّ إذ بواقعة زامة وانتصارهم فيها غَدَتْ افريقية منطقة نفوذ للرومان ، ولا بقاء لسياسة أعرض عنها أبناء روما واستنكروها ، بل كان العرش النوميدي ملكاً لهم لايمتطيه أحَدٌ إلاّ برضاهم . فلزم يوغرطة أن يعترف بذلك الواقع ريثما تتبدّل الظروف ، على أنّهُ ما كان ليجهل وزن الذهب في أعين الرومان والأشراف منهم بخاصة . فلا شيء يقيه شرّ غضب الرومان أمتن وأنجع من الذهب .

وهنا بادر يوغرطة بإرسال ثلّة من أصدقائه مثقلين بالهدايا ، وكلّفهم بتقديمها إلى الذين قد يتبنّون سياسته ويدافعون عنه في مجلس الشيوخ بتفتير موجة الاستنكار التي نجمت عن أفعاله التعسّفية . موجة استنكار وغضب تغذّيهما دعاية يقوم بها أدربعل منذ حلوله بروما . وكانت سياسة يوغرطة ناجعة ممّا ينبئ بحذقه ومعرفته الجيّدة لما كانت عليه رُومَا من ضعف خلقيّ وانحلال . فلقد تمكّن

بأموالها أن يغيّر مجرى السياسة الرومانية الأمر الذي كان يثير غضب صلّوست واستنكاره ، حتّى عمد إلى تدوين حرب يوغرطة لأنّها تزيح النقاب عمّا تكنّه نفوس أرباب السياسة في روما من عيوب . فهم في رأي صلّوست لايفكّرون في مصير الوطن وصالح الشعب ، بل لامقياس لهم في السياسة سوى جمع الأموال . فالتقارير السياسية عندهم تباع وتشترى ، وفهم يوغرطة ذلك فهماً كاملاً وَعِياً فكانت خطّته مرسومة حسب مقتضيات الواقع السياسي في روما .

حضر أدربعل مجلس الشيوخ وخاطب أعضاءه فاستمعوا إليه . ثم جاء دورُ وَفْدِ يوغرطة فأخذوا الكلمة وأنصت إليهم أعضاء مجلس الشيوخ ، لكنّ ليوغرطة من وسائل الإقناع ما لم يَهْتَدِ إليه أدربعل ، ورجحت كفّة يوغرطة رغم خطابٍ طويل ألقاه أدربعل حاول فيه الاستعطاف والتأثير منددا بأعمال أخيه التعسّفية وأشار الى خطر الجبروت في افريقية . لاشك أنّه خطاب من وضع صلّوست وهي طريقة مألوفة لدى المؤرّخين القدامى ، فلقد توخّاها تيت ليف في الخطبِ التي نَسَبَهَا لِحَنّبعل ، ونجد هاته الطريقة عند مؤرّخي العرب في القرون الوسطى . فهذا مؤرّخ يقدّم لنا مثلا نصّ الرسالة التي بعث بها المأمون إلى ملك الروم ، ولاشك أنها من وضع المؤرّخ نفسه . فهل يمكن

والحال كذلك أن نعتبر تلك الخطب والرسائل كتابات مزيّفة لاصلة لها بالتاريخ ؟ إنّ في هذا الحكم شططاً ! لأنّهم كانوا يضعون تلك الخطب والرسائل على ضوء ما بلغهم في الرجال المعنيين بالأمر ، وفي الظروف الخاصة بمحتوى خطبهم ورسائلهم . فلا تاريخية لها من حيث اللفظ والمبنى لكنّها قد تتضمّن بعض الحقائق التاريخية في محتواها .

وضع المؤرّخ صلّوست خطاب (74) أدربعل لكنّه خطابٌ يحتوي على حقائق قد يعسر الشكّ فيها . لقد برزت في ذلك الخطاب نظرة روما تجاه المملكة النوميدية وبان تشيّع أدربعل لسياسة روما القاضية بالتسلّط على افريقية ، وباستخدام ملوك أفارقة يتمتّعون بوزن الشرعية في أعين القبائل . ذكر أدربعل في بداية خطابه أنّ أباه قبيل موته أوصاه ألاّ يعتبر نفسه أكثر من وكيل على المملكة النوميدية ، وأكّد له أن عرشها ملك للرومان دون سوا هم . وأضاف أنّه لم يحد عن تلك النصائح الأبوية ، ثم عاد ثانية إلى التنويه بفضل الرومان على الأفارقة ، وقد ساعدوهم على التخلّص من طغيان سيفاكس وتعسّف قرطاج . وذكّر أدربعل أنّ عائلته لم تبخل بإخلاصها لروما ، ولم تتردّد في مدّها يَدَ المساعدة أثناء حروبها ، وختم كلمته بالتوسّل إلى شيوخ

(74) انظر : صلوست ـ حرب يوغرطة الفقرة 14

المدينة طالباً منهم أن يمدّوه بالنجدة ، وأن يقفوا في وجه الظالم الغاصب حتّى لايسقط عرش المملكة النوميدية ـ وهو ملك لهم ـ تحت عبء الجريمة وحتّى لايتلطّخ بدم الأفارقة .

يكتسي هذا الخطاب قيمة عظيمة إذ يوقفنا على الأسباب الحقيقة التّي ستنجم عنها « حرب يوغرطة » . وبالخطاب نلمس تناقضاً جذريًّا بين سياسة مسبسا والسياسة التي سيتوخّاها يوغرطة . لم يحد أدربعل عن السياسة التي خطّها أبوه للتعامل والتعاون مع الرومان ، سياسة كلّها خضوع وتبعيّة فيها كفر بالحرية . سياسة تخضع قطعا للواقع دون تفكير في تحويل الواقع الثقيل ، فهي جبن" واستسلام وقنوط . أمّا يوغرطة فما كان ليجهل ذلك الواقع ، لكنّه آمن بحقّه في تحويله ، ولعلّنا نلمس هنا العوامل الحقيقية التي جعلته يثور على أخويه ولا يتردّد في مقاومتهما بكلّ مالديه من قوّة وحذق . ثار عليهما لأنهّما يُسانِدانِ السياسة الرومانية ويخضعان بسُلْطانها .

فكان يوغرطة يسعى وراء سياسة تحْريرية دون إثارة غضب الرومان وتحدّيهم . وسوف لايكون ذلك إلاّ تحت ضغط الظروف . والكلمة التي فاه بها رئيس وفد يوغرطة كانت موجزة بيّن فيها أنّ الملك يمبسال قد ذهب ضحيّة قساوته وجبروته . طغى فقام عليه النوميديون وقتلوه . أمّا

الحرب التي شبّت بين الملك يوغرطة وأدربعل فقد حاول المتكلّم إلقاء مسؤوليتها على عاتق أدربعل ، ولم يَمْنَعْهُ ذلك من المبادرة بتقديم شكواه . وأضاف المتكلّم باسم الوفد أنّ يوغرطة أوصاه بالإعراب عن إخلاصه لما كان عليه أيّام نومانس . ويطلب من أعضاء مجلس الشيوخ أن يحكموا في شأنه حسب أعماله لاحسب أقوال أعدائه . فهي إذن كلمة وجيزة وقد يعلوها بعض الغموض ، لكنّك عبثا تفتّش عن أثر التَمَلُّقِ والاستسلام فيها . كان يوغرطة يسعى إلى كسب قضيّته دون أيّ التزام فلم يفه رسل يوغرطة بكلمة تشير إلى حقّ الرومان في عرش المملكة النوميدية أو تعترف بِسُلْطَانِهم .

أمّا الذهب (75) الذي أشار إليه صلّوست في حديثه عن رسل يوغرطة قائلا : « إنّهم اشتروا بعض أرباب السياسية في روما » فقد تكون إشارةً لاتاريخية لها . أضافها صلّوست طبقاً لنظرته تجاه الأوضاع السياّسية في روما خلال القرن الأول قبل المسيح . ويظهر أنّ المؤرّخ فكّر في هاته الإشارة إلى خضوع السياسيّين لسلطان الذهب ، واستعمال الذهب من طرف يوغرطة كوسيلة ناجعة للإقناع والتأثير ، فكّر المؤرّخ في ذلك دون اعتبار الواقع التاريخي ، حيث نراه

(75) انظر : صلوست ـ حرب يوغرطة الفقرة 13

يعلن عنها بلسان شبيون عندما اختلى بيوغرطة تحت خيمته الإمبارية . لقد حذّر القائد الروماني الأمير النوميدي الشاب من استعمال الذهب لكسب المعارك السياسية ، وحذّره من الإسراع في سيره نحو العرش ، وناشده المحافظة على صداقة الشعب الروماني ، وأن لايشتري من أقلّية ما هو ملك لشعب روما . فتفاصيل الأحداث كما أوردها صلّوست جاءت كلّها تؤيّد قول شبيون . كذلك أرادها المؤرّخ دون تحرّج أمام الواقع التاريخي .

ومهما يكن من تحرّز سياسة يوغرطة فوجود رسله في روما يجسّم اعترافاً ضمنياً بهيمنة الرومان . فلا مناص ليوغرطة من الاعتراف بواقع دامغ ، لكنّه ما انفك يتأمّل ذلك الواقع قصد تحويله . وليس ليوغرطة في تلك الظروف أن يوضّح سياسته حتّى لايتصلّب أعضاء مجلس الشيوخ حياله ، بل من صالحه أن يكون له فيهم أنصار يساعدونه على تجاوز تلك المحنة ، ولعلّه استعمل الذهب والهدايا كما ذكره صلّوست. كان يوغرطة يعلم أنّ للشعارات والرموز والمبادئ المجرّدة دوراً ثانويا في المجالات السياسية والمعارك الديبلوماسية . لقد تتقاتل الشعوب فعلاً من أجل قيم ومعانٍ مجرّدة ، لكنّ أرباب السياسة تراهم غالبا يدافعون ويجاهدون من أجل ما قد يمكن تسميته بالقيم الملموسة . أمّا القيم والمعاني

المجرّدة فتراهم يستخدمونها كالاسمنت يدعّمون به صفوف المجاهدين تحت رايتهم .

غادر إذن أدربعل مجلس الشيوخ ، وغادره رسل يوغرطة . وبدأت المداولات بين أعضاء المجلس وكانت الأغلبية تساند يوغرطة مبيّنة بإلحاح كلّ الخصال التي يتحلّى بها الملك النوميدي كالثقة التّي يتمتع بها في مختلف الأوساط ، وذكّروا بفصاحته المغرية . فلم يتركوا وسيلة على حدّ قول صلّوست للدفاع عن « جريمته ».ترى المؤرّخ يستعمل لفظة « جريمة » وبذلك يتبيّن لنا أنّه من أعداء يوغرطة ممّا يدعونا لليقظة والتفطّن حتّى لانقع في أخطاء المؤرّخ الناجمة عن مواقفه المعادية ليوغرطة . ولعلّه اتّخذها طبقاً للنظريات التي أراد عرضها في تأليفه . ذكرنا أنّ غايته من كتابه « حرب يوغرطة » التنديد بالفضائح التي ارتكبها الأشراف في روما ، والتدهور الأخلاقي الناتج عن تلك الفضائح والجرائم . كان الأشراف في رواية المؤرّخ يساندون يوغرطة . فلتكون تلك المساندة جريمة يتحتّم أن يكون يوغرطة مجرماً حتّى تكون الجريمة في مساندة الجريمة .

ساندت أغلبيّة أعضاء المجلس يوغرطة مع أنّ ثلّة قليلة علاقتها بمبادئ الشرف والعدالة أمتن من علاقتها بالذهب حسب تعبير صلّوست ، تلك الأقليّة أبت إلاّ أنْ تشهّر

بتمسّك يوغرطة ، وطالبت بإسعاف أدربعل والانتقام من الذين دبّروا اغتيال يمبسال (76) وتعرّض المؤرّخ إلى أحد الذين غالوا في التشهير بأعمال يوغرطة وجرائمه على حدّ قول المؤرّخ نفسه . ويدعى ذلك الرجل ماركوس أميليوس سكوروس «Marcus Aemilius Scaurus» وهو ينتمي إلى عائلة عريقة في الشرف وكان ذا حزم وبراعة في حبك الدسائس ، شغوفا بالسلطان والجاه والعزّة والمجد والمال . وكان من الذين يحسنون تغطية عيوبهم .

ولئن تشيّع لأدربعل وشهّر بأعمال يوغرطة فليس ذلك حسب رواية صلّوست من باب الدفاع عن الحق ، بل كان موقفه من إملاء الظروف ، كانت الأفواه بروما تردّد وتحلّل أعمال يوغرطة وتصرّفاته وعلاقاته مع أعضاء مجلس الشيوخ . فأوجس ماركوس سِكَوْرُوس خيفة من ذلك التيّار ممّا جعله ينضمّ إلى اعداء يوغرطة . تلك أحكام أصدرها المؤرّخ صلّوست في شأن سِكَوْرُوس . والمرجّح أنّها تشتكي الشطط ، خاصة وكان سِكَوْرُوس يتمتّع بسمعة حميدة لدى أحد رجال الأدب والسياسة في القرن الأول قبل المسيح . وهو سيسيرون «Cicéron» وكان من معاصري مؤرّخنا . لقد جاءت أحكام سيسيرون تناقض التي أعرب عنها

(76) انظر : صلوست ـ حرب يوغرطة الفقرة 15

صلّوست . فهذا يندّد به ويشوّه سمعته ، والثاني يمدحه ، تناقض يدفعنا إلى توخّي الحذر .

وبعد مداولات طويلة حول قضيّة الأميرين النوميديين كان الفوز في جانب الذين ضحّوا بالحقّ من أجل المال والجاه . وفي ذلك تفوّق الشرّ على الخير ، نتيجة كان صلّوست يؤمن بحتميتها في تلك الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشتها روما في القرن الثاني قبل المسيح . ونرى كيف كان صلّوست يدرس التاريخ ويعمل على إحياء الماضي حسب نظرية مسبّقة . وفي ذلك خطر . فالنظريّة إن كانت مسبّقة قد تدفع إلى تغيير الحقائق وتشويهها كي تتماشى والنظرية المسبّقة وعندها يصبح المؤرّخ عبد النظرية المسبّقة المبيّته ، عاجزاً عن النفاذ في الواقع التاريخي وإدراكه إدراكا شاملا . ولئن وجبت النظريّة فهي التي تتولّد عن دراسة الأحداث وفهمها فهما عميقاً دون أنْ تلوّنها بألوانها الخاصّة .

وتعرّض المؤرّخ الفرنسي ستيفان قزال «Stéphane Gsell» إلى الأسباب التي جعلت أغلبية أعضاء
يعرضون عن توخّي الصرامة تجاه يو
الحقيقة نطق بها صلّوست حين تحدّ
فلا شك ـ على حدّ قول قزال ـ أنّ للذ

(77) انظر : صلوست ـ حرب يوغرطة الفقر

R.
« Corn.
Musée Gu

الرومانية . لكنّه ـ أي المؤرّخ الفرنسي ـ يضيف أنّ أشياء كثيرة غابت عن صلّوست ، وهي تتعلّق بخفايا السياسة الرومانية وبنظرتها البعيدة . فمن العسير على الجمهورية الرومانية ـ في رأيه ـ أن تنسى الخدمات التّي قدّمها يوغرطة أيامّ المحنة في اسبانيا . أمّا يمبسال وأدربعل فلم يتعرّف عليهما الشعب الروماني ، وليس لهما أصداء كالتي تتولّد عن ذكر يوغرطة . ثم يلاحظ ستيفان اقزال أنّ الشرف لايملي الانتقام لأمير يكاد يكون مجهولا لقي حتفه في ظروف يكتنفها الغموض . كما لايملي الشرف مساندة مهزوم يخوض حرباً بيّنة الصعوبات عديمة المنافع . تلك هي الأسباب الحقيقية التي جعلت الرومان يتوخّون سياسة الاعتدال وإن لم تكن عادلة . غير أنّهم أشعروا الخصمين بضرورة بقاء المملكة النوميدية تحت سلطانهم وأن لاسبيل للتنطّع والخروج عن طاعتهم .

وبدا لمجلس الشيوخ أنّ أنجع سياسة يمكن تطبيقها في الظروف الراهنة هي تقسيم المملكة النوميدية بين الخصمين ، سيما ولم تنضج لديهم فكرة اكتساح الأراضي النوميدية والتسلّط عليها مباشرة لأسباب مختلفة متشعّبة قد يعسر الوقوف عليها نتيجة صمت الوثائق حولها . نشأ حزب السياسة التوسّعية في روما وبسط نظريته من أعلى منبر مجلس الشيوخ منذ القرن الثالث قبل المسيح ، وهي السياسة التي أدّت إلى تحطيم

قرطاج والقضاء على الدولة البونيقية . إنّ فكرة التوسّع قديمة ، ولعلّها كانت تَستَهْدِفُ تغطية الديار الافريقية من قرطاج إلى مياه المحيط . على أنّ الظروف المساعدة لم تتوفّر وقتئذ . كانت روما في عهد يوغرطة لاتريد التسلّط مباشرة على المملكة النوميدية إذ في ذلك مجازفة خطيرة ثقيل عبؤها ، مجازفة لم تكن روما وقتئذ على أهبة لاقتحامها . (78) فعمدت إذن إلى تقسيم المملكة النوميدية بين الخصمين ، وهوحل به يشعر يوغرطة وأخوه أنّ الأمر بيد روما وليس لسواها حَقّ النّظر في السياسة الإفريقية .

وتطبيقا لهذا القرار بَعثت روما وفداً يتركّب من عشرة أعضاء ، وترأس البعثة أحد الذين ينتمون إلى حزب الأشراف وهو أوبيموس «Opimus» وكان قد لعب دوراً عظيماً في القضاء على الحركة الشعبية الثورية ، تلك التي تزعّمها قيّوس غراكوس «Caîus Gracchus» . وعرف أوبيموس بعداوته ليوغرطة ، حيث كان من الذين شهّروا بالخطر الذي يشكّله الأمير النوميدي وندّد بأعماله التعسّفية . على أنّ الوفد كلّف بالسّهر على تقسيم المملكة بين الأخوين .

(78) انظر : R. CAGNAT, conférence au musée Guinet : *«Comment les Romains se rendirent maîtres de toute l'Afrique du Nord»*. *Annales du Musée Guinet*, T. XXXVIII de la bibliothèque le Vulgarisation, (1919). P. 129 - 178.

• تقسيم المملكة النوميدية بين يوغرطة وأدربعل :

ولمّا حلّ الركب الروماني بإفريقية أسرع يوغرطة واستقبلهم بحرارة وحفاوة ، ولعلّه بالغ في ذلك حيث يتّهمه صلّوست برشو أوبيموس رئيس البعثة وإغرائه حتّى كانت القسمة ضيزى ، وكان الفَوْزُ ليوغرطة على حدّ قول صلّوست حيث أحرز على المنطقة الغربية المتاخمة لإقليم موريطانيا . ويتحدّث عنها المؤرّخ الروماني قائلا : إنّها أغنى الربوع النوميدية وأوفرها سكّاناً . وكانت المنطقة الشرقية من نصيب أدربعل وقد نعتها المؤرّخ الروماني بقوله عديمة القيمة وإن اشتهرت بوفرة ثغورها وبناءاتها .

وفيما يتعلّق بتقسيم المملكة النوميدية بين الأميرين فالملاحظ أنّ صلّوست أخطأ الحكم ولعلّه خطأ أراده ، بل فرضته عليه نظريته التي أشرنا إليها والقائلة بتنكّر الأشراف للحق وحبّهم للذهب حتّى كانوا يبيعون ضمائرهم ولايرون حرجاً في تفويق يوغرطة على أخيه بمنحه المنطقة الثرية . أخطأ صلّوست الحكم ، وقد يكون خطأه من باب التزييف وإخضاع الواقع للنظرية المبيّته . وقد يكون خطأ أعرب عنه دون بحث وتثبّت . ومهما يكن من أمر فالنظرية المبيّتة تفرض عليه الإشارة إلى تفوّق يوغرطة حتّى لايقع خلل منطقي .

وإن قلنا بخطإ صلّوست فذلك لأنَّنا نعْلَمُ بِمالَنَا من الوثائق والشهادات أنّ المنطقة الشرقية أغنى وأوفر عمراناً من الربوع الغربية ، وقد ازدهرت الفلاحة بالمنطقة الشرقية منذ القديم وعمل فيها المحراث البونيقي وأخصبها . ولئن منحت روما المنطقة الشرقية من المملكة النوميدية لأدربعل فذلك لأنّها كانت لاتطمئِنّ لمجاورة يوغرطة . ولعلّها شعرت بخطر طموحه وحبّه للسلطان . أمّا أدربعل فهو رجل أعرب عن خضوعه لروما ، وهو المؤمن بأنّ العرش النوميدي ملك الرومان ، ثم إنّه ضعيف الإرادة لاطموح له سوى التمتّع بالعرش والصولجان ، ولايرى حرجاً في تطبيق أوامر تأتيه رأساً من المدينة الرومانية . يبدو من الأرجح أنّ هاته الملابسات هي التي كانت قاعدة التقسيم (79) فليست من باب الصدف ولا من باب تفويق أحد الأخوين على أخيه .

كانت روما إذن تخشى يوغرطة وطموحه ، وماكان يوغرطة ليرضى بتقسيم يبرز فيه خبث السياسة الرومانية ، على أنّه تَظَاهَرَ بالامتثال والرضى ، وهو يفكّر في التخلّص من محتوى حُكْمٍ جبّارٍ . فيه التعسّف ودوس الكرامة . ولمّا أعَدّ العدّة واطمأنّ العدو زحف يوغرطة فجأة على

(79) تقسيم المملكة النوميدية بين ادربعل ويوغرطة . انظر :
STÉPHANE GSELL, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. III. P. 145-146.

مملكة أدربعل بجيش عظيم وانقضّ عليها نهباً وحرقاً ثم قفل راجعاً من حيث أتى ؛ أمنيته أن يلتحق به أدربعل قصد الانتقام فتكون بذلك فرصة سعيدة لقيام حربٍ شرعية بينهما لكنّ أدربعل أيقن بضعفه وتفوّق أخيه عسكريّاً ، فاكتفى بإرسال وفدٍ إلى يوغرطة يشتكي إليه أعمال العنف والجرائم التي ارتكبها جنوده . ومثل الوفد بين يدي يوغرطة فقابلهم بالشتم والازدراء ، وعادوا إلى سيّدهم يجرّون رداء الخزي والعار . وما كان لأدربعل إلاّ تحمّل ذلك العدوان السافر خشية اندلاع حرب ثانية .

أمّا يوغرطة فقد عظمت جرأته حتّى عمَد إلى القيام بزحف يشمل أرض أخيه ويستهدف انتزاعها منه قهراً . وكانت خطّته تتضمّن التوغّل في البلاد ، وتخريب المدن والأرياف بعد نهبها واستباحة أموال سكّانها . أعمال وجد فيها جنود يوغرطة الغنيمة ونشوة الانتصار ممّا زادهم ثقةً وعزماً وحزماً . وتمكّن الرعب بقلوب الأعداء . وبقى أدربعل يتأرجح بين أمرين : إمّا أن يغادر المملكة ، وإمّا أن يحمل السلاح ليدافع عن حوزتها . واختار الحرب فنادى بالتعبئة وانطلق نحو يوغرطة وكان الجيشان قرب مدينة سيرتة «Cirta» لما آذنت الشمس بالغروب فلم يمكن الالتحام . وبعد مضي هزيع من الليل أمر يوغرطة بالحمل على

معسكر أدربعل ـ وجنوده مستسلمون إلى النوم ـ فَبُوغِتوا نائمين وذاقوا شرّ الهزيمة ، ولاذ أدربعل بالفرار إلى عاصمته سيرتة مع ثلة من فرسانه ؛ على أنّه لم يتمكّن من الخلاص والنجاة في رواية صلّوست إلاّ بفضل جالية من الإيطاليين كانوا يقيمون بالمدينة يتعاطون فيها التجارة ، فهم الذين وقفوا في وجه العدو ومنعوه الدخول إلى سيرته . فأمر يوغرطة بضرب الحصار عليها . وبات يعدّ العدّة لخرق جدرانها والتسلّط عليها ، وكان يودّ فتحها قبل عودة الوفد الذي أرسله أدربعل إلى روما لتوضيح الوضع الراهن وتقديم شكوى ضدّ أخيه المتعنّت المستبدّ على حدّ قول مؤرّخنا .

وما إن أحيط مجلس الشيوخ علما بالحرب القائمة بين الأخوين حتّى أوفد رسلا ثلاثة أنيطت بعهدتهم مهمّة الاتّصال بالأميرين وإشعارهما رسميّا بأنّ روما ـ حكومة وشعباً ـ تأمرهما بوضع حدٍّ للحرب والمبادرة بإيقاف كلّ العمليات العسكرية . كما تأمرهما بحلّ مشاكلهما بالطرق الشرعية السلمية . ألقت سفينة الوفد الروماني مراسيها على شواطئ افريقية واتّصلوا فوراً بالملك يوغرطة فلم يجدوا فيه سوى الطاعة والتقدير لهم وللدولة التي يمثّلونها . ولم يتردّد في الإشارة إلى ماضيه والأيام التي عاشها في معسكر شبيون بالديار الإيبارية . كما لمّح إلى روابط الصداقة والعطف التي

تصله بالقائد شبيون وحاشيته . وأضاف أنّه إذا زحف على ديار أخيه فلم يكن ذلك إلاّ بعد نفاد صبره حيث ما انفكّ أدربعل ينسج المكائد قصد اغتياله . فهو وإنْ حاصرت جيوشه سيرتة لكنّه في حالة دفاع شرعي . وأردف قائلا : إنّ الشعب الروماني يكون قد زاغ عن الحقيقة والعدالة إذا حرمني حقّ الدفاع الشرعي . وختم كلمته بالإعراب عن عزمه على إرسال وفدٍ إلى روما قصد توضيح الوضع ودرس المشاكل القائمة بينه وبين أدربعل والنظر في كيفية حلّها .

ويبدو حسب قول بعض المؤرّخين القدامى أنّ يوغرطة لم يسمح لأعضاء البعثة الرومانية بالدخول إلى مدينة سيرتة . وهذه رواية تناقض ما قيل عن طاعة الملك النوميدي وتقديره لروما . فكيف يتجاسر على إثارة العاصفة وموقفه من الحرج بمكان . لاشك أنّه كان يرمي إلى استعطاف مجلس الشيوخ فيكون من الغرابة أن يلوي العصا في يد وفد روماني رسمي .

والثابت على ضوء رواية صلّوست رغم تشيّعه لأدربعل وسخطه على يوغرطة أنّ المملكة النوميدية تظهر في مقام حماية رومانية ، فالمشاكل السياسية والعسكرية لايقع البتُّ فيها إلاّ بتزكية الرومان بل تعرض المشاكل وتحلُّ في مجلس الشيوخ بروما . وكان يوغرطة معترفاً عملياً بذلك الوضع حتى أنّه لايتردّد في إرسال وفد إلى روما مهمّته بسط المشاكل

السياسية النوميدية والنظر في كيفة حلولها . ليس في إمكانه الإعراض عن ذلك ما دامت المنطقة الشرقية تحت سلطان رجل لايؤمن إلاّ بسلطان روما .

غادَرَ الوفد الروماني افريقية وباتت مدينة سيرتة محاصرةً . وفي نهاية الشهر الخامس شعر أدربعل بخطر الفاقة وتأكّد لديه أن لا أمل يرجى من القبائل النوميدية ، فلم يبق له سوى توجيه ندائه ثانية إلى روما علّها تساعده وتُنْقِذُه من المهلكة . وتطوّعَ اثنان من رجاله وخرقا خطوط العدوّ ليلا وأدركا الساحل وأقلعت بهما سفينة تجاه روما وقدّما إلى مجلس الشيوخ رسالةً تضَمَّنَتْ شَكْوَى أدربعل وطلبه المساعدة . على أنّ أعضاء المجلس لم يجمعوا على حلٍّ : فكان بعضهم يرى من الضروري أن تجهزّ روما جيشا وترسله إلى افريقية لتحرير أدربعل وعاصمته من حصار يوغرطة ريثما يقع النظر في شأن المعتدي . وكان من بين أعضاء المجلس الروماني أنصار ليوغرطة يناهضون أقوال الأولين ويدحضونها بكلّ مالديهم من قوّة ودهاء . وساند هذا التيّار بعض الذين يكرهون الحرب . وطال النقاش وتعاقب الخطباء ، ثمّ انتهى الأمر بإرسال بعثة ثانية إلى المملكة النوميدية وتمّ اختيار أعضاء الوفد من بين الشخصيات الرومانية البارزة ، وترأّس البعثة رجل ذو مجد وجاه وقد عرف بحذقه وخبرته في حلّ المشاكل

السياسية وكان يدعى أميليوس سكوْرُوس «Aemilius Scaurus» . سرعان ما حلّت السفينة حاملة أعضاء الوفد الروماني بميناء مدينة أرتيك «Utique» وكانت إذ ذاك عاصمة الولاية الرومانية في الديار الافريقية تلك التّي تسلّط عليها الرومان غداة الحرب البونيقية الثالثة . وأرسلوا إلى الملك يوغرطة يأمرونه بالالتحاق بهم حتّى يكون على علم بمشيئة مجلس الشيوخ . وبعد تردّدٍ طويل أمر يوغرطة بالكرّ على مدينة سيرتة وكان يريد فتحها والقبض على أدربعل قبل اتّصاله بالوفد الروماني . لكنّ جهوده ذهبت سدى وفرضت عليه الظروف أن يأخذ طريق أوتيك صحبة ثلّة من فرسانه .

ولئن لم يتمكّن يوغرطة من فتح المدينة فذلك أنّ أعضاء الجالية الايطالية المقيمة بها تصدّت له ومنعته الدخول منتصراً حسب رواية صلّوست . لقد أشرنا إلى هاته الجالية الإيطالية ، وأفرادها كانوا يتعاطون التجارة ولا شكّ أنّهم كانوا يلعبون دوراً سياسياً خطيراً حيث يراقبون الوضع في المملكة النوميدية ، ويعملون على إيجاد الطرق الدافعة لبسط الهيمنة الرومانية في شتّى الميادين حتّى يكون العرش للأفارقة والسلطان لروما ، وهي طريقة مألوفة لدى الذين يحبّذون الاستعمار المقنّع ويستخدمونه وسيلة للسيطرة وبسط النفوذ وما انفكّت بعض الدول الاستعمارية تنهج هذا المنهج

السياسي وهو الاستعمار المقنّع حيث قد تعمل الدول على تنصيب حكومة أو ملك ، ولا تبخل في الدفاع عن ذلك النظام وتسهر على مصالحه مهما كانت التكاليف ، لكن بشرط أن يتبنّى ذلك الملك أو تلك الحكومة مصالح الدولة التي سلطته ودافعت عنه بأموالها وبنيها . لقد لعبت الجالية الايطالية إذن دوراً عظيما في الدفاع عن مدينة سيرتة ، وتصدّت لجيوش يوغرطة وحالت دونه وفتح المدينة حسب ما أورده صلّوست في الفقرة الواحدة والعشرين من كتابه الآنف الذكر . بل يثبت أنّ الحرب كانت تنتهي بانتصار يوغرطة وتضع أوزارها في يومها لو لم تتصدّ الجالية الايطالية للذين كانوا يطاردون أدربعل .

إنّ لهذا الخبر المتعلّق بالجالية الايطالية ودورها في الدفاع عن مدينة سيرتة قيمة عظيمة ، وبه يجوز افتراض أنّ أهل المدينة كانوا ينظرون للأحداث بعين الفتور ، ولعلّهم كانوا متشيّعين ليوغرطة ولا يرون في الملك أدربعل إلاّ أحد عملاء الرومان . ويجد هذا الافتراض عماده في سكوت المؤرّخ الروماني ، فهو لايذكر شيئاً عن مساهمة أهل المدينة في الدفاع عن ملكهم ومدينتهم . فالمرجّح أنّهم كانوا يؤيّدون سياسة يوغرطة ، الأمر الذي جعل الملك أدربعل يعتمد على الجالية الرومانية. ولئن وقفت هاته الجالية في وجه يوغرطة وجيوشه فلأنّها كانت تؤمن بالخطر الكامن في انتصاره ،

خطر يهدّد - إن عاجلا أو آجلا - مصالح روما في الديار الإفريقية . فإن دافعت الجالية الإيطالية عن شيء فقد كان صنيعها دفاعاً عن مصالحها ومصالح دولتها في المدينة النوميدية . فدفاعها عن الملك أدربعل يندرج ضمن سياسة توختّها روما تجاه افريقية لأنّ أدربعل كان من الذين يكتفون بالجلوس على العرش ويتركون حقيقة الحكم والسلطان بين أيدي أرباب السياسة في روما حتّى يكون الأمر في افريقية حسب المصالح والمطامع الرومانية . ولئن وقفت الجالية الإيطالية في وجه يوغرطة فذلك لأنّه كان يأبى التبعيّة ولا يكتفي بعرش ضعيف الحكم والسلطان . كانت سياسته تأبى التعاون مع الرومان لكنّها تأبى التخلّي عن حقوق افريقية ولا تتردّد في الدفاع عنها مهما كانت الظروف .

حاصر يوغرطة إذن مدينة سيرتة وتصدّت له الجالية الإيطالية لأسباب سياسية واضحة وإن لم يذكرها المؤرّخ الروماني صلّوست ودام الحصار خمسة أشهر . ولمّا شعر أدربعل بخطر الفاقة ولم يبق له بالمدينة مؤونة تقيها شرّ المجاعة أوفد رسولين كما ذكرناه منذ حين إلى روما وحمّلهما رسالة تضمّنت شكواه وطلب الإسعاف .

وجاء في رسالته أنّ يوغرطة يريد القضاء عليه بسفك دمه دون مبالاة بالأوامر التي أصدرها مجلس الشيوخ . وجاء فيها

أنّ يوغرطة يريد القضاء على المصالح الرومانية في افريقية بالقضاء على أدربعل . وأضاف أنّ المملكة التي يريد يوغرطة اكتساحها عنفاً بِقُوى المواضي هي ملك لروما ، وأدربعل هو ملك نصّبته روما على العرش . وختَم الملك رسالته طالبا من الرومان إسعافه عسكريا إذ لاشيْ في رأيه يخيف يوغرطة سوى الأسلحة الرومانية وذكّر ثانية أنّ المملكة النوميدية هي في حقيقة الأمر مملكة رومانية ، فللرومان أن يفعلوا بها ما يشاؤون . ذلك هو محتوى الرسالة باختصار .

لقد نسبها صلّوست إلى أدربعل ويعسر علينا إثبات تاريخيتها كما يعسر علينا تفنيدها . فهل اطّلع المؤرّخ الروماني على الوثائق الديبلوماسية المتعلّقة بهذا الأمر ؟ لاسبيل لمراقبة ذلك ! ومهما يكن من أمر فالرسالة تكتسي قيمة عظيمة بالنسبة لمن أراد فهم هاته الأحداث وتعليلها . فهي توقفنا على الرأي العام الروماني تجاه افريقية في القرن الأول قبل المسيح ، ولاشك أنّ السّلط الرومانية هي التي كانت تُغَذّي ذلك الرأي العام بأخبار تروّجها بطرق شتّى ، وليس لأحَدٍ أنْ يجهل دَوْرَ المؤرّخين والأدباء في ترويج الأخبار وتلوين الأحداث . وقد توقفنا الرسالة على موقف أدربعل تجاه روما ، وهي وإن كانت من وضع المؤرّخ قد تتضمّن الخطوط الرئيسية لسياسة الملك النوميدي .

وتثبت الرسالة على كلّ وجودَ حزبٍ روماني ضمن مجلس الشيوخ ينادي بحقوق روما على المملكة النوميدية وتعود تلك الحقوق إلى شبيون الإفريقي ، ذلك القائد العظيم الذي نصّب مسّنيسا على العرش وسلّطه على القبائل النوميدية . وكان ذلك الحزب يطالب بالتدخّل المباشر في شؤون افريقية . وكان حزب ثانٍ ضمن مجلس الشيوخ يكره التدخّل المباشر ، وكان لهذا الحزب وزنه ممّا جعله يحول دون إسعاف الملك أدربعل بصفة فعّالة . ولاشك أنّ ليوغرطة أنصاراً يساعدونه ويدافعون عنه . فكان في مجلس شيوخ روما إذ ذاك تيّارات مختلفة : حزب يناشد التدخّل في افريقية ولو بواسطة عملاء أفارقة يساعدون على حراسة مصالح الرومان ، وتكوّن المرتبة الأولى في هذا الحزب للتجّار وأرباب المصانع . وهناك حزب يكره المجازفات السياسية والعسكرية بخاصة ويأبى التسرّع . وهناك عناصر أخرى لايرون شيئاً سوى مصالحهم الشخصية ، ومنهم من كان لايتردّد في الارتشاء .

ونتبيّن (على ضوء رسالة أدربعل) أنّ الخصام الذي شبّ بين يوغرطة وأخويه يشكّل تَصَادُمَ وتصارعَ سياستين متناقضتين : سياسة التبعية والتخلّي عن الحكم في صالح الرومان ، وسياسة تنشد السيادة الافريقية واحترام كيان الدولة النوميدية دون أن تشيح بوجهها عن التعاون الحرّ المفيد . لم يكن يوغرطة

يضمر عداوة مبدئية تجاه الرومان ، على كلّ فليس لدينا وثيقة تثبتها . كما لاتَنِمّ مواقفه السياسية عن ذلك . ولئن كان على وعي كامل بضرورة التعاون المثمر مع الرومان ، ولئن كان على وعي كامل بقوة سلطانهم في تلك الفترة من الزمن فكان مع ذلك يكره سياسة الرأس المطأطإ ، ويأبى أن تداس كرامته ، بل ولا يتردّد في الوقوف موقف الصلابة تجاه من قد تحدّثه نفسه بالتسلّط في افريقية باسم القوة والجبروت ، ومهما يكن من أمر فلقد أدخلت الأوضاع السائدة بإفريقية إذ ذاك قلقا على أرباب السياسة الرومانية .

تعرّضنا منذ حين إلى تطاحن السياسيين الرومان في شأن يوغرطة وأدربعل . طلب غلاة التدخّل في شؤون إفريقية بإسعاف أدربعل ، طلبوا من المجلس أن يسلّط على يوغرطة عقاباً لعدم امتثاله وتطاوله . غير أنّ أنصاره عرقلوا جهود الغلاة وحالوا دون إدانة يوغرطة وتمّ الاتّفاق على إيفاد رسل إلى مدينة أوتيك .

وما إن وطئت أقدامهم أرض المدينة حتّى أرسلوا إلى يوغرطة يطالبونه بالقدوم ، فلم يفعل إلاّ بعد هجوم عنيف شنّه على المدينة بدون جدوى . ثم التحق يوغرطة بالوفد الروماني ، لكنّه لم يمتثل لأوامرهم وأبدى عناداً في سياسته تجاه أدربعل . ولمّا سمع الإيطاليون المقيمون بمدينة

سيرتـه أنّ مساعـي الوفـد فشلت طلبـوا من أدربعل أن يسلّم نفسه ليوغرطة ويفتـح لـه أبواب المدينـة على أن يؤمّنه . وكانت الجالية الإيطالية تعتقد أنّ يوغرطـة لن يتجاسر على إلحاق شرّ بها خشية غضب الرومان . لكنّ النتيجـة كانت عكس ما توقّعوه . سلّم أدربعل نفسه فأمر يوغرطـة بقتله ثم دخلت جنوده المدينـة في صائفـة سنة 112 قبل المسيـح وقتّلوا كـلّ الذين كانوا يحملـون السلاح ، ولم تنـج الجالية الايطالية مـن تلك المجزرة . كذلك قدّم لنا صلّوست هاته الأحداث إلاّ أنّه لم يوضّح الظروف والملابسات التي حفّت بها .

الباب السّابع
نشوب الحرب بين روما ويوغرطه

* نتيجـــة مقتل أدربعلٍ :

ما إن بلغ روما نبأ دخول يوغرطة إلى مدينة سيرتة وتقتيل الجالية الإيطالية القاطنة بها (80) حتّى انعقد مجلس الشيوخ وتناول درس الحالة الراهنة إذ ذاك بالمملكة النوميدية بما تتضمّنه من اغتيال أدربعل والكارثة العظمى التي انتابت الجالية الإيطالية بالخصوص .

ويبدو حسب قول صلّوست أنّ ثلّة من أعضاء المجلس عملوا على تمطيط المداولات حول الوضع بإفريقية والمملكة النوميدية ، غايتهم تفتير موجة الغضب التي اندلعت إثر أعمال يوغرطة التعسّفية . لكنّ هؤلاء الذين ارتشوا ـ كما يدّعيه المؤرّخ الروماني ـ لم يتمكّنوا هاته المرّة من عرقلة

(80) انظر صلوست « حرب يوغرطة » الفقرة 26 .

أشغال المجلس ، وكان سخط الشعب الروماني إزاء يوغرطة وتعسّفه وتحدّيه لروما و دوسه لكرامتها وهيبتها بلغ أقصاه حتّى أصبح المجلس مجبوراً على مجابهة الوضع بتدّخل عسكري مباشر في شؤون المملكة النوميدية. من ذلك أنّه أصدر قانونا يتعلّق بتعيين قنصلين ، والتعبئة العسكرية ، والاعتمادات الضرورية لاقتناء الأسلحة ودفع مرتّبات الجنود .

ولمّا أحيط يوغرطة علماً بهاته الأحداث أوفد ابنه (81) صحبة رسولين إلى مجلس شيوخ روما ، وأناط بعهدتهم مهمّة تخميد النار ودفع خطر العاصفة بعيداً عنه ، وادّعى صلّوست أنّ يوغرطة زوّدهم ذهباً قد يساعدهم على اكتساح القلوب واشتراء الضمائر ممّا قد يعمل على تحويل الوضع الراهن . اقترب وفد يوغرطة من الديار الرومانية فإذا بالقنصل بَسْتِيَا «Bestia» ـ وقد كلّف بقيادة الجيش بافريقية ـ يطلب من شيوخ روما : هل يسمح لرسل يوغرطة بالدخول إلى المدينة فأجابوه : أن لن يدخلوها إلاّ إذا أتوا لتسليم المملكة النوميدية ووعد يوغرطة بتسليم نفسه لهم والمثول بين أيديهم . فقفل الوفد راجعاً من

(81) يبدو ان يوغرطة تزوج مرتين على الاقل ـ نعني زواجا شرعيا ـ وكان له ابناء تجدر الاشارة إلى ابنه الذي ارسله الى روما غداة مقتل أدربعل . انظر :
STÉPHANE GSELL. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. T. VII P. 154.

حيث أتى ، وأعلنت روما الحرب على يوغرطة وإن لم يقع الإجماع على ذلك في الأوساط السياسية الرومانية .

ومن الرومان من كان يكره الحرب لا لأنّه باع ضميره بسبائك الذهب بل وعيا منه بما قد ينجرُّ عن تلك الحرب من خسائر في الرجال والعتاد ، سيما وقد كانت الجيوش الرومانية إذ ذاك تخوض حروباً عديدة عنيفة ضدّ الشعوب الأوربية ومنيت بالهزيمة مراراً في بلاد الغال . أليس من الأخطاء السياسية والعسكرية أن ترسل روما جيوشها إلى افريقية ، إلى أرض بعيدة آهلة بقبائل عرفت بشجاعتها وحذقها لحرب العصابات ، ترى جنودهم يتحرّكون بسرعة ، يجوبون الأرض ويراقبون العدّو من بعيد وينصبون له الكمين بعد الكمين وينقضّون عليه من حيث لايدري . وقد يتحرّك العدوّ ويجوب الأرض سعيا وراء الالتحام مع الجنود الأفارقة ، لكنّهم يختفون ولا يظهرون إلاّ في ظروف تساعدهم . وإذا لم يفاجئ الأفارقة عدوّهم تراهم يسعون في القضاء عليه عطشا وجوعاً . وإن مرّ العدوّ بأرض وجدها قفراً لا شئ فيها وقد خلت من ثمارها وحبوبها وحيواناتها ونباتاتها . أمّا عيون الماء والآبار فقد تطمس أو تُسَمّ مياهها . تلك هي الاعتبارات التي كان يعتمدها هذا الحزب المعارض للحرب في افريقية .

◦ يوغرطة والقائد بَسْتِيَا

غير أنّ المحرّك أخذ يدور وجنّدت روما جيشا عظيما تجمّع في جزيرة صقلّية ، ومنها أقلعت السفن نحو الولاية الرومانية بافريقية ، وكلّف بستيا (Bestia) بقيادة الجيش وقد اصطفى مساعديه من بين الذين عرفوا بالشجاعة والحذق . حلّ الجيش الروماني بإفريقية وانطلق يكتسح المدن والقرى النوميدية فنهب وخرّب وأسّر . لكن سرعان ما حمل الملك يوغرطة بأمواله وذهبه على حدّ قول صلّوست وكان بِستيا شغوفا بالذهب فتأثّر وحنّ وخمدت نار الحرب بعد رشو القنصل وكبار مساعديه . واتّصل يوغرطة بالقيادة الرومانية مباشرة وأوضح موقفه محاولا إبراز براءته وأظهر استعدادا للطاعة والامتثال . وانتهت المفاوضات بمقابلة سرّية دارت بين الملك النوميدي والقائد الروماني . وفي اليوم التالي أعلنت القيادة خضوع يوغرطة حيث قبل شروط الرومان وسلّم كُلّ ما طلب منه كالفيلة والخيل كما سلّم ضريبة مالية .

وتمّ الاتّفاق ، ومضمونه : أن تضع الحرب أوزارها ويحتفظ يوغرطة بمملكته سوى مدينة لبدة الكبرى ، وقد اختارت الانفصال عنه منذ بداية الحرب وأوفدت رُسلاً إلى القيادة الرومانية ثم إلى روما نفسها حيث أعربوا عن استعداد المدينة الفنيقية للتعاون مع الرومان تحت كنف الصداقة .

انتهت الحرب إذن وعاد القنصل بستيا إلى روما . ومكث الجيش الروماني مرابطا بإفريقية ريثما تصادق السلطات الرومانية على الوثيقة التي أبرمت بين بستيا والملك يوغرطة . وطال الزمن عليه حتى عملت فيه البطالة وأصبح الضبّاط لايفكّرون إلاّ في جمع الأموال . هذا يرتشي وهذا يبيع الأسرى وآخر يؤثر نهب السكان .

ويدّعي صلّوست ـ إلى جانب كلّ ذلك ـ أنّ المعاهدة التي أبرمت بين القيادة الرومانية ويوغرطة لم تخل من الغموض ممّا جعل أعداء القائد بستيا يستغلّون الوضع ويشيرون إلى ذلك الغموض قصد تحريش الجماهير الرومانية وإثارة غضبها تجاه سياسة القيادة الرومانية بإفريقية . وخشية التوتّر والانفجار دفعت المجلس إلى رفض تلك المعاهدة وإقصاء بستيا وتعيين قنصل آخر يكلّف بقيادة الجيش في الديار النوميدية . وممّا أسفرت عنه المداولات إرسال أحد أعضاء المجلس إلى يوغرطة يطالبه بالحضور بين أيدي شيوخ روما حتّى يقع استنطاقه وإجلاء الغموض المحيط بالمعاهدة .

فلا مناص ليوغرطة من قبول دعوة الرومان وقد أعلن عن خضوعه لروما . كيف يمتنع ، وقد تنجم عن امتناعه القطيعة . وتكلّفت السلطات الرومانية رسميًّا بحراسته وسلامته . وفضلا عن كلّ ذلك فقد تعهّد الرسول الذي أوفدته روما

إليه بلسانه والسهر شخصيا على سلامته . توجّه إذن يوغرطة إلى روما واتّخذ على حدّ قول صلّوست موقف الاستعطاف لاموقف الملك المتحرّر . وانتظم اجتماع شعبي حضره يوغرطة ، وكان الجميع يترقّبون تصريحات الملك حول سياسته ، وطلب منه أن يذكر أسماء الذين ارتشوا ، فإذا بأحد الحاضرين - وكان من أصدقاء يوغرطة - يقوم خطيباً في الناس ويمنع الملك من الإدلاء بأيّ تصريح . فكانت مناورة تهدف إلى نسف الاجتماع وقد تفرّق الناس فعلا دون الوصول إلى حلّ . ومكث يوغرطة أيّاماً بروما يعمل على كسب أنصار لقضيّته ، واتّفق أن كان بالمدينة وقتئذ أمير نوميدي يدعى مسّيوا (Massiva) وهو ابن عمّ الملك نفسه فرّ من افريقية غداة سقوط سيرتة تحت سلطان يوغرطة. وكان مسّيوا يناشد الرومان أن يبوّئوه عرش المملكة النوميدية بعد انتزاعها من يد ملك مغتصب تحدّى السلطات الرومانية بإعراضه عن حلولها ، بل وتجاسر على دوس كرامتها . وقد تلوّثت سيوفه بدم الجالية الإيطالية . بات مسّيوا - على حدّ قول صلّوست - يدبّر المكيدة ليوغرطة حتّى شعر هذا بالخطر وأمر أحد رفاقه بروما أن يعمل على إيجاد أعوان يرتشون ويساعدونه على القضاء على ذلك الأمير النوميدي الخطير . وتمكّن رفيق الملك - بمساعدة عملاء - من مراقبة

الأمير في ذهابه وإيّابه خلال المدينة حتّى أتيحت لهم فرصة القبض عليه واغتياله (82) على أنّ أحد الذين شاركوا في تنفيذ المكيدة وقع في أيدي السلطات الرومانية في ظروف لم يذكرها المؤرّخ صلّوست ، و لمّا استنطقوه اعترف واصفاً تخطيط المؤامرة وذكر أسماء الذين كلّفوا باقتراف الجريمة .

وشاع في المدينة خبر الجريمة واندلعت موجة غضب عارمة ضدّ يوغرطة ذلك الذي تحدّى الرومان في عقردارهم . لقد تحدّاهم ولاخوف عليه إذ هو يتمتّع بالضمانات الرسمية التي تعهدت له بها السلطات الرومانية . على أنّ المجلس أمره بمبارحة المدينة حالاً ، ففعل . ونسب إليه بعض المؤرّخين كلمة قالها عند خروجه من روما : « مدينة للبيع ومصيرها الانهيار إمّا وجدت شارياً يبتاعها » .

لاشكّ أنّ مقتل مسّيوا يعدُّ هفوةً لاتغتفر إذ بذلك تحدّى يوغرطة روما وداس كرامتها وشوّه هيبتها . كيف يرضى الرومان أن يأتي مدينتهم من يعيث فيها فساداً ويرتكب الجرائم مزدريا أهل البلاد ؟ إنّه لمن العار أن تقبل روما هاته التصرّفات ولايتجاسر أحد على الدفاع عن أصحابها مهما كان شغفهم بالمال . أضحت الحرب إذن حتمية . وبادر القنصل ألبنوس «Albinus» سنة 110 قبل المسيح بإعداد

(82) فيما يتعلق بمقتل مسيوا (Massiva) انظر : صلوست الفقرة 35 .

العدة نجمع مؤونة وحملها إلى افريقية ثم التحق بالجيش
واندلعت الحرب ثانية لكن ببطء مميل حتّى اتّهم ألبنُوس
بتواطئه مع يوغرطة . والثابت أنّ الملك النوميدي كان يناوش
الجيوش الرومانية أحياناً ويفرُّ من أمامها أحياناً أخرى ممّا
كان يدخل عليهم القلق واليأس . وأقبل فصل الشتاء دون أن
تسفر الحرب عن نتيجة ملموسة وعادت الجيوش إلى معسكراتها .
أمّا القائد ألبنُوس فكان عليه أن يلتحق بروما قصد السهر
على مصالحه السياسية وترك عصا القيادة لأخيه أولوس «Aulus»
كان ذلك في شتاء سنة 110 قبل ميلاد عيسى .

توقّفت العمليات الحربية إذن ورابط الجيش بالمعسكر ،
لكنّ القائد أولوس كان طموحاً فعوض المكوث بالمعسكر
والسهر على شؤون الجيش فضّل الخروج ليهاجم يوغرطة ـ وأمله
القضاء عليه ـ وكان ذلك في شهر جانفي من سنة 109 قبل
المسيح ، شهر تكثر فيه الأمطار ويشتدّ فيه البرد . أخذ
الجيش الروماني يتقدّم بسرعة مرهقة رغم قساوة الشتاء حتّى
أدرك مدينة سُتُول «Suthul» حيث كانت أموال الملك
وكنوزه . كانت هذه المدينة حسب ما أورده المؤرّخ صلّوست ـ
بأقصى جبل وعر المنحدر ، وكانت سهول تحيط بالجبل
طغت عليها الأمطار فأصبحت وَحْلاً تعوق سير الجنود ، على
أنّ أولوس لم يعر تلك العراقيل قيمة وأمر أن تتابع الجيوش

سيرها نحو المدينة المحصّنة ، ولعلّه كان يريد بذلك إرهاب
الملك ، ولعلّ رغبته في فتح المدينة والتسلّط على كنوزها ممّا
جعل على قلبه غشاوة ، فبات لايفقه بالخطر ولا يقدّر
العقبات .

وتبيّن يوغرطة غرور القائد أولوس (83) وعجزه ،
فظلّ يعمل على تغذية الغرور فيه حتّى يَطْمَئِنّ لسياسته
الهجومية ويؤمن بتفَوّقِه على عدّوه ممّا قد يجعله يتوغّل
ويتحدّى العقبات وقد لايراها . من ذلك أنّ يوغرطة كان يرسل
إليه الوفد تلو الوفد متظاهراً بالتملّق والاستعطاف كما كان يتظاهر
بعدم استعداده لمجابهة الجيوش الرومانية بل يبتعد عنها متجّها
نحو الأجمات العسير دخولها . كذلك تمكّن يوغرطة من حمل
القائد أولوس على مغادرة ضواحي مدينة سوتول ، وسار خلفه
إلى مناطق بعيدة كأنّه يطارده ، وكان دعاة يوغرطة يغتنمون
كلّ فرصة للتسرّب في صفوف الرومان كي يطّلعوا على أسرارهم
كما كانوا يحاولون اشتراء من قد يريد إعانة الملك ، وقد ارتشى
فعلا ثلّة من الضبّاط ، وتمّ الاتّفاق على أن يلتحقوا بصفوف
يوغرطة أو يتركوا مراكزهم عند الإشارة .

وفي ليلة ظلامها حالك فاجأ يوغرطة الجيش الروماني
وطوّقه فاضطرب جنود أولوس ، فهرول بعضهم إلى

(83) انظر صلوست « حرب يوغرطة » الفقرة 37 .

فرأى ألبنوس من الصالح أن لايغامر وحظّه في الانتصار ضئيل ولم يكن الملك النوميدي ميّالا إلى الحرب في ذلك الوقت رغم تفوّقه لأنّه يؤثر الحلول السياسية فبات يترقّبها بكلّ أمل . على أنّ الرومان كانوا لايفكّرون إلاّ في الحرب والانتقام من يوغرطة وممن ساعده ، فحكموا على العناصر لذين اتّهموا بالتعاون والتواطؤ مع الملك النوميدي . أمّا الجيش الروماني المعسكر بإفريقية فقد أسندت قيادته إلى إحدى الشخصيات السياسية البارزة في ذلك العهد ، وكان يدعى ميتلوس «Métellus»

الباب الثامن

يوغرطة وميتلوس

كُلّف القنصل متلّوس (84) بشنّ حربٍ منظمة هدفها القضاء على الملك النوميدي العنيد . كان ذلك في سنة 109 قبل المسيح . وما إن سلّموه سيف القيادة حتّى بادر بالتجنيد وجمع المؤونة والأموال الضرورية للقيام بواجبات الحرب . ثُمّ أخذ طريق افريقية وحلّ بها في منتصف الربيع من سنة 109 حيث تسلّم القيادة فعلا وكان الجيش في حالة يرثى لها وقد فقد النظام واعتاد الفوْضَى بل وأصبح لايكترث بأوامر الضبّاط . وتلك الحالة هي نتيجة حياة البطالة والترف التي عاشها الجنود زمنا طويلا حتّى انحلّت أخلاقهم وكفروا بمبادئ الجيش الروماني وباتوا لا يَتوقون لشيْ سوى النهب وجمع الأموال مهما كانت الطرق ومهما كانت النتائج . كان الجنود يخرجون

(84) متلّوس : ينتمي الى عائلة من اشراف الرومان . وكان من السياسين المحافظين

وينقضّون على المزارع الآمنة ينتهبونها ويبيعون حيواناتها وعبيدها إلى أناس يأتونهم بالخمور وغيرها من الملذّات .

فأول عمل قام به القنصل متلّوس نظراً لذلك الوضع هو استرجاع النظام في صفوف الجيش. وأصدر أوامر تتعلّق بحياة المعسكر . منها منع بيع الخبز والخمر وغيرهما من المأكل والمشرب . ومنها منع الجندي البسيط من اقتناء العبيد وحاملات الأثقال . كما أنّ هناك أوامر صدرت لتضع حدّاً للتهتّك وتعاطي الموبقات . تمكّن متلّوس إذن من السيطرة على الوضع ومسك عنان الجيش بيد من حديد . من ذلك أنّه كان يأمره بالخروج يومياً ونقل المعسكر من مكان إلى آخر وتحصينه بحفر الخنادق مثلا . وكانت القيادة الرومانية تراقب الأعمال وتسهر على إنجازها كما لو كانت نار الحرب مؤجّجة ، وهكذا إلى أنْ تروّض وتمرّن الجنود على الحرب وصاروا على أهبة ليحملوا على العدوّ عند الإشارة . ولمّا أيقن متلّوس باستعداد جيشه وقدرته على القتال والصمود ، أمر بالانطلاق وخرج الجيش من الولاية الرومانية وتوغّل في المملكة النوميدية . على أنّ يوغرطة أعرض عن كلّ عمل عدائي ، بل أوفد إلى القيادة الرومانية رُسلا للتفاوض معها وكلّفهم أن يبلّغوها استعداده لتسليم نفسه على أن تؤمّنه وتضمن له ولأبنائه الحياة . وعندها يترك الأمر لروما ولشعبها .

ولها وله سديد الرأي .

واتّصل متلّوس بأعضاء الوفد واستنطقهم الواحد تلو الآخر وحاول رشوتهم على أن يسلّموه يوغرطة حيّاً أو ميّتاً . ولكن كيف يتجاسر القنصل الروماني على الاتّصال برسل يوغرطة فرداً فرداً ، وكيف يتجاسر على محاولة إغرائهم بالذهب واشترائهم ؟ وإجابة عن هذا السؤال يدّعي صلّوست أنّ الأفارقة جبلوا على الخيانة وتقلّب الرأي والإرادة ، وهذه من الأحكام التي نجدها عند غالب المؤرّخين الرومان الذين تحدّثوا عن الأفارقة . فإذا تعرّض تيت ليف «Tite-Live» إلى القبائل الإفريقية وصفها بالخيانة والمكر . ولا شك أنّها أحكام لاقيمة لها . بل وإن دلّت على شيء فهي تدلّ على العداوة التي كان يضمرها الرومان تجاه الأفارقة . ولذلك أسباب كثيرة : منها إعراضهم عن دنيا الرومان ، والمعلوم أنّ الأفارقة بقوا متشبّثين بالحضارة البونيقية أيام الهيمنة الرومانية . ومنها عدم خضوع القبائل لسلطان روما . فلم تعرف سماء افريقية السلم في عهد الرومان ، بل ما انفكّت القبائل تتحيّن الفرص لشقّ عصا الطاعة والوقوف في وجه العدوّ الغاصب . ذاق الرومان الأمرّين في افريقية منذ عهد قرطاج، فأضمروا لأهل افريقية عداوة جعلتهم ينعتونهم بنعوت تنال من كرامتهم . وفي تلك العداوة دعاية تعلّل ما قد يسلّطه الرومان على

الأفارقة ويقترفونه من جرائم إزاءهم . أليس ذلك من دواعي الشك فيما قاله صلّوست حول ارتشاء رسل يوغرطة ؟

• زحف متلّوس على المملكة النوميدية :

كان متلوس يكتسح الأراضي النوميدية دون أن تعترضه عقبة'' في طريقه . لقد استولى على المنطقة المسمّاة وقتذاك بالسهول الكبرى . وهي الكائنة بالمجرى الأوسط من نهر مجردة . كانت جيوش الرومان تسير آمنة عبر المملكة النوميدية ، وكأنّها في بلاد صديق حتّى كان الفلاّحون بمزارعهم يعملون ، والحيوانات ترتع في المروج ، والمدن مفتوحة أبوابها ، ولا شيء فيها ينمّ عن الحرب القائمة بين يوغرطة ومتلّوس . بل كانت المدن والقرى توفد الرسل يستقبلون جيش الرومان بإذن من الملك نفسه حسب رواية صلّوست . وكانت الوفود النوميدية حسب نفس الزواية تعرض على القيادة الرومانية القموح لتزويدها ، كما كانت تعبّر عن استعدادأهل البلاد لمؤازرة الرومان في نقل الأثقال وتنفيذ كلّ ما تراه القيادة الرومانية صالحا ، وما يعسر على القيادة الرومانية لهو على أهل البلاد يسير .

تسلّطت الجيوش الرومانية إذن على مُدن عديدة وأرياف شاسعة كالتي كانت تقع بالمنطقة الوسطى من وادي مجردة .

ومن أشهر مدنها باجة (85) فقد دخلتها جيوش متلّوس دون أن تتصدّى لها قوّات الملك يوغرطة . كانت مدينة باجة وقتئذٍ مركزاً من أهمّ مراكز القسوح ، بل كانت سوقاً عظيمةً يأتيها الناس من كلّ صوبٍ لبيع القموح وابتياعها . كما كانت مدينة باجة تأوي جالية رومانية من كبار التجّار ، ولا شك أنّ متلّوس كان مستبشرا بوجود تلك الجالية ، إذ سوف تساعده على القيام بمهمّته وستمدّه بالميرة وبكلّ ما قد يحتاجه الجنديّ في بلاد أجنبية زمن الحرب . تسلّط القائد متلّوس على باجة واتّخذها قاعدةً ينطلق منها جيشه عند تحرّكاته . واختزن فيها المؤونة والذخيرة الحربية ووضعها تحت حراسة حامية من جنوده .

وفي أثناء إقامته بباجة أرسل إليه يوغرطة وفداً أوصاه أن يعبّر عن استعداده للاستسلام والخضوع المطلق شريطة أن يؤمّنه ويؤمّن أبناءه . بيد أنّ القنصل الروماني أخذ يعمل على حمل أعضاء الوفد النوميدي على مخادعة ملكهم حتّى يسقط في قبضته . ويدّعي صلّوست أنّ القيادة الرومانية تحصّلت فعلا على وعود في هذا الشأن . ورجع الوفد النوميدي صفر الأيدي لأنّ متلّوس كان يريد مماطلة الملك بأجوبة سلبية لاتفيد الرفض ولا تفيد الموافقة فيما يتعلّق بالتفاوض . حتّى

(85) لدينا وثائق ادبية واثرية عن تاريخ هذه المدينة العتيقة .

وقف يوغرطة على حقيقة الأمر ، حيث كان متلّوس كما أشرنا منذ حين ـ يماطله ويغالطه سيما وقد كانت أعماله تناقض أقواله .

كان متلّوس يشير إلى السلم في تصريحاته ، وفي الوقت نفسه كان يطلق لجيشه العنان حتّى يكتسح المدن والأرياف النوميدية ويتسلّط عليها بمؤازرة الجالية الإيطالية . وتفطّن يوغرطة أيضاً لما كان يقوم به متلّوس من مساع قصد إغراء بعض أمراء النوميديين علّهم يسلّمون ملكهم . فمن كلّ ذلك جزم يوغرطة أن لامناص من الحرب ، ولم يبق له إلاّ أن يتوخّى الحذر ، وأن يجابه العدوان بالعدوان حتّى لايذهب ضحيّة جيش كفر بالحلول السلمية ولا يفكّر في شيء سوى القبض على ملك النوميديين .

أخذ يوغرطة يتهيأ لمجابهة متلّوس وجيوشه ، فأرسل نفراً من جنوده يتعرّفون على مواقع العدوّ وتحرّكاته . وجنّد من القبائل النوميدية فيالق وسار بجيشه حتّى أصبح على مقربة من العدوّ فغدا يترقّبه بعيدا عنه تواريه الهضاب والمرتفعات بأشجارها الكثيفة المختلفة . وفي سفح هاته المرتفعات يجري نهر المثول (Muthul) حسب التسمية القديمة ويرجّح أنّ نهر المثول هو المعروف عندنا اليوم بواد ملاّق .

٥ معركة نهر المثول :

انتصب يوغرطة إذن بجيوشه على تلك المرتفعات وأضحى يراقب متلّوس وهو يتقدّم بجيش منظّم مستعدّ للالتحام . وما أن شعر متلّوس بوجود القوات النوميدية حتّى أمر بالوقوف وأعاد تنظيم الصفوف الرومانية ، ثمّ أشار بالسير نحو نهر المثول ، وكان قد أرسل أحد مساعديه الذي يدعى روتيليوس «Rutilius» أرسله صحبة بعض الوحدات الخفيفة وكوكبة من الفرسان ، وكلّفه بإقامة المعسكر على ضفّة النهر بمكان حصين لايخلو من الماء الصالح للشراب .

أمّا يوغرطة فقد بقي بمكانه مختفيا تواريه الأشجار حتّى تقدّم الجيش الروماني وتجاوز جناحه الأيمن المرتفعات الموارية للجيوش النوميدية . وعند ذلك أمر يوغرطة ألفين من المشاة أن ينتصبوا على الجبل الذي كانت ترابط به الجيوش الرومانية حتّى لايتمكّن متلّوس من العودة إليه والتحصّن به . ولمّا انتصب المشاة على الجبل أشار الملك بالحملة على العدوّ . فانقضّ النوميديون على صفوف الرومان فجأة فكانت البلبلة واختلّ النظام . على أنّ جنود يوغرطة كانوا يأبون الالتحام على قول المؤرّخ صلّوست . بل كانوا يقتربون من العدوّ حتّى يخافهم ويتأهّب لقتالهم ومطاردتهم . فعند ذلك يبتعدون عنه

بسرعة تحمل بعض الوحدات الرومانية تتبعهم منفصلة عن صفوفها فتقع في الفخ ، إذ يحيط بها فرسان يوغرطة من كل صوب فيقتلون ويأسرون .

وكانت رحى الحرب تدور والملك يوغرطة يمرّ من صفّ إلى صفّ ومن وحدة إلى أخرى يناشد الجنود القوّة والصمود . ويذكرهم أيامهم وعزّتهم ويشير إلى الانتصارات التي أنجزها بمدينة سيرتة «Cirta» وكان يناشدهم - حسب ما أورده المؤرّخ صلّوست - أن يدافعوا عن مملكتهم وعن ملكهم ضدّ نهم الرومان وجبروتهم .

ومن هنا يبدو أنّ الأفارقة كانوا في ذلك العهد يشعرون بنوع من الوطنية ، ويستمدّون قوةً من تلك المشاعر النبيلة . فكان أنصار يوغرطة يقاتلون الرومان من أجل مبدأ ظاهر مبيّن . يدافعون عن أرض أنجبتهم وعليها ترعرعوا . يدافعون عنها حتّى لاتسقط بأيدي الرومان الغاصبين الغاشمين . ولو لم يكن ذلك الشعور في نفوس النوميديين لما استطاعوا مجابهة الجيوش الرومانية العتيدة .

ولم يكتف يوغرطة بتشجيع جنوده . بل كان يشاركهم معمعة القتال . ينتقل من مكان إلى مكان حسب ماتمليه الظروف . ودامت المعركة حتّى كان الدجى ، وعند ذلك أعاد متلّوس تنظيم صفوفه وأشار بالرجوع إلى المعسكر ، وكان قد

كلّف مساعده روتليوس «Rutilius» - كما أسلفنا - بتنصيبه على مقربة من النهر في مكان حصين . ولم تكن مهمة روتلْيوس باليسيرة . لقد تصدّى له فيلق نوميديّ كان تحت قيادة بُد ملقرط (86) (Bodmelqart) ولكن الرومان كبّدوا خسائر فادحةً في الرجال والعتاد حتّى لاذ بالفرار ، فأتيح لروتليُوس أن يقوم بمهمته أحسن قيام . وأتيح للجيش الروماني أن يتجمّع في ذلك المعسكر ، ورابط به أربعة أيّام حتّى تضمّدت جروحه واستعاد قواه .

أمّا يوغرطة فتوغّل في منطقة كثيفة الأشجار محصّنة ، وفيها جمع جُنودَه وأخذ يستعدُّ للقتال مرّةً أخرى ، غير أنّه بعد النظر في معركة المثول ودرس نتائجها رأى القنصل متلّوس لزاماً عليه أن يغيّر منهاج الحرب . أيقن أن لاجدوى في المعارك المنظّمة إذ ... يتفوّق جيشه على جنود يوغرطة ويجبرهم على الفرار دون أن ينتصر عليهم انتصاراً كاملا . ومع الانتصار لامناص من دفع ثمن باهض ، وما الفائدة إن كان الانتصار بعد خسائر فادحة لايمكن تعويضها ؟

تلك هي العوامل التي جعلت متلّوس يغيّر منهاج الحرب ، فعوض المعارك المنظّمة غدا يؤثر النهب والتخريب ،

---

(86) بد ملقرط : احد اعوان يوغرطة والمرجح انه من قبيلة نوميدية . على انه يحمل اسما بونيقيا مما يشهد بتاثير الحضارة البونيقية على النوميديين .

فكان جيشه يسير في الأرض ويستبيح خيراتها ويحطّم حصونها ويضرم النار فيها ويفتح المدن الصغيرة الضعيفة ويفسح لجنوده المجال للنهب والتخريب ، وقد كان لهاته الفظائع الرومانية صدى بعيد ، فاستولى الهلع على قلوب أهل المدن فاستسلموا ، وسلّموا القيادة الرومانية رهائن عربون الطاعة والخضوع ومدّوها بالمؤونة ، وكان القنصل متلّوس لايترك مدينة دون أن يسلّط عليها حامية من جنوده .

وكان يوغرطة في تلك الظروف يتحيّن الفرص لمهاجمة الجيش الروماني : يخرج ليلا بجنوده وينتصب في طريق الرومان وينقضّ عليهم كلّما ساعدته الظروف فيقتل ويؤسّر ثمّ يعود من حيث أتى . ثمّ كان لايتردّد في تسميم الأعشاب والعيون حتّى لايستغلّها الرومان بسلامة . كذلك كان الجيش الروماني يذوب في مسيرته دون أن يتمكّن من ضرب عدوّ يحمل عليه ويأبى الالتحام .

• معركة زامة :

على أنّ القائد الروماني كان لايفكّر في شيء سوى الضرب عاجلا والقضاء على جيش يوغرطة ، لأنّ الزمن كان يعمل في صالح الملك . ذلك الذي كان يأبى الالتحام ، بل يؤثر البقاء تحت طيّ الخفاء ولا يحمل إلاّ في الظروف المساعدة .

فكلّما ابتعدت شرذمة من الجيش الروماني عن معسكرها تعقّبها فرسان الملك الافريقي وانهالوا عليها ضربا وتقتيلا . كذلك أصبح جيش متلّوس عديم الطمأنينة يعيش تحت عبء الأخطار ، وكان عبؤها يثقل مع مرّ الزمان حيث كان الجيش الروماني يتلقّى ضربات مبيدة ولم يكن في إمكانه التكهّن بها ولا التصدّي إليها .

ولما كان آخر الصيف من سنة 109 قبل المسيح أراد القنصل شنّ حملة عنيفة وأمله أن تتكسّر شوكة العدوّ قبل حلول فصل الشتاء ، وبدا له من الصالح في هذا الشأن أن يحاصر مدينة زامة حتّى يفتحها ويتسلّط عليها . ومدينة زامة من أعظم المدن النوميدية، تقع وسط سهل فسيح تُعْوِزُهُ الحصانة ، وكانت توجد حسب نظرية ستيفان قزال Stéphane Gsell في المنطقة الممتدّة بين مدينتي الكاف ومكثر . على كُلٍّ فلقد عملوا على تحصينها فأحاطوها بسور منيع .

كان القائد الروماني يأمل أن يسرع يوغرطة إلى مؤازرة أهل المدينة فيلتحم جيشه بجيش الرومان في ميدان تكون فيه الغلبة للرومان نظراً لتفوّقهم في العدد والعتاد . ولم تكن الحيلة لتنطلي على يوغرطة بل اكتشف الخطّة عن طريق بعض الذين تركوا صفوف الرومان والتحقوا به لأسباب لم يذكرها المؤرّخ . ولو فعل لاتّضحت لنا بعض المشاكل

المتعلّقة بتاريخ الرومان وتاريخ المملكة النوميدية في الحقل السياسي والحقل العسكري .

كشف النطاء على خطّة متلّوس إذن قبل إنجازها فتقدّمه يوغرطة إلى مدينة زامة (87) ولمّا أدركها توجّه إلى أهلها يناشدهم الوقوف في وجه العدوّ صامدين ، حتّى يدافعوا عن حرمة مدينتهم بأشدّ مالديهم من إيمان وأسلحة . ثُمّ ترك أولئك الذين فرّوا من صفوف الرومان وأشار عليهم أن يقاتلوا إلى جانب أهل المدينة واثقا أنّهم سوف يقاتلون بكلّ شجاعة خشية سقوطهم بين يدي متلّوس ذلك الذي لن يشفق على الخونة بل سيعا ملهم بأشدّ القساوة فيما إذا كانت الغلبة له . وكانت خطّة يوغرطة أن يبارح المدينة على أن يعود إليها وجيشه عند الأوان . وغادر المدينة فعلا والتحق بمناطق كثيفة الأشجار حيث يستطيع مراقبة العدوّ وتحرّكاته خفية .

كان جيش يوغرطة محتشداً في الغابة تواريه الأشجار ، فإذا بنبإ يقول : إنّ أحد ضبّاط الرومان يتقدّم على رأس بعض الوحدات الرومانية نحو مدينة سقّة (Sicca) وهي الكاف حاليا وكانت من المدن التي فتحت أبوابها لجيوش روما خشية

(87) زامة : احدى عواصم المملكة النوميدية ويبدو على ضوء ما اورده صلوست انها تختلف عن زامة تلك التي اشتهرت بالمعركة التي دارت بين حنبعل وشبيون .

القمع إذ كانت القيادة الرومانية لاتتردّد في تخريب المدن وتقتيل سكّانها .

كان ماريوس (88) أحد مُساعدي متلّوس يريد مدينة سِقّة لاقتناء القموح . ففاجأه يوغرطة ليلا ومعه نخبة من فرسانه . وحمل على الوحدات الرومانية أثناء خروجها من باب المدينة وناشد في الوقت نفسه أهلها أن يتعقّبوا العدوّ ويوقعوا به إذ هي فرصة سعيدة أتيحت لهم ليبلوا البلاء الحسن وينجزوا المفاخر . فهي ظروف إن استغلّوها تمكّنوا من استرجاع استقلالهم وسلامتهم . وبها يكونون قد ساعدوا ملكهم على الاحتفاظ بمملكته .

وشعر ماريوس بالخطر الذي كان يحدق به فأمر بالخروج حالاً من المدينة ، ولو لم يفعل لسقطت الوحدات الرومانية تحت ضربات النوميديين ، وبعد اصطدامات طفيفة تصدّت لها أدركت وحدات ماريوس (Marius) مدينة زامة ، وكان متلّوس قد ضرب الحصار عليها (89) راسما للهجوم خطوطه محدّداً لِكُلّ مهمّته . ثمّ أمر بالزحف على المدينة التي كانت في حصن

(88) ماريوس : ينتمي إلى عائلة ثرية لكنها ليست من الاشراف مما جعل ماريوس يعمل جاهدا ليتسلق سلم الوظيفة العمومية والعسكرية منها بخاصة .
(89) معركة زامة : انظر : صلوست : الفقرة 57 وما بعدها

جدرانها الشامخة الحصينة كما كان لها من العتاد الحربي ما يبعث على الأمل ويستوجب التقدير .

كانت الكرّة عنيفةً لكنّ المدينة صمدت وتصدّى سكّانها لضربات العدوّ وأرجعوه على أعقابه ، فكانوا يلقون على الزاحفين أحجاراً وأوتاداً تكسوها الخرق مطليّةً بالقار الملتهب ، كما كانوا يمطرون عدوّهم قطراناً محرقا مزجوه كبريتاً . كانت قذائف أهل زامة تبيد جنود متلّوس ، وبعضهم كان يعمل على تحطيم جدران المدينة من أساسها ، وآخرون كانوا يستعملون السلاليم لولوج المدينة من أعلاها .

وأقبل يوغرطة أثناء المعركة على رأس جيش عتيد ، ويرجّح أنّ القنصل الروماني كان يترقّبه ليلتحم الجيشان كما أسلفناه على ضوء رواية أوردها المؤرّخ الروماني صلّوست . أقبل إذن يوغرطة لكنّه لم يحمل على الوحدات التي كانت تسعى إلى تسلّق جدران مدينة زامة بل توجّه نحو المعسكر الروماني ودخله بجنوده فجأة فعاثوا فيه فساداً ، وقد استولى الرعب على قلوب الذين كلّفوا بحراسته فلاذوا بالفرار وسقط كثيرهم تحت سيوف النوميديين ورماحهم ، ولم يثبت منهم سوى أربعين رجلا تحصّنوا على ربوة كانت قرب المعسكر فتصدّوا لعدوّهم صامدين وأبعدوه عن ربوتهم بقوة قذائفهم .

خاض يوغرطة معركة المعسكر ، والقنصل متلّوس منهمك" في عملية الزحف على مدينة زامة ، واشتدّ الوطيس وامتلأ الفضاء غباراً وصراخاً . فسمع القنصل ذلك فالتفت وراءه ، فإذا بنفر من جنوده مقبلين نحوه فارّين فتذكّر المعسكر فأيقن بالخطر فأرسل الخيّالة وأضاف إليهم ماريوس يقود وحدات من الحلفاء لردع العدوّ وإنقاذ المعسكر. فكان الاصطدام ولم يتمكّن ـ على قول صلّوست ـ رجال يوغرطة من الثبات أمام الخيّالة ووحدات ماريوس وهرولوا نحو أبواب المعسكر فارّين . واكتظّت بهم الممرّات الضيّقة فحاولوا عبور المتارس قفزا وهلك الكثير منهم على أنّ الملك خرج سالماً والتفّ حوله جنوده وأنصاره وابتعدوا متّخذين المنعرجات والطرق الملتوية حتّى يتواروا دون أن يتعرّف العدوّ على مواقعهم ويتتبّع تحرّكاتهم .

كان يوغرطة وجنوده يعرفون بلادهم شبرا شبرا ولهم في ذلك قوّة على عدوّهم . إذ كانوا يحملون على الرومان من حيث لايدركون . وإن فرّوا ترى عدوّهم عاجزاًعن تعقّبهم والالتحاق بهم ، وتلك خطّة معهودة لدى الذين يقاتلون عدوّا جبّاراً يتمتّع بالتفوّق في العدد والعتاد .

أمّا المعارك وراء جدران مدينة زامة فقد تواصلت إلى غروب الشمس دون أن تكون النتيجة الحاسمة . وعندها

أمر القنصل الروماني جنوده بالكفّ عن الهجوم والعودة إلى الخيام . ولمّا كان الصباح تجمّع الخيّالة مصطفّين خارج المعسكر وبقيت داخله قوّات كفيلة بردع كلّ هجوم . اطمأنّ القنصل على حراسة المعسكر وسلامته . ثم سار نحو مدينة زامة وبادر بالكرّ عليها مشيرا أن ادخلوها بتسلّق جدرانها أو بفتح فلجة فيها .

كان الرومان منهمكين في المعركة مقبلين تارةً ومدبرين طوراً . فإذا بيوغرطة يزحف عليهم على رأس جيش عتيد . فكانت معركة عنيفة وصفها المؤرّخ صلّوست وصفاً دقيقاً طغت عليه الحركة والصراخ وقرع الحديد للحديد في جوّ يعلوه غبارٌ كثيف . ويرجّح أنّه اقتبس هاته الألواح من بعض الملحمات القديمة . وقد تفنّن القدماء في وصف المعارك الملحمية ـ ثنائيةً كانت أو جماعية ـ وأروع مالدينا في هذا الميدان يعود الفضل فيه إلى الشاعر اليوناني هوميروس (90) «Homère» الذي يبدو أنّه عاش في القرن السادس قبل المسيح .

وتعرّض صلّوست إلى طريقة النوميديين في القتال ، فهم على حدّ قوله يندفعون كتلة حتّى أنّك ترى الخيّالة

(90) هوميروس : شاعر يوناني يرجح أنّه عاش في القرن السادس قبل المسيح وله تنسب ملحمتا الالياذة والاوديسة .

مندمجين في صفوف المشاة ، ويتقدّم الجميع دفعةً واحدةً ممّا كان يدهش الرومان ويحيّرهم . ذلك أنّ الخيّالة يتقدّمون في الزحف ليكسّروا صفوف العدوّ ويفتحوا فيها فلجة . وعندما تكون الفلجة تراهم يدبرون ويتركون المجال للمشاة حتّى يتخلّلوا العدوّ ويشتّتوه أو يقتّلوه .

وفيما إذا تفرّق شمل العدوّ ولاذ بالفرار ترى الخيّالة تطاردهم لتقتيلهم أو القبض عليهم ، فللخيّالة إذن فتح الفلجة في صفوف العدوّ ومطاردة الفارّين منه . وكثيرا ماتسعى الخيّالة النوميدية إلى بثّ الفوضى في صفوف الرومان ، ولا يمكن تكسير شوكتهم إلاّ باختلال النظام عندهم . إنّها لطريقة ناجعة وقد مكّنت يوغرطة من تسديد ضربات خطيرة لأعدائه . سقط الكثير منهم في ساحة الوغى وداستهم سنابك الخيل و تناوشتهم سيوف المشاة ورماحهم بيد أنّ الملك النوميدي لم يستطع خرق صفوف الرومان .

ومن بين الذين كانوا يديرون القتال حول المدينة ، تجدر الإشارة إلى ماريوس ، وقد لجأ إلى حيلة كادت تفتح له أبواب زامة : ذلك أنّ ماريوس لاحظ أنّ الجنود الذين كانوا يتصدّون لحملاته المتوالية ويسلّطون على الرومان شرّ قذائفهم لاحظ أنّهم كانوا يتتبعّون المعارك التي كانت تدور بين يوغرطة وبعض الوحدات الرومانية . وكانوا يتتبّعونها بحواسّهم

وعواطفهم . بل كنت تراهم يعربون عمّا يخالجهم بحركات وأصوات كانت تصدر منهم تلقائيا من حيث لايشعرون .

فأراد عند ذلك ماريوس أن يتركهم ينغمسون في مشاهدتهم للمعركة التي يقوم بها يوغرطة . فأمرجنوده أن يخففّوا وطأتهم فكانت النتيجة كما توقّعها حيث أصبح المحَاصَرون لايفكّرون إلاّ في يوغرطة ويعيشون معركته .

وانقطع ماريوس عن الكرّ زمَنًا ثم شنّ حملة عنيفة حتّى تمكّن بعض جنوده من تسلّق السلالم فكانوا على مقربة من قمّة الجدار ، غير أنّ أهل المدينة أسرعوا وأمطروا عدّوهم قذائف عديدة مختلفة : فتكسّرت السلالم وسقط أصحابها على الأرض وفرّ الآخرون . لكنّ المعارك تواصلت إلى غروب الشمس دون أن يدرك متلّوس الهدف المرسوم . فابتعد عن زامة وفرّ بجيشه حتّى أدرك الولاية الافريقية الرومانية ليقضي بها فصل الشتاء .

لم تسفر المعارك التي قام بها متلّوس عن نتيجة ملموسة بل يحقّ لنا أن نقول بفشله . وها قد أقبل الشتاء وستبقى الجيوش تحت خيامها ولن تخوض معارك جديدة قبل حلول الربيع . على أنّ القنصل الروماني كان يريد الانتهاء من حرب يوغرطة في أقرب الآجال .

فرأى من الصالح أن لايبقى مكتوف اليدين طيلة فصل

الأمطار ، وبات يحاول القضاء على يوغرطة عن طريق الحيل والمكائد ، وهي وسائل قد لجأ إليها سابقاً لمّا كان يوغرطة يرسل إليه وفوداً تعرض عليه التفاوض والحلول السلمية . وأورد صلّوست أنّ متلّوس كان يريد استغلال خبث الأفارقة ونفاقهم . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى العداوة التي كان الرومان يكنّونها لأهل افريقية . فكلّما تعرّض أحد المؤرّخين إلى الأفارقة رأيته ينعتهم بالخبث والنفاق . كقولهم « جنس خبيث.جنس خدّاع » . وهي عبارات كثيراً ما نجدها في تحارير تيت ليف (Tite-Live) وغيره (91) فقد عمل الرومان جهدهم لتشويه الأفارقة وللطعن في شرفهم فكأنّها حملة دعائية كان يقوم بها غلاة السياسة التوسّعية تعليلا للحروب التي كانوا يشنّونها لبسط نفوذهم على افريقية وانتزاعها من أيدي الأفارقة .

وكان صلّوست من الذين ساهموا في ترويج تلك الأحكام المشينة ضدّ الأفارقة ، بل يضيف أنّ الخبث والنّفاق من طبع الأفارقة . من ذلك نرى أنّ المؤرّخ الروماني يطنب في وصف الطريقة التي توخّاها متلّوس لاستغلال خبث الأفارقة ونفاقهم .

---

(91) كلما تحدث تيت ليف عن الافارقة اضاف انهم فُطِرُوا على الخبث والخدعة انظر :
Tite-Live, XXX. II.

فدعا القنصل الروماني حالا مساعديه للتشاور معهم والنظر في شأن يوغرطة . وانتهت الندوة بإصدار أمر حسب التقاليد الرومانية العتيقة مضمونه مطالبة يوغرطة بدفع ضريبة قدرها ألفا وزن روماني من الفضّة ، كما طالبوه بتسليم كلّ مالديه من الفيلة وتسليم كمّية من الأسلحة وعدد من الخيل . وما أنّ تمّ تطبيق تلك الشروط حتّى طالبوا يوغرطة بتسليم الخونة أولئك الذين غادروا الصفوف الرومانية والتحقوا بجيش يوغرطة . وتمّ تسليم البعض منهم لكنّ غالبهم شعروا بالخطر منذ افتتاح المفاوضات وغادروا المملكة النوميدية نحو موريطانيا وكان على عرشها ملك يدعى بُكُّوس .

افتكت القيادة الرومانية أسلحة يوغرطة وأخذت ماله ثم أمرته بالحضور في مدينة سمّاها صلّوست تيزِدْيُوم «Thisidium» ولم يوفّق المؤرّخون في ضبط موقعها الجغرافي ، ومن المرجّح حسب المؤرّخ ستيفان اقزال «Stéphane Gsell» أنّها تقع قرب مدينة مجاز الباب في المكان المعروف اليوم « قريش الواد » .

أمروه بالإتيان إلى مدينة تيزِدْيُومَ وفيها يتلقّى أوامر القيادة الرومانية . على أنّ يوغرطة أوجس خيفة فغيّر موقفه خشية الوقوع تحت حكم الرومان وشرّ العقاب . وبات يتأرجح بين الامتثال لأوامر عدوّه وبين العودة إلى

الحرب . كان ينظر إلى الهوّة التي تفصل بين العرش والعبودية فاستولى عليه الهلع حتّى وقع اختياره في النهاية على الحرب فعاد إليها ولم يأت مدينة تيزديوم .

وبعد الحيرة والاستسلام استرجع يوغرطة قواه المادية والمعنوية فقام وشدّ مئزره للحرب . لقد أضعفته القيادة الرومانية فعلا بشروطها المجحفة . فسلّمها أمواله وأسلحته في فترة قنوط حلّت به ثم عاد إليه توازنه فأظهر من الذكاء والحكمة والنشاط ما جعله يجنّد الرجال ويشتري العتاد ويعزّز حصونه . وكان حسب الظروف يستخدم الوعد والوعيد لاسترجاع المراكز التي استولت عليها القوات الرومانية حتّى يتخاذل متلّوس وتلتحق بصفوفه . بل لم يتردّد في رشو الحاميات الرومانية .

كان يوغرطة ينشط إذن والنجاح يكلّل جهوده وقد تمكّن من استرجاع الأراضي التي اكتسحتها جيوش متلّوس سوى نقط كانت ترابط بها حاميات رومانية مخلصة . وتقدّم بجيشه أثناء فصل الشتاء وحشد بعض قوّاته على مقربة من الولاية الافريقية الرومانية بل قرب المعسكر الروماني بالذات .

وفي أواخر سنة 109 قبل المسيح انتهت المهمّة التي أنيطت بعهدة متلّوس ، والمعلوم أنّ القنصلية كانت تسند لمدّة سنة واحدة . انتهت قنصلية متلّوس بنهاية السنة لكنّه

احتفظ بالولاية النوميدية. أسندها إليه مجلس الشيوخ باعتباره قنصلا مساعدا (Proconsul) وبذلك كان لمتلّوس أن يحتفظ بقيادة الجيوش الرومانية في الديار النوميدية ولئن أبقوا متلّوس على رأس الجيش الروماني بإفريقية فليس ذلك من باب العطف والمحاباة بل سعيا وراء النجاعة وتقريب نهاية حرب يوغرطة وقد ثقل وزنها على كاهل الشعب الروماني .

* مـؤامـرة بـاجـة : (92)

وفي أثناء ذلك الشتاء جرت حوادث خطيرة بالنسبة لجيوش روما . كانت إحدى الحاميات التي أبقاها متلّوس بالمملكة النوميدية ترابط بمدينة باجة . فاتّصل يوغرطة بأعيان المدينة وسألهم أن يساعدوه على حبك مؤامرة توقع بالحامية الرومانية ، فتأثّروا واقتنعوا وكان تنفيذ المؤامرة ليلة عيدٍ دينيّ . وكان له عند الأفارقة قيمة عظمى ويبدو حسب أبحاثٍ قام بها المؤرّخ الفرنسي جيروم كركبنُو « Jérome Carcopino » أنّه عيدُ سيراس «Cérès» إلهة الفلاحة . فذات ليلة من ليالي الشتاء كانت مدينة باجة منهمكة في احتفالات هذا العيد بما في ذلك من طبول ومزامير ومآدب وخمور . واستدعى أعيان المدينة ضبّاط الحامية الرومانية

(92) فيما يتعلق بمؤامرة باجة : انظر صلوست : الفقرات 67 ـ 68 ـ 69 .

إلى منازلهم ليشاركوهم عيدهم فقبلوا . ولمّا انهمكوا في الأكل والشرب كانت المهلكة وسقط الضبّاط تحت ضربات مضيّفيهم ولم ينج منهم إلاّ قائد الحامية .

ثمّ خرج المتآمرون وساروا بأهل المدينة وحملوا على الجنود وهم يتنزّهون عبر الشوارع آمنين مطمئنّين . فاستولى عليهم الهلع والحيرة وقد وجدوا أنفسهم عزّلا لاقائد لهم ولاسلاح . واستولى المتآمرون على القلعة حيث توجد الأسلحة وأغلقت أبواب المدينة في حين أنّ النساء والأطفال كانوا يلقون القذائف المختلفة على جنود روما فقتلوا شرّ قتلة ولم يخرج على حدّ قول صلّوست من المدينة سالماً سوى قائد الحامية وهي رواية أقرّها الفيلسوف اليونـاني بلوطارق «Plutarque» لكنّه من العسير أن نقف على الأسباب الحقيقية التي مكّنت ذلك القائد من النجاة .

ولم يقف صلّوست على حلٍّ مرضيّ لتلك المشكلة ، بل اكتفى بالتساؤل حيث يقول في الفقرة السابعة والستين من كتابه : إنّ القائد ترْبِلْيُوسَ «Turpilius» هو الإيطالي الوحيد الذي فرّ سالماً . فهل كان ذلك من باب العطف عليه أونتيجة اتفاقية سريّة ؟ أم هل كانت سلامته من باب الصدف ؟ ذلك مالا علم لنا به ومهما يكن من أمر فالرجل الذي تحلُّ

به مصيبة كهذه ويؤثر حياةً بلا شرفٍ على سمعة نقيّة ينبغي اعتباره من الأشقياء الأنذال .

وتعرّض الفيلسوف بلو طارق«Plutarque» ـ عــــاش في القرن الثاني بعد المسيح ـ إلى مسألة تُرْبِلْيُوسَ ونجاته من كارثة باجة . وأثبت أنّه إذا لم يمَسَّه المتآمرون بشَرٍّ فذلك لحسن معاملته لأهل المدينة حيث إنّه لم يسلّط عليهم أحكام الجبابرة . تلك هي رواية بلوطارق ، ومن العسير علينا أن نعزّزها أو نفنّدها . ونحن إذا وجب الاختيار فلا نرى مانعاً في اتّخاذ موقف التساؤل في هذا الشأن وهو موقف التأني والحذر . فلا فائدة في تفسير وتعليل بدون حجّة نقدّمها أو وثيقة يرتكز عليها حديثنا .

بلغ نبأ الكارثة متلّوس وهو بمدينة تيزدْيُوم «Thisidium» فقيل إنّه تألّم شديد الألم من تلك الفاجعة حتّى أنّه اعتكف بخيمته زمناً منفرداً لايريد مقابلة أيٍّ كان . وتسلّطت عليه مشاعر لوّنها الغضب والألم فبات لايفكر إلاّ في الانتقام ويفتّش عن أسرع الطرق وأنجعها لبلوغ ذلك الهدف : شوّه النوميديون شرف روما وداسوا كرامتها فالواجب على القائد أن ينتقم لها ويطّهر عرضها.

كان متلّوس مقيماً بمدينة تيزِدْيُومَ ومعه فيلق من الجيش الروماني وثلّة من فرسان نوميديا لاندري الأسباب

والظروف التي جعلتهم ينضمّون إلى صفوف الرومان ، ومهما يكن من أمر فقد أشار متلّوس على جنوده بالرحيل عند غروب الشمس حتّى يكون الليل من جانبه . سار متلّوس ورفاقه طيلة اللّيل . ولمّا كان الصباح أدركوا سهلاً تحيط به هضيبات وقد أنهكهم التعب . وطلبا للراحة رأوا أن يقيموا بذلك السهل بل وأحجموا عن السير فقام فيهم متلّوس خطيباً وشرح لهم سرّ المهمة ملاحظاً أنّهم على مقربة من باجة لاتفصلهم عنها إلاّ بضعة أميال ، وأضاف أنّ الواجب يطالبهم بتحمّل الأتعاب صامدين حتّى ينتقموا لمواطنيهم أولئك الذين كانت شجاعتهم في مستوى الكارثة التي حلّت بهم . ثمّ أخذ القائد يلوّح لجنوده بوفرة الغنائم التي تترقّبهم . وهكذا بعث الشجاعة من جديد في قلوب رفاقه وأعاد لهم قوّة عزمهم وضرب على أوتارهم الحسّاسة حتّى هبُّوا يطالبون بالسير قدماً وباتوا يترقّبون المعركة بفارغ صبر .

وقبل أن يشير متلّوس بمتابعة السير نحو مدينة باجة أعاد تنظيم جيشه . فأمر الفرسان النوميديين أن يكونوا بالمقدّمة وأشار على المشاة أن يسيروا خلفهم في صفوف مرصوصة وأمرهم أن يخفوا راياتهم .

شاهد سكّان باجة جيشا يتقدّم فأوجسوا خيفة وكانوا يتوقّعون وصول جيش متلّوس . فأغلقوا أبواب المدينة . على

أنّهم لمّا شاهدوا الجنود يتقدّمون دون أن يلحقوا مزارعهم فساداً ثمّ لمّا لاحظوا فرساناً أفارقة في طليعة الجيش خالوه يوغرطة فهرولوا يستقبلونه وهم في غمرة من البهجة والاستبشار . وما راعهم إلاّ أن رأوا جيش متلّوس يحمل عليهم بكلّ قوّة وعنف . وانهالت الجنود الرومانية على أهل المدينة يقتّلونهم . وأسرعوا نحو الأبواب والابراج واستولوا عليها ، واتّضح أن لا فاعليّة للتّعب إن كان المرء تحت سلطان الغضب وحبّ الغنيمة . وهكذا سقطت مدينة باجة ثانيةً تحت يدمتلّوس وكانت فريسة الانتقام .

أمّا قائد الحامية تربليُوس «Turpilius» ذلك الذي استطاع الخروج سالما من الكارثة التي ذهبت بالحامية الرومانية فقد طلب منه متلّوس تقديم أعذاره ، كما طلب منه أن يبيّن كيف آثر الحياة على الموت وبأي ثمن اشترى حياته . لكنّ تربليوس لم يتمكن من تبرير موقفه فحكم عليه وجلدَ ثم قطعوا رأسه . ولئن جلدوه قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه فذلك لأنّه كان لاتينيّاً وليست له حقوق المواطنة الرومانية «La citoyenneté romaine» فلو كان مواطنا رومانياً لأعفي من الضرب .

ويبدو حسب رواية صلّوست أنّ الأمير بدْملقرط كان في تلك الظروف منهمكا يفتّش عن طريقة تساعده على

الإيقاع بالملك يوغرطة . وكان يخاف عاقبة الأمور . ولعلّه كان يخشى أن يقف يوغرطة يوماً على ما دار بينه وبين القيادة الرومانية . وقد أصبح الملك ينظر إلى مساعديه بعين ملؤها الارتياب وعدم الثقة . فاحتار بُدْ مِلْقَرط ورأى من صالحه أن يوقع بالملك مهما كانت الظروف وكلّفه ذلك ما كلّفه . لقد كان يريد أن يسلّمه حيّاً لكن أصبح القضاء عليه محتّماً .

على أنّ بَدْملقرط كان في حاجة إلى مُسَاعد يؤازره في حبك المكيدة وتنفيذها . فاتّصل بأمير نوميدي يدعى نَبْدَلْسَةْ «Nabdalsa» وكان ثريّاً قويَّ الجاه يحبّه الملك ويعتزُّ به ، وكثيراً ما كان ينوب الملك على رأس الجيوش النوميدية . لقد اتّصل به بدملقرط وأقنعه بضرورة القضاء على الملك . وتمّ الاتّفاق بين المتآمرين وضربا موعداً لتنفيذ المكيدة دون أن يقع رسم خطّة مضبوطة . ويدّعي صلّوست أنّهما اتفقا على رسمها عند الأوان طبقاً لما قد تمليه الظروف .

ثمّ انصرف كلّ واحد منهما في شأنه وكان الأمير نبدلسةُ إذ ذاك مكلّفا بقيادة الجيش النوميدي وقد أمره يوغرطة أن يرابط وجيشه على مَقْرَبَةٍ من المعسكر الروماني . ولمّا كان اليوم المضروب خاف نبدلسة فلم يلتحق بالمكان المعيّن . فاحتار بدملقرط وأرسل مكتوباً إلى صاحبه نبدلسة

يعيب عليه جبنه ويشير إلى وعود القيادة الرومانية وأضاف في مكتوبه أنّ يوغرطة على وشك الهلاك . وإن لم يسقط تحت يدنوميدية فهو لا محالة ساقط تحت ضربة الرومان . ثم ختم الرسالة ذاكرا أنّه بقي لنبدلسة الخيار بين العقاب والجزاء .

تسلّم نبدلسة مكتوب زميله وكان على فراشه يستريح ولمّا قرأ الرسالة استولت عليه الحيرة حتّى أنهكت قواه فغدا في سبات عميق . وكان لنبدلسة كاتب لايخفي عليه سرًّا فاتّفق أن ولج الخيمة وسيّده يَغُطُّ في نومه الثقيل . وأخذ الرسالة واطّلع على محتواها ثمّ أسْرع ليحيط بها الملك علماً . واستيقظ نبدلسة بعد حين فلم يجد الرسالة وقيل له : إنّ كاتبه غادر المعسكر فربط الأمير النوميدي بين الأمرين واستولى الرعب على قلبه فأرسل فرساناً يتعقّبونه ومهمتهم القبض عليه . لكنّهم لم يفلحوا . وعند ذلك امتطى نبدلسة حصانه قاصداً يوغرطة أملا في تهدئته وإقناعه ببراءته . ولمّا كان بين يديه قال : إنّه كان عازماً على إحاطة الملك علْماً بفحوى الرسالة . ويبدو على قول صلّوست أنّه كان يحدّثه ويحاول إقناعه مشيراً إلى روابط الصداقة والمحبّة التي كانت تصل بينهما .

وكانت النتيجة أن أمر يوغرطة بإعدام بدملقرط وثلّة من الذين شاركوه عمله من قريب أو بعيد ، على أنّ ظروفا

سياسيةً واجتماعية حالت دون عقاب نبدلسة ، ذلك الأمير الذي ساهم في حبك المكيدة واحجم عن تنفيذها خوفاً . ولمّا بلغت أنباء هاته الأحداث متلّوس استقرّ أمره على مواصلة القتال . وأخذ يعدّ العدة للحرب من جديد . وكان يؤمن بالنصر القريب نظرا لعجز يوغرطة وقد أضحى لايثق بمساعديه بعد المؤامرة التي أشرفت به على الهلاك . أليس من العسير عليه أن يخوض حرباً ولا ثقة له بالذين يحيطون به ولا يستعين بهم وقد لايرى فيهم سوى أناسٍ يتكالبون على الكيد له والقضاء عليه . وكان يوغرطة شديد الاضطراب عديم الاستقرار يتأرجح بين أمر وسواه : تراه يهاجم العدوّ تارة ويتوغّل طوراً في البوادي هارباً . وقد داخله الشكّ في شجاعة جنوده ووفائهم .تلك هي العوامل التي جعلت متلّوس يؤمن بالنصر القريب ، وفاجأ يوغرطة ذات يوم وأجبره على خوض معركة . وانهزم يوغرطة ولم تصمد جنوده في وجه العدوّ بل تركوا أسلحتهم وراياتهم ولاذوا بالفرار على حدّ قول صلّوست .

معركة تالة :

واتجّه يوغرطة إلى مدينة تالة وكانت قلعةً حصينةً تحيط بها جدران منيعة ، وكانت فيها خزينة الملك (93)

(93) يبدو على ضوء المصادر القديمة ان يوغرطة كان يضع امواله من ذهب وفضة في مدن مختلفة منها زامة وتالة وقفصة وغيرها ولعلها كانت عواصم اقليمية .

وفيها قصر يقيم به أبناؤه الصغار . إنّها مدينة ثريّة لكنّ ضواحيها صحراء لاماء فيها ولا نبات وأقرب نهر لها يوجد على بعد 74 كلم .

على أنّ صورة المدينة كما رسمها المؤرّخ الروماني صلّوست لاتناسب المدينة التونسية التي تحمل اسم تالة وهي توجد جنوب مدينة الكاف وتبعد عنها بمسافة طولها 72 كلم عرفت باسم تالة منذ العصور الغابرة . وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ تالة اسم بربري يعني العين (عين الماء) فلا غرابة إن حملت مدُنٌ عديدة هذا الاسم الجغرافي . ومن ذلك نرى أنّ المدينة التي يشير إليها صلّوست قد تكون غير مدينة تالة الحالية . الأمر الذي جعل المؤرّخين يجهدون في ضبط موقعها استناداً على ما أورده صلّوست في الفقرة الخامسة والسبعين من كتابه : ذكر المؤرّخ الروماني أنّ تالة تشبه مدينة قفصة ، وعليه ترى بعضهم يفتّشون عن موقعها في الجنوب التونسي حيث تُوجَدُ قرْية تسمّى بلد الطالح تقع بين قفصة وخليج قابس . لكنّها تسمية عربية لا وجود لها قبل دخول العرب إلى ديارنا . كما أنّ الجهة لاتستوعب المعطيات التي ذكرها صلّوست والخاصة بضواحي المدينة التي يشير إليها . فالأجدر بنا أن نترك هاته المشكلة

جانبا إذ لاسبيل إلى فتح أقفالها ما لم تأت معلومات أخرى تنير طريقنا .

ولئن عجز المؤرّخ اليوم عن معرفة موقع تالة بالضبط فالأمر كان غير ذلك بالنسبة لمتلّوس . وما بلغه نبأ وجود يوغرطة بها حتّى أقرّ العزم على الذهاب إليها والالتحاق بالملك مهما تكن الظروف والعقبات ولم يكن يجهلها كلّ الجهل بل كان واعياً بخطورة المجازفة حيث تترقّبه الصحراء بحرّها وعطشها وريحها السموم . وهي عقبات ثقيل وزنها . لكن القائد لم يكترث بها لماله من رباطة جأش وعزيمة .

وأوصى أن تحمل الماشية قمحاً وماء دون أن تتَجاوز الكمية ما يكفي الجيش مؤونة طيلة أيّام عشر . وفرَضَ على أهل المنطقة أن يسلّموا حيواناتهم والأنعام منها بخاصّة . أخذوها لتحمل أثقالهم . ويشير صلّوست إلى أواني من خشب كان جنود متلّوس يأخذونها من أكواخ الأفارقة . فهل كانوا يملؤون تلك الأواني ماء أو طعاماً ؟ ذلك ما لم يذكره المؤرّخ الروماني . ولم تكتف القيادة بأخذ حيوانات المنطقة بل فرضت على السكان أن يزوّدوا الجيش ماء . ولمّا كان على أهبة أمر متلّوس بالمسيرة حتى أدركوا مكاناً نزلوا به للراحة .

أقاموا إذن معسكرهم وحصّنوه وقيل:إنّ السماء جادت يومها بأمطار غزيرة حتّى أصبحت كميّة الماء تفوق حاجة

الجنود . وقد تيمّنوا بتلك الأمطار وآمنوا أنّها مياه أرسلتها
الآلهة تشجيعا لهم وبشرى بالنصر المبين فقويت عزيمتهم
وازدادوا حماسا . وفي اليوم التالي واصل الجيش الروماني
سيره حتى أدركوا مدينة تالة . فأخذ كلا الجانبين يتأهّبُ
لمعركة حاسمة .

على أنّ الملك غادر المدينة صحبة أبنائه وكأنّه تنبّأ
بسقوطها تحت أيدي الرومان . فالذين جازفوا بحياتهم وقطعوا
الصحراء حتّى أدركوا تالة سوف لايجدون صعوبةً في
التسلّط عليها ونهبها . لذلك تركها الملك وشأنها متستّراً
بظلام الليل . وقد أخذ من أمواله ما أمكنه نقله .

أمّا بالنسبة لأهل المدينة فلم يصارحهم يوغرطة بما
كان يخالجه من عواطف وتخمينات خشية أن يسقط ضحيّة
إحدى المكائد . بل عذّر أن أموراً تناديه عاجلا . غادر الملك
النوميدي تاله وأمرت القيادة الرومانية فور وصولها إليها
بحفر خندق يحتذي السور وكلّفت جنوداً بالسير نحو الجدران
لنقبها وكانوا يعملون تحت مظلات خشبية تقيهم شرّ
القذائف حيث تهيّأ السكّان لمصارعة عدوّهم ومنعه من
ولوج مدينتهم وابعاده عنها يجرّ أذيال الخيبة . لكن
متلّوس كان قد أقرّ العزم على فتحها مهما كانت الظروف
والتكاليف . ودخلها فعلا وجنوده بعد معارك عنيفة دامت

أيّاماً عديدة ولمّا أيقن أعيان تالة بالهزيمة ورأوا عدُوّهم
يفتح الفتحات في السور الحصين أخذوا كلّ ثمين لديهم
وجمعوه أكداساً في قصر يوغرطة وبعد الأكل اللذيذ وشرب
الخمور أجّجوا ناراً ذهبت بهم وبما جمعوه من أموال وتحف
حتّى لايجد العدوّ شيئاً يغنمه .

سقطت إذن مدينة تالة تحت أيدي الرومان ويبدو
على ضوء ما أورده استرابون «Strabon» وهو جغرافي
يوناني عاش في القرن الأول بعد المسيح أنّهم دمّروها
فغدت أثراً بعد عين (94) . وكان سقوط المدينة كالصاعقة
في صفوف الأفارقة . وازداد نجم القائد متلّوس تألُّقاً في سماء
الرومان . وما من شكّ أنّها ضربة قاسية سدّدت نحو
يوغرطة فأضعفت سلطانه لكنها لم تضع حدّا للحرب .
ويرجّحُ أنّ متلّوس قد فتح مُدُناً في الأيّام التي عقبت
سقوط تالة وكان ذلك خلال سنة 108 قبل الميلاد . بل وتمكّن
من الاستيلاء على مدينة سيرتة عاصمة المملكة النوميدية .
على أنّ صلّوست لم يذكر كيف وصل إليها القائد الروماني
ولا كيف تمّ فتحها . هل كان ذلك بعد حصار شأن ما وقع
لتالة ؟ أم هل دخلها بموافقة سكانها ومُساعدتهم ؟ لم
يذكر صلّوست من ذلك شيئاً . لكنّه أشار أنّ متلّوس

(94) فيما يتعلق بتحطيم مدينة تالة انظر Strabon, XVII, 3, 12.

أخذها قاعدة حيث ترك فيها الأسرى والغنائم والذخيرة وأمر بإقامة المعسكر قربها . بل واستقرّ أمره على قضاء فصل الشتاء بالعاصمة النوميدية . ممّا يثبت سيطرة الرومان على الوضع بإفريقية وتقدّمهم بالنسبة لعام مضى حيث أجبر الجيش الروماني على العودة إلى الولاية الإفريقية الرومانية لقضاء فصل الأمطار . ولئن تجاسر متلّوس على البقاء بالعاصمة النوميدية طيلة شتاء سنة 108 فذلك لأنّه كان واثقاً بتفوّقه وسيطرته على الوضع العسكري بتلك المناطق على أنّ الغاية هي وضع حدّ لحرب يوغرطة وقد سئم الشعب الروماني منها ولعلّه أظهر غضبه تجاه قيادة لم تكلل أعمالها بنصر نهائيّ .

وفيما يتعلّق بالمدن الإفريقية فقد شاع صيت متلّوس ذلك الذي خاض معركة تالة وانتصر . فهذه لبدة الكبرى توفد إليه رسلا يحيطونه علما بتصرّفات أحد أعيان المدينة وأثريائها وكان يدعى عبد ملقرط . ويبدو أنّه كان يقوم بأعمال ثورية وكان لايتردّد في مخالفة القوانين والعبث بهيئة القضاة . فكانت المدينة ترغب من القائد الروماني أن يبادر بالتدخّل السريع حتّى لايذهب حلفاء روما ضحيّة عبث المتمرّدين . تلك هي المهمّة التي أنيطت بعهدة الذين أوفدتهم مدينة لبدة الكبرى إلى القيادة الرومانية بإفريقية . ولبدة الكبرى مدينة

توجد في القطر الليبي الشقيق . والمعلوم أنّها منذ بداية حرب يوغرطة أي منذ سنة 111 قبل المسيح طلبت من السلطات الرومانية أن تكتنفها بصداقتها وتعتبرها من حلفائها . ولم تبخل رُوما عليها بذلك . وكان لمدينة لبدة الكبرى ماتريده . ويشير صلّوست أنّها بقيت وفيّة لعهدها ولم تنحرف قيد أنملة عمّا قد تطالب به القيادة الرومانية . ولذلك لم يتردد متلّوس في مُسَاعدتها . وأرسل إليها أربعة وحدات تحت قيادة ضابط يُدْعَى أنيُوس «Annius» . ولكنْ في أي ظروف أدرك هذا الضابط مدينة لبدة ؟ وما هي الأعمال التي قام بها ؟ وكيف كانت النتيجة ؟ كلّها أسئلة لم يجب عنها صلّوست . ولعلّه تركها جانباً لعدم ارتباطها بموضوع رسالته . على أنّه خصّص فقرتين للحديث عن مدينة لبدة الكبرى مشيراً إلى الذين أسّسوها وإلى عاداتها وتقاليدها كما تناول الحديث عن بطلين من أبطال قرطاج وقد لعبا دوراً كبيراً في ضبط الحدود الفاصلة بين الأراضي البونيقية وبين أرض مدينة قرنة «Cyrène» الكائنة في جنوب القطر الليبي حاليّاً .

أمّا يوغرطة فقد توغّل في الصحراء غايته الاتّصال بقبائل جدّالة علّها تمدّ له يدّ المعونة وتمكّنه من التجنيد حتّى يستطيع مجابهة الرومان بعد سقوط تالة وقد

كانت من أعزّ القلاع النوميدية . تلك هي الظروف التي أحاطت بمعركة تالة كما أوردها صلّوست . على أنّنا نريد العودة إلى بعض التفاصيل كالنار التي التهمت أعيان المدينة بما لديهم من أموال ونفائس : ذكر صلّوست أنّ أعيان مدينة تالة أخذوا كلّ ثمين لديهم من ذهبٍ وفضّةٍ وجواهر وجمعوها أكداساً في ساحة القصر الملكي ، وبعد انهماكهم في أكل اللحوم وشرب الخمور أضرموا النّار في ما كدّسوه وأجّجوها ثم ألقوا بِأنْفُسِهم فيها حتّى هلَكُوا .

إنّها أحداث لاتخلو من الغرابة بل قل: إنّها تثير فينا بعض التساؤلات : فلئن كان حرق أموال المدينة رغبة من أعيانها حتّى لاتقع تلك الأموال في قبضة العدوّ . ولئن أبى أعيان المدينة إلا أن ينتحروا حتّى لايسقطوا تحت ربقة العبودية كما يشير إليه صلّوست . فما مَبرِّرُ ذلك الحفل الذي أقاموه قبيل الانتحار حيث انهمكوا في أكل اللحوم وشرب الخمور قبل أن يلقوا بأنفسهم في نار وقود ؟ لم يتعرض صلّوست لهاته الأسئلة ! فهل من حقّ المؤرّخ الذي يعيش في القرن العشرين والذي يؤمن بقوانين البحث العلمي أن يحاول فهم تلك الأحداث حتّى يقف على العوامل التي دفعتها والأهداف التي كانت ترمي إليها ؟ أجل ! لكن قبل النظر في

الأسباب والأهداف ينبغي على المؤرّخ أن يبدأ عمله مارًّا بمرحلة أولى أساسية وهي مرحلة ضبط تاريخية الأحداث المعنيّة بالأمر . ليس من المنهج العلمي في شيء أن يسرع المؤرّخ في تفسير وتحليل أحداثٍ صدر ذكرها في بعض المؤلفات القديمة ! فلا تفسير ولا تحليل لحدث إلاّ بعد ضبط « تاريخيته » . ذلك شرط أساسي بالنسبة للبحث العلمي مُطْلقاً .

لقد وقع العلماء في أخطاء لاتغتفر كلّما زهدوا في ضبط واقعية الحدث وتاريخيته ، ومن بين القصص الطريفة المتعلقة بالذين ينهالون على « الحدث » تفسيراً وتحليلا قبل النظر في حقيقته وضبط واقعيته وتاريخيته ، قصّة ذكرها أحد فلاسفة القرن الثامن عشر وتعرف بقصّة « السِنُّ الذهبيّة » : زعموا أنّ طفلا وُلِدَ وله سِن ذهبيّة . فبدا ذلك الأمر غريبا بل كأنّه من باب المعجزات.وسرعان ما انتشر الخبر في البلاد وبات العلماء يبحثون عن سرّ ذلك الحدث العجيب وألّفوا الرسائل الطويلة في ذلك دون أن يتساءلوا هل حقًّا وُلِدَ ذلك الطفل بسِنّهِ الذهبيّة . وهكذا بعد البحث والتنقيب والتخمينات والافتراضات والتفاسير العلمية لذلك الحدث الغريب العجيب ظهر أن لانصيب له من الصّحة بل كانت أسطورة من خلق الذين يهوون المزاح . فكان الندم نصيب الذين

أسرعوا وارتسوا على الحدث الغريب تفسيرا وتحليلا لما سخر منهم أصحاب العقل والمنطق السليم .

من ذلك نرى أنّه من العسير علينا نظريّاً تفسير رواية صلّوست المتعلقة بالأحداث التي سبقت كارثة تالة لأنّه من العسير علينا ضبط تاريخيتها . ولكن كيف العمل ؟ هل يكتفي المؤرّخ بسرد الرواية دون أي تعليق ؟ هناك زاويتان يمكن للمؤرّخ أن يختار إحداهما . وينظر للأشياء من خلالهما . فله أن يقول: إنّي لم أفلح في ضبط تاريخية هذا الحدث لسبب ما كفقر المصادر مثلا . وعليه أكتفي بذكر الرواية وأقف عند هذا الحدّ ولا أنتقل إلى مرحلة التفسير والتعليل مرحلة الوقوف على الأسباب والأهداف . تلك هي الزاوية الأولى ! فإن فعل المؤرّخ ذلك كان موقفه منطقيّاً يتحلّى بالنزاهة العلمية . على أنّه موقف لايخلو أحياناً من التحجّر والركود وقد لا يساعد على تقدّم العلم وإثراء المعرفة . وكثيراً ما يجد العالِم نفسه مجبوراً على السير قُدُماً وإن لم يكن محيطاً بكل ما قد يعترضه في طريقه وقد تفاجئه الأشياء وترغمه على العودة إلى الوراء . فالبحث العلمي يقتضي الدقّة والضبط ويقتضي الحذر والجرأة .

فبالنسبة لأحداث تالة لايستطيع المؤرّخ أن يثبت تاريخيتها كما لايستطيع أن يفنّدها . من ذلك ليس له أن يقف وقفة

ويعرض عن التفسير والتحليل نظراً للشك الذي يحيط «بتاريخية» الأحداث . فالنظر من هاته الزاوية الأولى قد لايجدي نفعا بل قد يكون عقبة في طريق الباحث تحول دونه ودون الوصول إلى الحقيقة التاريخية . وعليه إذن أن ينظر إليها من الزاوية الثانية ويكون ذلك بالانتقال إلى مرحلة التفسير والتحليل كما لو وقع ضبط تاريخية تلك الأحداث .

وإذا قبلنا هذا المبدأ بالنسبة للأحداث التي سبقت سقوط مدينة تالة بأيدي الرومان وتسنّى لنا الدخول في مرحلة التفسير والتحليل فما هو سرُّ تلك الأعمال الغريبة ؟ إنّ الحفْلَ الذي أقامه أعيان المدينة قبل الانتحار يذكّرنا بعض الطقوس والتقاليد الدينية المعروفة في شمال افريقيا ولعلّها طقوس وعقائد أخذها الأفارقة عن البونيقيين أهل قرطاج . أولئك الذين كانوا يتعاطون تقديم الضحايا البشرية لآلهتهم خاصّة عند المحن إيماناً منهم أنّ تلك الضحايا البشرية (95) تساعدهم على التكفير عن ذنوبهم حتّى تحوّل الآلهة أنظارها نحوهم وتعمل على إبعاد الكارثة التي حلّت بهم . فقد يكون ذلك هو معنى الأحداث التي

(95) تحدث المؤرخون طويلا عن الضحايا البشرية لدى الفنيقيين والبونيقيين انظر :
G. PICARD, *les religions de l'Afrique antique* Paris 1954. P. 28-55

أوردها صلّوست في منتهى الفقرة المتعلقة بسقوط تالة . كذلك نرى كيف تكتسي تفاصيل هاته الأحداث التي أوردها صلّوست عَرَضاً وعن غير فَهْمٍ قيمةً عظيمةً إذ تساعدنا على معرفة بعض التقاليد الدينية لدى الأفارقة وقد تساعدنا على ضبط مدى تأثير الديانة البونيقية في نفوس النوميديين .

سقطت إذن مدينة تالة وداستها الكتائب الرومانية واحترق قصر الملك . أمّا يوغرطة فقد توغّل في الصحراء واتصل بقبائل بني جدالة كما أسلفناه . وبنو جدالة بدو لايعرفون شيئاً عن الحضارة بل كانوا يجهلون عن الرومان حتّى الاسم . على كلٍّ فذلك ما يدّعيه صلّوست . لكن يوغرطة لم ييأس وجمع قبائل جدالة وأحاط أعيانهم علماً بظروفه التي يعيشها وهو أحد أشراف الأفارقة وملكهم . كما أحاطهم بالظروف التي تعيشها افريقية من جرّاء سيطرة الرومان وجبروتهم . لقد عرف يوغرطة كيف يخاطب بني جدالة فأحبّوه وامتثلوا لأوامره ولاشكّ أنّه لوّح لهم بالنصر والغنيمة حتّى تعلّقوا به فأخذ يدرّبهم على طرق القتال المنّظم وأصبحوا قادرين على السير صفّاً ملتفّين حول راياتهم ممتثلين إلى أوامر القيادة . وقصارى القول فقد اجتهد يوغرطة في تدريبهم حتّى أحسنوا كلّ ما تقتضيه الجندية .

٥ يوغـرطة وبكّوس ملك بني ماور :

ولم يكن عمل الملك النوميدي مقصوراً على تدريب بني جدالة وتجنيدهم بل اتصل أيضاً بملك موريطانيا وكان يدعى بُكُّوس «Bocchus» . اتّصل به عن طريق أعوانه ومستشاريه وقد أغدق عليهم العطايا واستهواهم بوعوده المغرية على حدّ قول صلّوست . فحملوا ملكهم على مدّ يد المساعدة ليوغرطة وذلك بإعلان الحرب على الرومان .

ومن العوامل التي يسّرت مهمّة يوغرطة في هذا الصدد أمران : أولهما أنّ بُكّوس كان قد عرض على الرومان في بداية هاته الحرب أن يتحالف معهم لكنّهم أعرضوا عنه ولم يعيروه أيّة قيمة . وعاد رسل بُكّوس إذ ذاك يجرّون أذيال الخيبة . ويعلّق المؤرّخ صلّوست على هذا الحدث بقوله : «كانت المفاوضات مع رسل بكّوس تتماشى ومصالحنا في تلك الحرب ولئن أخفقت فسبب ذلك يعود إلى خبث رجال على قلوبهم غشاوة حبّ المال . كانوا يتخذون كلّ شيء وسيلة لكسبه » .

أما الأمر الثاني الذي ربّما ساعد يوغرطة فهو أنّه قد تزوّج إحدى بنات بكّوس وقد تساعده الزوجية على تمتين الروابط ، على أنّ صلّوست يعلّق على ذلك بقوله : « إنّ روابط الزوجية لامتانة لها عند النوميديين ولا عند بني

فهذا يتزوّج بعشرة والآخر بأكثر من ذلك . أمّا الملوك فعدد الزوجات عندهم لايحصى . وبتعدّد الزوجات تزول المحبّة وتصبح المرأة محتقرةً لاقيمة لها في عين زوجها » .

ومهما يكن من أمر فلقد أبرم حِلْفٌ بين يوغرطة ملك النوميديين وبكّوس ملك بني ماور . وكانت ديار بني ماور توجد في أقصى غربي شمال افريقيا يحدّها نهر الملوية شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً . واتفق الملكان على توحيد سياستهما تجاه الرومان والوقوف جنبا لجنب أمام طغاة لا همّ لهم سوى السيطرة وبسط نفوذهم حتّى يصبحوا أرباب العالم بأسره . فلا يحترمون الصداقة ولايحترمون الجوار بل لايتردّدون في قلب ظهر المجنّ ونقض العهود . وهُمْ يحسبون كلّ من لايخضع لسلطانهم عدوّا لهم ويعملون جُهْدَهم للقضاء عليه .

كان يوغرطة يؤمن بذلك إيماناً قطعيّا حتّى أنّ صلّوست نسب إليه خطاباً جاء فيه : (96) « إنّ الرومان قومٌ ظالمون ، غاية في البخل وحبّ المال . يكنّون العداوة لبني الانسان عامّة . وحبّهم للسيطرة جعل منهم أعداء الممالك والدول .

96) فيما يتعلق بالخطاب الذي القاه يوغرطة اماه بكوس ملك بني ماور انظر : صلوست « حرب يوغرطة » الفقرة 81 .

نراهم اليوم يتهالكون على لما تهالكوا بالامس على قرطاج والملك برسي «Persée» (97) وسيظهرون عداوتهم بالغد لكلّ من له ثروة تهمّهم » . تلك هي فحوى الخطاب الذي نسبه صلّوست إلى يوغرطة .

ويبدو على ضوء هاته الكلمة الوجيزة التي ألقاها يوغرطة حسب صلّوست أمام الجيوش النوميدية والجيوش الماورية وبمحضر الملك بُكّوس نفسه أنّ السياسة النوميدية وقتئذٍ كانت على وعي كامل بالخطر الذي تنطوي عليه سياسة روما حيث ما انفكت تتوسّع وتكتسح أقطار البحر الأبيض المتوسّط . ولئن تهالكت على قرطاج حتّى أبادتها فذلك لا لأنّها قرطاج ولا لجريمة اقترفتها قرطاج بل لا لشيء سوى أنّ روما كانت تريد التسلّط على كامل أقطار البحر الأبيض المتوسّط ، وقد تشكّل قرطاج عقبة تعوق الرومان عن بلوغ ذلك الهدف الشيطاني . فقد اندلعت الحروب البونيقية ودامت ماينيف عن قرنٍ وما من سبب لها سوى طموح الرومان وحبّهم للسيطرة . هذه روما تتوق إلى استعمال العنف والتسلّط . وهذه قرطاج تدافع عن كيانها حتّى وقع الاصطدام وشبّت نار حربٍ ذهبت قرطاج ضحيّة لها . لأنّ « التاريخ » كان في

(97) برسي «Persée» آخر ملوك مقدونيا حكمها من سنة 178 إلى سنة 168 قبل المسيح تسلط الرومان على مملكته ومات اسيرا سنة 162 .

كانت شيطانية . كان « التاريخ » في صفوف الرومان أي
كانت روما إذ ذاك قوّة ناشئة خلاّقة في جميع الميادين .
وفيما يتعلّق بالنظم السياسية والإدارية خاصّة كانت لها
نظم ساعدتها على استيعاب كلّ عناصرها حتّى سبكتها في
وحدة قوميّة قويّة ليس لأحد أن ينال منها . وإذا أصابتها
بعض الكوارث كنت ترى الزمن يعمل في صالحها لمالها من
طول نفس وقدرة على تنظيم أعمالها وتخطيطها .

هل شعر يوغرطة بكلّ ذلك ؟ لست أدري ! غير أنّه
وقف على كنه السياسة الرومانية تجاه أقطار البحر الأبيض
المتوسّط . تلك السياسة التي تستهدف وضع كل هاته الأقطار
تحت ربقة العبودية حتّى تصبح روما ملكة تسوس العالم
وتستثمره حسب مشيئتها .

ولئن أوضح يوغرطة خفايا السياسة الرومانية أمام
ملك بني ماور وأمرائهم فذلك سعيا في توعيتهم وتبصيرهم
حتّى لايفكّروا في التعاون مع الرومان ولو اقتصر ذلك التعاون
على عدم الدخول في الحرب ضدّهم . لفت يوغرطة إذن
نظر بكّوس وذويه نحو خطر الرومان وناشدهم الوقوف
إلى جانبه ومؤازرته ضدّ العدوان .

وبعد الخطب والمناقشات عقد الملك العزم على خوض

الحرب والزحف على مدينة سيرته حيث وضع القائد الروماني
متلّوس الغنائم والأسرى وكلّ مالديه من أثاث وعدّة .
وكان يوغرطة قد رسم خطوط هاته العملية سعيا وراء أحد
الهدفين التاليين : سقوط المدينة واستيلاء الجيوش النوميدية
الماورية على ما تحتويه، ممّا يضعف العدوّ ويشجّع الأفارقة .
ذلك هو الهدف الأول . وفيما إذا أسرع متلّوس لحماية
المدينة فنار الحرب تشبّ وتكون المعركة ويشارك
فيها بكّوس «Bocchus» وبإسهامه في المعركة يصبح
من العسير عليه الدخول في مفاوضات ثنائية مع الرومان .
وذلك هو الهدف الثاني الذي كان يرمي إليه يوغرطة بهجومه
على مدينة سيرتة . لأنّ الملك النوميدي كان يخشى أن يغيّر
بكّوس موقفه تجاه الخصمين وأن يؤثر الحلول السلمية على
الحرب .

ولمّا أحيط القائد الروماني علماً بالحلف النوميدي الماوري
أحجم عن خوض المعركة رائده التعرّف على طرق بني
ماور في القتال ممّا قد يساعده ويجعله يسيطر على الوضع
ويمكّنه من توجيه المعارك واستغلال مواطن الضعف لدى خصمه
الجديد . من ذلك رأى من الصالح أن يترقّب عدوّه في معسكر
حصين أقامه قرب مدينة سيرتة.وفي أثناء ذلك اتّصل القائد
متلّوس برسالة تنبئه أنّ القيادة بولاية نوميديا أسندت إلى

• مـــاريـــوس :

إنّ ماريوس رجل منحدر من طبقة شعبية لكنّه كان ينتمي إلى عائلة ثريّة ممّا ساعده على الاحتكاك بالأشراف بل وتزوّج بفتاة نبيلة حتّى أصبحت له روابط متينة تربطه بالعائلات الشريفة الوجيهة. وذلك أمرٌ ضروري لمن أراد النجاح في سلك السياسة. دخل إذن ماريوس صفوف الجيش وتسلّق سلّم القيادة حتّى اكتسب خبرة وعرف بين الناس ممّا جعله يطمح إلى أسمى الوظائف السياسية العسكرية وقد أقبل إلى افريقية سنة 109 قبل الميلاد صحبة القنصل متلّوس كما ذكرنا منذ حين. وقد اتّخذه مساعداً له لما عرف به من شجاعة ومواهب عسكرية. ولا شك أنّ ماريوس لعب دوراً هامّاً خلال المعارك التي دارت بين يوغرطة والجيوش الرومانية. حيث برزت كفاءته للجميع ونال من الشهرة ما جعله يفكّرُ في القنصلية. وفي شتاء سنة 108 طلب فعلا من قائده متلّوس أن يسمح له بمغادرة المعسكر الافريقي حتّى يتمكّن من الالتحاق بروما والترشّح للقنصلية. غير أنّ متلّوس قابله بشيءٍ من السخرية وأشعره أن لافائدة في المخاطرة والحال أنّ هزيمته أمر ثابت لاشكّ فيه. وما كان

رجل بسيط ينتمي إلى طبقة شعبية لاوزن لها في الحقل السياسي!

كان إذن متلوس يناشد مُساعده ماريوس التخلّي عن طموحه مشيراً أن لا أمل له في القنصلية لكن ماريوس بقي ثابتاً لم تتزحزح عزيمته بل كان لايتردّد في إعادة طلبه كل يوم حتّى ضاق صبر القائد فأجابه ذات يوم بسخرية لاذعة. « رويداً يا ماريوس! لك من الوقت كفاية وأنت تعلم أنّ لاسبيل لك في القنصلية ما لم يترشّح لها ابني ». وكان ابن متلّوس إذ ذاك شابّاً لايتجاوزعمره العشرين. ففي كلام متلوس تهكّم واضح إذ يطلب من ماريوس أن يترقّب ربع قرن قبل تقديم ترشّحه للقنصلية وعندها يكون ماريوس شيخاً عاجزاً.

وتأثّر ماريوس من ذلك التهكّم شديد التأثر وكانت كلمات قائده رماحاً مزّقته وأصابت منه قلبه. على أنّه لم يتخلّ عن مشروعه وأبى إلاّ أن يتابع مسيرته نحو القنصلية وبات لايتردّد أمام الطرق الملتوية كما لايتردّد في الدسّ لمتلوس نفسه. من ذلك قوله إنّ القائد يريد تماديد الحرب بإفريقية حتّى يتمتّع ما أمكنه بالقيادة وكان ماريوس يعمل أيضاً على ترويج أقوال وأخبارٍ تسيء إلى سمعة متلّوس. وهكذا توتّرت العلاقات بين القائد ومساعده وزالت الصداقة وزالت الثقة

وهي ظروف تحول دون التعاون المثمر والإيجابية . وفي النهاية كانت الغلبة لماريوس حيث عاد إلى روما وترشّح وفاز بإكليل النجاح . وأناطت الجماهير الشعبية بعهدته « حرب يوغرطة » ومعنى ذلك أنّ ماريوس أصبح مكلّفاً بهاته الحرب إلى أن يكون الحلّ الكامل النهائي . أسندت إليه قيادة الجيش الروماني بإفريقية . وليس ذلك من العوامل المشجّعة لمتلّوس . بل تأسّف لها شديد الأسف . (98)

ولما كان من واجبه أن يترقّب خَلَفَهُ على رأس الجيش وأيقن أنّه ليس من صالحه أن يخوض أخطار حرب قد لاتجديه نفعا وقد تكون في صالح رجل كنود رأى من الأجدى أن تتّصل ببكّوس «Bocchus» ملك بني ماور ويناشده ألا يشارك يوغرطة في حرب خاسرة تدفعه لامحالة إلى المهلكة . ويبدو أنّه أشار عليه بطريقة خفية ملتوية أن يحالف الجيوش الرومانية ويساعدهم على إنهاء الحرب بتسليم يوغرطة .

وكان متلّوس يرغب أن تُعطِي هاته الاتّصالات أكلها قبيل وصول ماريوس . إذْ بنجاحها يتمكّن متلّوس من القبض على يوغرطة وبذلك تضع الحرب أوزارها وتنتهي مهمة ماريوس قبل شروعه فيها . إلاّ أنّ بُكّوس تكلّف

(98) فيما يتعلق بالرسالة التي تتضمن اعلام متلوس بانتخاب ماريوس قنصلا انظر : صلوست « معركة يوغرطة » الفقرة : 82 .

عدم فهم ما كان يرغبه منه القائد الروماني واكتفى بالإعراب عن حبّه للسلم وعن عطفه على يوغرطة وأضاف أنّ الاتّفاق يكون أيسر إذا ما شمل يوغرطة وقبل الرومان مبدأ الاعتراف به والتعاون معه عن طريق التفاوض . وكان ما طالب به بكّوس من الأمور التي تأبى السياسة الرومانية حتّى النظر فيها .

فشل إذن متلّوس لكنّه بقي باتّصال مع ملك بني ماور حتّى أقبل ماريوس وتقلّد شعار القيادة . وعاد متلّوس إلى روما حيث أقيم له حفل بهيج تقديراً لما قام به في افريقية على رأس الجيش الروماني وأسندوا إليه لقب « النوميدي » ذكرى للانتصارات التّي سجّلها في الديّار النوميدية .

الباب التاسع

يوغرطة وماريوس

* القنصـــل ماريــوس :

عاد ماريوس إلى افريقية في ربيع سنة 107 قبل الميلاد مُقَلَّداً شعار القيادة (99). وما كان متلّوس ليرتاح لِتِلْكَ الظروف الجديدة القاسية . فأبى مقابلته بل كلّف أعضاده ليتّصلوا به ويسلّموه قيادة الجيش .

وما إن ألقت سفن ماريوس حبالها بمياه مدينة أوتيك «Utique» حتّى توجّه القائد إلى مدينة سيرتة حيث تعسكر الجيوش الرومانية وثمّة سلّمه« Rutilius» روتليوس قيادة الجيش . كان ذلك حسب قول المؤرّخ الفرنسي ستيفان اقزال «Stéphane Gsell» في متوفى ربيع سنة 107 .

(99) اقبل ماريوس إلى سيرته وتسلم مهام القيادة سنة 107 قبل المسيح . انظر :
STÉPHANE GSELL, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. VII P. 227.

معه وحدات عسكرية سهر على تجنيدها بمقتضى مقاييس جديدة (100) على حدّ قول صلّوست حيث يقول في الفقرة السادسة والثمانين من كتابه « حرب يوغرطة » « كان ماريوس يسهر بنفسه على عمليات التجنيد وكان يصطفي جنوده لاحسب التقاليد المألوفة ولا حسب الطبقات الاجتماعية بل كان يجنّد كلّ المتطوّعين وكان جلّهم من الفقراء الذين لايؤدّون الخدمة العسكرية . وبعضهم يرى أنّه لجأ إلى تجنيد المتطوّعين لعدم وجود من قد تتوفّر فيه شروط الجندية وبعضهم يرى أنّ ماريوس قَبِل المعوزين في صفوف الجيش تغذية لطموحه . ذلك أنّ صيتَه وارتقاءه أسمى درجات القيادة يعود الفضل فيه إلى هاته الطبقات الشعبية . ومن كان يتوق إلى السلطان فلا شك أنّه واجد أحسن أتباعه وأنصاره بين الذين يعيشون في مهد الفاقة . ففقرهم يجعل منهم أناساً لايحترمون شيئاً وكل ما يفيدهم ويعود عليهم بالنفع حلال لديهم » .

ويرى ستيفان اقزال أنّه في صالح ماريوس تجنيد المتطوّعين الفقراء ذلك أنّ الطبقات المحظوظة لاتفكّر في

(100) ادخل ماريوس تحويرات على نظام الجيش انظر : المصدر نفسه ص. 227 ـ 229

في [illegible] وليست الحرب من العوامل الدافعة إلى الراحة والطمأنينة . ترى المحظوظ من الرومان يقاتل و فكرة العودة إلى منزله وعائلته وضيعته ترافقه دوماً حيث كان في المعسكر وفي ساحة القتال . وليس ذلك مِمّا قد يساعد على الصبر والصمود ويشجّع على المثابرة وطول النفس . أمّا الفقراء فالحرب عندهم ظروف قد تساعدهم على الكسب والقضاء على فقرهم . مِمّا يجعلهم يقاتلون بحزم ويسعون جهدهم وراء النصر . وبالنصر تكون الغنيمة وبالغنيمة قد يتحوّل فقرهم غنى . ولا شكّ أنّ ماريوس فكّر مليّاً في كلّ هاته العوامل النفسانية المكنّة لأسباب النصر في هاته الحرب الافريقية العسيرة . وأيقن القائد الجديد أنّ التوفيق في هاته المعركة رهين الحزم والطموح والامتثال وهي شروط إن لم تتوفّر في الجيش لافائدة في خوض المعمعة وقد تطول العمليات العسكرية وتتعدّد بلا جدوى .

ولم يكتف ماريوس بالتجديد في طرق التجنيد بل أدخل أيضا تحسينات على نظام الوحدات العسكرية . فقد رفع عدد الجنود في الفرقة حيث أصبحت تعدّ 6200 جندي بعدما كان عددها لايفوق 4200 . واستنبط ماريوس وسيلة تُيَسّرُ على الجندي حمل أثاثه عند السير . وكان ذلك في ضمّ أثاث الجندي من مأكل وملبس وفراش حزمة واحدة تحمل بواسطة

[illegible] . إنها وسيلة بسيطة في حد ذاتها وقد تلقّاها بعضهم بالضحك بل أطلقوا على جنود القائد اسم : « بغال ماريوس » . وسيلة بسيطة في حدّ ذاتها لكنّها ساهمت مساهمة فعّالة في تخفيف عبء الجنود عند السير . ممّا جعلهم يتحوّلون من مكان إلى غيره بأكثر سرعة إذن وبأكثر فاعلية . والمعلوم أنّ قدرة يوغرطة كامنة في قدرته على الحركة السريعة . بحيث ليس في إمكان عدوّه أن يعرف مكانه بالضبط . وإن عرفه فلا يستطيع الالتحاق به لجهله للمسالك القصيرة ولتفوّق يوغرطة في سرعة التحرّك . ولقد فكّر ماريوس في هاته الوضعية حتّى وفّق إلى وسيلة تخفّف العبء دون تنقيص في الكمّية .

ولمّا كان على أهبة أخذ ماريوس يتقدّم على رأس جيشه عبر أرض خصبة ثرية وجد الجند فيها غنيمة وافرةً فازداد طموحهم وصقل عزمهم سيما وقد تركت القيادة الغنيمة كلّها للجنود . واقتصرت على توجيه ضرباتها نحو حصون وقلاع يسير فتحها إمّا لضعف موقعها أو لفقرها لحاميات تصُدُّ عنها الخطر . أجل لقد اشتبكت الجيوش الرومانية بعدوّها وحملت على عدّة مراكز نوميدية لكنّها اشتباكات طفيفة لم تسفر عن خسائر فادحة ولا عن نتيجة إيجابية مَلْمُوسة . على أنّها كانت فرصاً سانحة مكّنت جنود

ماريوس وهم حديثو عهد بالحياة العسكرية من التدرّب على يقظة دائمة قد تتسبّب في توتير الأعصاب . واعتادوها حياةً فيها الكرّ وفيها الفرّ . فيها الغنيمة وفيها الخطر . وأيقنوا أنّ الحصانة في الشجاعة وأن السيوف حماة الحريّة والوطن والعائلة وفي المواضي العزّة والثراء .

أمّا يوغرطة وحليفه بكّوس ملك بني ماور فما إن أحيطا علما برجوع ماريوس كقائد أعلى للجيوش الرومانية المعسكرة بإفريقية حتّى تفرقّا واتجه كلاهما إلى ربوع ولوجها عسير . وكانت الخطّة من تدبير يوغرطة . أملُه أن يتفرّق الجيش الروماني في البلاد ممّا قد ييسّر أعمال القيادة النوميدية للقضاء على عدوّ تمطّطت صفوفه وعملت فيه الطمأنينة حتّى فترت يقظته . لكنّ ماريوس لم يتنحَّ لحظةً واحدةً عن مراقبة جيشه وتدريبه وتغذية شعوره بالخطر المحدق به كما كان يتتبّع تحركات عدوّه . هَمُّهُ الوقوف على حبائل قد ينصبها يوغرطة أو حليفة بُكُّوسُ في طريق الجيش الروماني . كما كان يحاول درس مواطن الضعف والقوّة في الجيوش النوميدية الماورية وكانت أعماله وأقواله تستهدف يقظة جيوشه وترهيب جيش العدوّ .

كان يوغرطة قد جنّد وحدات من قبائل جدالة ودرّبها على القتال المنظّم وكان يقودها إلى الأراضي الافريقية المناصرة

الجيوش الرومانية . ويبدو على قول صلّوست أنّ ماريوس قد أجْبرَ أكثر من مرّة جيش يوغرطة على التراجع ومغادرة تلك الأراضي . بل وأجبره يوماً حسب قول المؤرّخ نفسه على إلقاء سلاحه أرضاً قرب مدينة سيرتة «Cirta» . كان المنهزم في العصور الغابرة يتخلّص من سلاحه إذا رام الفرار بأكثر سرعة .

كان الوضع إذاً تحت سيطرة ماريوس . على أنّه أيقن أن لافائدة في اشتباكات طفيفة لاتمَسُّ من شوكة العدوّ ولا تضع حدًّا للحرب وهو الهدف الذي أتى من أجله إلى افريقية . من ذلك صَمّم على توجيه حملاته نحو المدن والمراكز الحصينة من حيث موقعها ومن حيث الحاميات التي تَسْهَرُ على مناعتها . تلك المراكز التي تعزّز موقف العدوّ وتشكّل خطرا على الرومان .

على أنّ الملك النوميدي كان يأبى الدخول في حرب منظمّة سريعة علماً منه بتفوّق الجيش الروماني فكان يترقّب أن يعمل الزمن لصالحه : إنّ تمطيط العمليات العسكرية وبطئها يبثّ القلق في نفوس الرومان فتتدهور معنوياتهم وينحَلُّ نظامهم ويضعفون وعندها تقابهم سيوف الأفارقة .

إلاّ أن القائد ماريوس أبى تلك الظروف الخطيرة وعمل على تحويلها . من ذلك عزمه على تسديد ضرباته

صوب المدن والمراكز التي يستمد منها جيش يوغرطة قوة . فإمّا أن تسقط تحت يد الرومان وإمّا أن يدافع عنها يوغرطة . فيكون مجبوراً على القتال والالتحام بالجيش الروماني في وقائع حاسمة .

• معركة قفصة : (101)

وكانت قفصة من المدن العظيمة التي يرتكز عليها ملك النوميديين . عظم شأنها منذ القديم وذلك لأنّها توجد في ملتقى طرقات طبيعية . ووفرة مياه العيون فيها جعلت سكانها يتكاثرون سيما والربوع التي تحيط بها صحراء لانبات فيها . وبمياه العيون نشأت واحة وفي الواحة شيّد صرح المدينة.وحصانتها في الصحراء التي تحيط بها وفي السور المنيع الذي يحتضنها ويرعاها من شرّ الزاحفين . وتحدّث المؤرّخ الروماني صلوست عن مدينة قفصة في الفقرة التاسعة والثمانين من كتابه الآنف الذكر قال : توجد مدينة قفصة وسط صحاري شاسعة وهي من العظمة والشهرة بمكان . وجاء في الرواية أنّها من تأسيس إله افريقي أطلق عليه القدماء من يونان ورومان اسم هرقل . وكان سكانها محظوظين . من ذلك أنّهم كانوا لايدفعون الضرائب . وكانت

(101) قفصة وكانت تحمل اسم « قبصة » لدينا وثائق اثرية وادبية تثبت قيمتها منذ اقدم العصور . ويرى بعض المؤرخين القدامى انها من تاسيس الاله هرقل . فيما يتعلق بآثار هاته المدينة العتيقة انظر : CHARLES SAUMAGNE , in *Cahiers de Tunisie* 1962 P. 519 Sq.

شؤونهم تدار برفق ومرونة الامر الذي جعلهم يتعلقون بيوغرطة ويخلصون إليه .

وكانت المدينة محصّنة لها جدران منيعة تحول دونها والعدوّ . ويرابط بها جنود" لهم من الذخيرة والعتاد ما يجعل منهم قوّة" جبّارة". وممّا يساعد المدينة على المناعة والصمود تجدر الإشارة إلى العقبات الجغرافية والطبيعية بصفة عامة : منها الصحاري المترامية الأطراف ، ومنها عدم وجود المياه ، ووفرة الأفاعي وضراؤها يتضاعف في الربوع الصحراوية شأن كلّ الحيوانات الوحشية وتزداد الأفاعي شراسة" إذا طغى عليها العطش وأخذ منها مأخذه .

ما كان ماريوس ليجهل كلّ هاته العقبات بل يرجّح أنّها كانت من العوامل التي دفعته نحو هذا الاختيار . فلا شكّ أنّ جيشه في حاجة إلى انتصار باهر يسترجع الثقة بالنفس ويقوّي العزيمة . إنّها عملية شاقة بدون ريب لكنّها رابحة بالنسبة لسمعة القائد بين جيوشه وفي روما نفسها . والقائد العسكري شأنه شأن البطل الرياضي تراه دائما في حاجة إلى انتصارات باهرة يغذّي بها العواطف التي يكنّها له أنصاره وأتباعه والمولعون به .

ويبدو أنّ ماريوس قد اقتدى بمتلّوس إذ كانت نتائج معركة تالة باهرة نال منها إذ ذاك متلّوس عزّة وذاع صيتُه في

صلّوست أنّ العقبات التي تعترض الزاحف على مدينة قفصة ليست دون التي تعرّض إليها متلّوس أيام زحفه على تالة . ويثبت أن لافرق بين المدينتين من حيث إمكانيتهما الدفاعية . على أنّ منطقة مدينة قفصة أفقر ماء إذ ليس بها سوى عين تجري وسط المدينة نفسها . فالعطش إذن يهدّدُ كلّ من يروم الزحف عليها ، ويضيف المؤرّخ الروماني صلّوست أنّ الأفارقة قادرون على العيش في المناطق الفقيرة ماءً لأنّهم يقتاتون صيداً ولبناً دون استعمال ملح أو غيره من منشطات الشاهية . إنّهم يتّخذون الأغذية كوسيلة تساعدهم على صدّ الجوع والعطش وليست لديهم أداة متعة وترف .

لايخفى علينا أنّ صلّوست كان ثائراً على انغماس معاصريه في المتعة والترف . ففي حديثه حول قناعة الأفارقة وبساطة العيش عندهم تحدّ لأثرياء روما بل كان يريد به التشهير بالحالة التي أصبح عليها المجتمع الروماني .

على كلٍّ فالمسيرة نحو مدينة قفصة شاقة تحيط بها صعوبات كثيرة سيما وفصل الصيف على وشك الرحيل.نظر ماريوس لكل ذلك بعين الاعتبار وقدّر العقبات حقّ قدرها خاصّة وقد أصبح الجيش الروماني مهدّداً بالمجاعة نتيجة أمر أصدره يوغرطة والقاضي بحصد القموح ووضعها في حصون

حتى تكون في مأمن وتصبح القيادة الرومانية عاجزة عن تزويد جيشها بالمؤونة . ودرس القائد الروماني الوضعية الخطيرة لكنّه لم يعدل عمّا رسمه لأنّ الحالة تستوجب العمل مهما كانت العقبات ومهما كان الخطر . وكثيراً ما تسيطر الظروف على القائد سياسياً كان أو عسكرياً وتجبره على العمل دون مبالاة بالثمن والتضحية مادية كانت أو بشرية . وقد أدهشت جرأة ماريوس معاصريه كما أدهشت المؤرّخين القدامى حتّى أنّ صلّوست يعتقد أنّه (أي ماريوس) سلّم أمره إلى الآلهة طالباً منها أن تساعده على تذليل تلك العقبات لأنّها فوق طاقة الحِكْمَةِ البشَرِيةِ ..

على أنّ ماريوس قد عمل وسعه لتنظيم المسيرة وإعداد العدّة لها فأمر الخيالة المساعدة أن تتقدّم ومعها كلّ الحيوانات التي وقع القبض عليها خلال الأيام الأخيرة وأمر مُسَاعده منيلوس «Manlius» أن يتجّه صحبة المشاة نحو مدينة لَربس (Lares) الواقعة جنوب الكاف لاتفْصلها عنها إلاّ أميال قليلة وكانت لربس (وهي مدينة لربس الحالية) مركزاً وضع فيه ماريوس أجور الجنود والمؤونة . وأعلن أنّه سوف يلتحق بمنليوس بعد بضعة أيّام . لكنّه في الحقيقة توجّه نحو نهر كان يعرف باسم التنايس (Tanaïs)

والمعروف اليوم باسم واد الدرب يجري على بعد مائة كلم من مدينة قفصة .

ولم يذكر صلّوست الطريق التي توخّاها ماريوس بجيشه نحو مدينة قفصة أمّا استيفان اقزال فذكر أنّه كان على بعد 250 كلم تقريباً من قفصة بالمنطقة الكائنة بين مدينتي سيرتة والكاف . وعوض أن يتّجه إلى مدينة لربس كما أعلنه على رأس الملأ أخذ طريقاً جنوبية شرقية وبلغ نهر التنايس بعد مسيرة دامت ستة أيّام . والمعلوم أنّ هذا النهر من الأنهار التي تجري مياهها طيلة السنة . ويرجّح أنّ ماريوس أتاه ليتزوّد جيشه ماء .

وكان القائد خلال السير نحو نهر التنايس يأمر يومياً بمنح الجنود عدداً من الحيوانات يأكلون لحومها . أما الجلود فيحتفظون بها ويصنعون منها قرباً تستخدم لحمل الماء . وكانت عملية ناجعة إذ بوصول الركب إلى نهر التنايس كانت قرب عديدة جاهزة فملؤوها ماء وهي أحسن ذخيرة لجيش يجوب صحراء قاحلة .

أقام ماريوس معسكره على ضفّة ذلك النهر ولمّا أرخى الليل سدوله أمر بالمسير ثم حطّ الجيش ركابه في النهار واختفى وراء المرتفعات ليواصل سيره ليلا تحت طيّ الخفاء . وفي الليلة الثالثة أدرك الجيش الروماني هضبة لاتبعد عن مدينة قفصة

إلا ميلين فاختفى وراءها يترقب فرصة سانحة . ومن حسن
حظّ القيادة الرومانية أنّ المسيرة بقيت مجهولة لدى السلطات
بمدينة قفصة ولمّا تنفّس فجر اليوم التالي خرج جمع من
سكان المدينة لقضاء حاجياتهم مطمئنين إذ لاعلم لهم بخطر
يهدّدهم بل على وشك الإطاحة بهم . وعندها أمر القائد
ماريوس بالحمل على المدينة والتسلّط على أبوابها . أمّا سكّانها
فقد تخلل الرعب قلوبهم سيما وقد شاهدوا مُوَاطنيهم
أولئك الذين غادروا منازلهم صباحاً تحت قبضة العدوّ . فما
بقي لهم إذن إلاّ الإستسلام . على أنّ ماريوس أبى إلاّ أن
يضرم النار في المدينة ويقتّل كل الذين كانوا في سنّ حمل
السلاح وأسَرَ الآخرون وتمّ بيعهم عبيداً واقتسم الجنود
الغنيمة .

ولئن أمر ماريوس بإضرام النار في قفصة بعد نهبها
وتقتيل سكانها فذلك لأنّه لافائدة في وجودها بالنسبة
للقوات الرومانية بل قد تثقل كاهل القيادة إذا ما أرادت استبقاءها .
والقضاء عليها حرقاً أمرٌ يدخل خللاً على قوة العدوّ وينال
من هيبة يوغرطة وينال من تأثيره على القبائل الافريقية
وكان ماريوس يريد أن تكون فاجعة قفصة بالنسبة للأفارقة
كالصاعقة التي تنزل بقوم فتؤول بهم إلى الهلاك . ورأينا أنّه
عامل سكان المدينة بأشدّ ماتكون القساوة . قتّل الكهول

والشبان القادرين على حمل السلاح وأسر النساء والأطفال وشتّت
شملهم بيعاً في أسواق العبيد . وكان قصده من ذلك إدخال الرعب
في القلوب وإظهار الجيش الروماني في مظهر القوّة الهائلة
حتّى يكون في أعين الأفارقة كالقوّة الإلهية التي لاتبقي ولاتذر.
ومن تجاهل تلك القوة ولم يقدّرها حقّ قدرها كان مصيره
الهلاك والدّمار .

تلك هي الحرب النفسانية التي كان يريدها ماريوس
من وراء القساوة التي عامل بها مدينة قفصة ويبدو على قول
المؤرّخ ستيفان اقزال أنّه أدرك الأهداف التي رسمها إذ خيّم
الرعب على الديار الإفريقية وازداد الجيش الروماني تعلّقاً بقائده
المظفّر « ماريوس » ذلك الذي أصبح اسمه يرنّ في روما
نفسها . وازداد حُبّ الجنود لقائدهم سيما وقد أمر بتوزيع
الغنيمة عليهم .

على أنّ قساوة ماريوس تجاه مدينة قفصة وسكانها
أثارت بعض القلق في روما وأعربت بعض الأوساط الرومانية
عن استيائها من ذلك الحدث الخطير . وذلك لأسباب متباينة .
فلا شك أنّ منهم من كان يؤمن بالقيم البشرية ويأبى الركون
إلى القوّة والعنف . ومن الرومان من عاب على ماريوس قساوته
لأنّهم كانوا يؤمنون بأن لاخير يرجى من القوة والعنف طال

الزمان أو قصر . إذ بالعنف والتعسّف تكون المآسي والدموع وبالدموع تتغذّى الأحقاد .

وممّا يثبت القلق الذي أثارته قساوة ماريوس في الأوساط الرومانية تعاليق أوردها صلّوست حيث يؤكّدُ في الفقرة الواحدة والتسعين من كتابه أنّ القائد لم يقم بتلك الأعمال التعسّفية من باب الإفراط في حُبِّ المال ولا من باب القساوة المجانيّة بل فعل ذلك لأنّ مدينة قفصة كانت من المراكز الأساسية ليوغرطة ولأنّه لاخير يرجى من سكّانها وهم كسائر الأفارقة مفطورون على التقلّب والخديعة . لاقيمة للترهيب لديهم ولا للترغيب . ذلك ما يدّعيه صلّوست ولا يخفى علينا ما لهذه التفاسير والأحكام من سذاجة صبيانية لايرتاح لها المنطق السليم . بل هي تفاسير نشأت عن ذلك القلق والاستياء الناتج عن الجرائم الفظيعة التي ارتكبتها الجيوش الرومانية تحت قيادة ماريوس . وليس من الغريب أن يستغلّ أعداء ماريوس في الأوساط الرومانية تلك الأحداث لتشويه قيمته وتفتير القوّة التي قذفت نجمه إلى كبد السماء .

على أنّ صلّوست أثبت أن القائد ماريوس قد ازداد عزّةً عقب تلك المأثرة حتّى أصبح كلّ شيء يعود الفضل فيه إلى حذقه وشجاعته وأصبح جنوده متعلّقين به وهو القائد الذي يسعى إلى إثرائهم. وشاع صيت ماريوس بين الحلفاء

والأعداء وباتوا جميعاً يعتقدون أنّه باتصال مع الآلهة وهي توحي إليه بأنجع الخطط وذلك في رأيهم هو سِرّ نجاح القيادة الرومانية .

إنّه من الممكن الوثوق بتاريخية تلك الأحداث ونتائجها ولايعارض المؤرّخون صلّوست في ذلك الأمر . ويبدو على ضوئها أنّ القائد ماريوس كان من الذين يؤمنون بالمبدإ القائل « الهدف يبرّر الأسلوب » . انتصر إذن ماريوس واقترف ما اقترفه جيشه من جرائم وفظائع . ثم أمر بإقامة معسكر الشتاء لكنّنا نجهل المكان الذي عسكر فيه الجيش الروماني . على أنّ صلّوست لم يذكر من ذلك شيئاً بل أثبت أنّه تابع فتوحاته بيسْرٍ تام ، فتوحات لم تكلّف الجيش الروماني نفساً واحدةً ، وكان يتقدّم كالنهر الجارف لايترك شيئاً في طريقه . وتواصلت المسيرة حتّى أدركوا نهر الملوية بالشمال الشرقي من البلاد المغربية الشقيقة وهي منطقة بعيدة عن الربوع الإفريقية التي عرفتها الجيوش الرومانية وقاتلت فيها . وكان نهر الملوية يجسّم الحدود الفاصلة بين مملكة يوغرطة وبين مملكة حليفه بُكّوس .

وكان على مقربة من نهر الملوية جبل وعر المنحدر يشرف على السهول المجاورة كالجدار الشاهق . وكان على قمّة ذلك الجبل قلعة منيعة . لايمكن البلوغ إليها إلاّ

ـن طريق ضيق يسير المراقبة عسير السلوك . وفي القلعة أودع
يوغرطة أمواله لتكون في مأمن .

• قلعـــة نهر الملوية : (102)

كان ماريوس يفكّر في أنجع الطرق ليتسلّط على القلعة وعلى أموال الملك النوميدي . إنّ القلعة منيعة" بموقعها الخطير كما ذكرنا وبالرجال الذين كانوا يرابضون على حراستها وقد زوّدهم يوغرطة بالأسلحة والمؤونة وكان قرب الحصن عين جارية كذلك كان لجنود القلعة ما يساعدهم على الصمود زمنا طويلا دون أن يحدق بهم خطر الجوع والعطش .

أمّا بالنسبة للعدوّ فالعقبات جسيمة إذ هي قلعة ليس في الامكان ضرب الحصار عليها نظراً لتشعّب تضاريس المكان والطريق التي تؤدي إلى القلعة ضيّقة بها هُوًى عميقة مريعة وكلّما حاول العدوّ تسلّق ذلك الجبل قابله جنود القلعة بوابل من القذائف والنار . كذلك قتل كلّ الذين حاولوا التصدّي بجسارة إلى جنود القلعة وذهبت أيّام" وعقبتها أخرى والجيش الروماني يتكبّد الخسائر الفادحة في الرجال والعتاد . حتّى

(102) فيما يتعلق بنهر الملوية انظر :

STÉPHANE GSELL. *Histoire ancienne Afrique du Nord* T. V. P. 91 - 93.

أشرف ماريوس على القنوط وبات يتساءل هل ينبغي أن يتقلّص ويترك القلعة النوميدية وشأنها أم ترى يواصل أعماله ويترقّب الأقدار علّها تمدّ له يد المساعدة . وهكذا أصبح ماريوس يعوّل على الحظّ لاعلى الحكمة والحذق .

كانت تلك الأسئلة تخامره وتجرُّ خلفها تخوّفات أقضّت مضجع القائد حتّى بات يتأرجح بين الأمل واليأس شأن الكرة التي تتقاذفها الأقدام عن غير رويّة . كان يتأرجح بين الأمل واليأس دون أن تمدّه حنكته أوعبقريته العسكرية بما قد ييسّر له طرق التوفيق ولعلّه كان يفكّر في العودة جارًّا أذيال الخيبة فإذا بصبح النجاح يتنفّس على يد جنديّ ليغوريّ (نسبة إلى ليغوريا وهي منطقة توجد شمال إيطاليا على سواحل خليج جنوةّ) . وكان ذلك الجندي البسيط ينتمي إلى إحدى الفرق المساعـدة .

خرج الجندي الليغوري يوماً من المعسكر يَرِدُ فإذا بقطيع من الحلزون يتسلّق ظهر الجبل ببطء وطمأنينة وإذا بالجندي الليغوري يلتقطها الواحدة تلوى الأخرى ولعلّه كان يلتقطها ويفكّر في الأكلة اللذيذة التي ستداعبه بريحها وطعمها بعد حين . وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشعوب القديمة القاطنة بشبه جزيرة إيطاليا كانت تأكل الحلزون كما يثبته هذا الحدث البسيط الوارد عن المؤرّخ صلّوست والمعلوم أنّ

الإنسان أقبل على أكل الحلزون الأرضية منذ عصور ماقبل التاريخ . وأكبر شاهد على ذلك أكوام من أصداف الحلزون توجد قرب مدينة قفصة وهي من بقايا شعوب سكنت تلك المنطقة في عصور غابرة تقدر بآلاف السنين قبل المسيح .

ولكن فلنعد إلى الجندي الليغوري ولنطّلع على قصّته الطريفة . تركناه إذن يحبو وراء الحلزون يلتقطها منهمكا في عمله لايفكّر في شيء سوى الأكلة الشهيّة وقد أنسته المهمّة التي خرج من أجلها كما أنسته قذائف العدوّ وقد تلقي به في الهاوية . كذلك تسلّق ظهر الجبل حتّى دنا من القمّة . وعند ذلك عادت إليه يقظته فتفرّس في المكان فإذا به قفر لا حركة فيه تنبيء بوجود خطر الإنسان . ثمّ نشأت في نفس الجندي الليغوري رغبة القيام بمأثرة عسكرية . وترك الحلزون لأمر آخر ذي شأن . نظر الجنديّ حوله إذن فلاحظ أنّه قريب من القمّة الحاملة للقلعة المنيعة لكنّ الصعود إليها ما انفكّ عسيراً . على أنّ شجرة بلّوط كانت قربه وقد انحنى جذعها عند نشأته ثم اعتلى حتّى بلغ قمّة الجبل . فتسلق الجنديُّ جذع الشجرة مستعينا بأغصانها أحياناً وبالصخور أحياناً أخرى حتّى أدرك قمّة الجبل ولم ينتبه إليه النوميديون وهم منهمكون في المعركة وصدّ جنود ماريوس بقذائفهم .

ولمّا تعرّف الجندي على المكان رجع أعقابه منتبها

إلى خصائص الطريق جميعها متمعّنا فيها كي ترسخ عنده ويكون قادراً على العودة عند الحاجة وما أنّ أدرك المعسكر حتّى التحق بالقيادة وأحاط ماريوس علماً بمغامرته وطلب منه أن يبعث سريّة تأخذ القلعة من نفس المسلك . وتطوّع الجندي الليغوري أن يكون دليل السريّة .

واستمع ماريوس إلى قصّة ذلك الجندي وأرسل معه ثلّة من الجنود الموثوق بهم ليراقبوا صحة قوله . وانطلق الجميع في الغد نحو القلعة وراء الجندي الليغوري وكان قد أشار عليهم أن يضعوا أسلحتهم من سيوف وخناجر وأتراس فوق ظهورهم ويشدّوها بأحبلة أو غيرها حتّى تكون أيديهم فارغةً حرّةً تساعدهم على تسلّق الجبل بأكثر سهولة . هذا وقد اختاروا أتراساً جلدية كالتي يستخدمها النوميديون أنفسهم . اختاروها جلدية حتّى لايسمع لها صوت إذا قرعتها الحجارة . والصوت المعدني قد تلتقطه آذان العدوّ ويثير انتباهه ممّا قد يكون سبباً في فشل المهمّة ثم إنّ الأتراس الجلدية خفيفة ممّا يكتسي قيمة عظيمة في مثل تلك الظروف .

وفيما يتعلق بعدد الذين أرسلهم ماريوس صحبة الجندي الليغوري فقد اختلف المؤرّخون . فهذا صلّوست يشير إلى عدد ضئيل حيث تتركب السرية على حدّ قوله من خمس بوّاقين خفاف وأربع ضبّاط صغار فعددهم لايفوق العشرة

مما يتماشى وخطورة المهمّة التي أنيطت بعهدة السرية وهي جديرة بأن تسمّى سرية الموت . ولقد أثار ذلك العدد الضئيل شكوكا لدى القدماء أنفسهم حتّى أنّ افرنتنــــــوس Frontin وهومؤرّخ روماني عاش في القرن الأول بعد المسيح . أحجم عن موافقة صلّوست واكتفى أثناء حديثه عن تلك المغامرة الخطيرة بذكر جنود خفاف دون الإشارة إلى عدد مضبوط . والمعلوم أنّه من واجب المؤرّخ أن يحترز ويقف وقفة الحذر ازاء الأرقام التي يقدّمها المؤرّخون القدامى في كتاباتهم التاريخية .

كان الجندي الليغوري إذن يفتح الطريق أمام رفاقه يساعدهم بكلّ ما أوتي من حذق وتجربة ومعرفة للمنطقة . وبعد جهد أنهك قواهم أدركوا القلعة من جهة كانت عارية لأنّ الجنود المرابطين بها كانوا منهمكين في معركة لاتعرف الانقطاع حيث كان جنود ماريوس لايتركون لأعدائهم دقيقةً يستريحون فيها بل كان النوميديون فوق جدران القلعة لاينزلون عنها يرسلون قذائفهم على عدوّهم كي يمنعوهـم تسلّق الجبل العتيد وكانت على حدّ قول صلّوست قذائف النوميديين تسقط على الجيش الروماني وتصحبها عبارات التهديد تنذرهم بالخطر الذي يترقّبهم : خطر فيه الموت وفيه العبودية . كانوا كذلك منهمكين في المعركة فإذا بأصوات الأبواق تعلو من خلف فارتاب النساء والأطفال وانسلخوا هاربين

وتسرّب الرعب في قلوب الجميع ممّا ساعد الرومان على الزحف جرياً وكان كل واحدٍ من جنود السرية يحاول أن يكون أولّ من يدخل القلعة . وتمّ كذلك فتح قلعة الملوية وكان فتحها نتيجة ظروفٍ عرضية حسب رواية صلّوست ولا يعود الفضل فيه إلى عبقرية ماريوس .

ولكن أين يوغرطة وما كان عمله خلال تلك الأيّام العسيرة التي عاشتها المنطقة الغربية من مملكته ؟ يبدو أنّه كان بعيدا عن قلعة الملوية ولم يشارك في الدفاع عنها . لم يذكر صلّوست شيئاً من ذلك بل اقتصر على الحديث عن ماريوس وجيشه كما رأينا . لكن بلغتنا أصداء عن طريق بول أوْرُوز «Paul Orose» وديون كَسِيُوس «Dion Cassius» عاش الأول وهو لاتيني الأصل في القرن الخامس بعد المسيح وكان باتّصال متين مع القدّيس أوغستنوس الافريقي . وعاش الثاني وهو يوناني الأصل في القرن الثالث بعد المسيح . بلغتنا في كتاباتهما أصداء تثبت أنّ الرومان فقدوا إذّاك مراقبة مدينة سيرتة Cirta وقد فتحت أبوابها فسيحة لجنود يوغرطة . ويفترض ستيفان اقزال «Stéphane Gsell» أنّ انفصال مدينة سيرتة وقع بعد توغّل ماريوس في مغامرة الملوية . فلمّا كان ماريوس يهاجم قلعة الملوية كان يوغرطة عند ذلك يعمل بالمنطقة الشرقية حتّى دخل مدينة سيرتة .

كما أثبته بعض المؤرخين . تلك هي الأسباب التي حالت دون مشاركته في معركة الملوية . ولعلّه كان يسعى إلى قطع ماريوس وجيوشه عن مراكزهم الشرقية وهي التي تمدّهم مؤونة وعتاداً . على أنّنا نجهل تفاصيل الأعمال التي قام بها الملك النوميدي في المنطقة الشرقية كالانتصارات التي سجّلها والعقبات التي تجاوزها . لماذا لم يتحدث عنها صلّوست ؟ ذلك مالا نستطيع الإجابة عنه !

لاشكّ أن ماريوس أبقى حامية رومانية ترابط بسيرتة كي تجابه الطواري وتضرب على أيدي العابثين في الداخل وتتصدّى للعدوّ الحامل عليها من الخارج . فكيف دخل يوغرطة المدينة إذن ؟ بهل كانت العملية عسيرة ؟ أكان له في المدينة حزب يناصره ؟ هذه أسئلة ليس في المصادر القديمة ما يساعد على الإجابة عنها . وإن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على جهلنا للظروف التي أحاطت بحدث تجاهله صلّوست (Salluste) ولم يشر إليه ولو بكلمة واحدة كما أسلفنا . أليس جديراً بالمؤرّخ أحياناً الاعتراف بجهله عوض تقديم التفاسير الافتراضية المهلهلة ؟

على كلّ فقد انفصلت مدينة سيرتة عن الرومان سنة 106 قبل الميلاد وبانفصالها بات الوضع خطيراً بالنسبة للجيوش الرومانية البعيدة عن مراكزها الشرقية تلك التي تمدّها بالمؤونة . ومنها تأتيها المعونة من رجال وعتاد . وأبقن

ماريوس بخطورة الأمر مما جعله يسرع بالعودة قصد استرجاع المدينة المنفصلة وإقامة معسكر الشتاء قربها .

على أنّ الجيش الروماني كان يمرّ بربوع قبائل معادية تكره وجود جيش أجنبي فوق أرضها يدوسها . وقد لايتردّد في نهبها شأن كلّ جيش عملت فيه نشوة الانتصار . ولم يتحدّث صلّوست عن موقف هذه القبائل الافريقية من جيش ماريوس ومروره عبر أرضها . فهل كانت مسيرته تحت كنف السلم ؟ أم تخللتها اصطدامات بين الأفارقة والرومان ؟ لاندري شيئاً من ذلك ! وقد اكتفى صلّوست بالإشارة إلى عودة ماريوس بجيشه نحو مدينة سيرتة ذاكرا أنّ القائد كان يسهر بنفسه على كلّ تفاصيل المسيرة من حيث نظام الجنود وتطبيقهم للأوامر بحذافيرها . وفي تطبيقها كان على قول صلّوست لايلجأ إلى العنف والوعيد بل كان يثير بأقواله وأعماله مشاعر الحرّية والشرف الكامنة في كلّ من جنوده . من ذلك تراهم حريصين على القيام بأعمالهم وتطبيق أوامر قائدهم وإن كان في ذلك الحرمان والمشقّة . لقد سطا ماريوس على قلوب جنوده لما زرعه فيهم من قداسة الواجب وشعور بالمسؤولية . وإن زرع فيهم تلك المشاعر النبيلة فذلك لأنّه كان يشاطرهم أعمالهم وعواطفهم أو قل كان يعيش بالقرب منهم ولا يستنكف من شيء يريده لهم .

[illegible] ما أبداه من عبقرية في فن الحرب وقدرة على الانتصار . ولعلّه كان يظهر لجنوده في مظهر الذين يتمتّعون بعطف الآلهة وعنايتهم . تلك هي الصورة التي رسمها صلّوست وأظهر لنا فيها الجيش الروماني في أحسن الحلل وأبدعها .

وإن كان ماريوس يدعو جنوده أن يسيروا منتبهين نحو مدينة سيرتة فذلك خشية أن يفاجئه بوغرطة ويرتمي عليه من حيث لايدري . وقد ذاق الجيش الروماني الأمرّين من مفاجآت بوغرطة طيلة هذه الحرب الضروس . كان القائد ماريوس يخشى السقوط فجأة تحت ضربات بوغرطة سيما وقد دخل بكّوس ملك بني ماور إلى جانب النوميديين بصفة عملية . إذ شعر هو الآخر بوزن الخطر الروماني وقد عسكرت جنود ماريوس وقاتلت على حدود مملكته أيام حملها على قلعة الملوية .

اقترب ماريوس من المملكة الماورية قصد ترهيب بكّوس لكن النتيجة كانت عكس الهدف المرسوم . فعوض أن تتقلّص رغبة بكّوس في الانضمام إلى صفّ بوغرطة كانت معركة الملوية حافزا دفعه إلى التعجيل بالعمل والاقتناع بأقوال بوغرطة ونصائح أعضاء حاشيته وكانوا من الذين يساندون الملك النوميدي . ويرى صلّوست أنّهم ساندوه

لما كان يغدقه عليهم من عطايا وأموال . ولئن أفلح بوغرطة في اقناع بكّوس وجلبه لصفوفه فذلك لأنّه كان يحمل عليه بوعوده المغرية منها أنّه وعده بثلث المملكة النوميدية في صورة انتصاره على الجيش الروماني أو عقد صلح بينه وبين روما على أساس احترام المملكة النوميدية .

لاشكّ أنّ ذلك إن صحّت تاريخيته من الحوافز التي دفعت بكّوس وجعلته يجنّد جيشا كبيراً ويلتحق بصهره بوغرطة (103) . وكان إذ ذاك يقود فيلقاً من الخيّالة جلّهم من قبائل جدالة . وكان ماريوس وقتئذ متّجها كما سبق ذكره نحو مدينة سيرتة لأسباب وأهداف تحدّثنا عنها . وعمد بوغرطة وحليفه الماورّي إلى التصدّي للجيوش الرومانية ومنعها من الوصول إلى العاصمة النوميدية .

• بوغرطة وبكوس يهاجمان ماريوس :

التحق الجيش النوميدي الماوري بجنود ماريوس ذات يوم وقد مالت الشمس نحو الغروب وهي ساعة تلائم الأفارقة وقد يساعدهم ظلام الليل عند الهزيمة ولا يعوقهم عن العمل إن كانوا من الفائزين . والليل يعرقل حركات الجيش الروماني سيما وليست له خبرة بكُلٍّ حاجيات المكان ولا علم له

(103) تزوج بوغرطة ابنة بكوس ولعل غايته من ذلك كانت توطيد العلاقات بينه وبين ملك بني ماور .

بالمسالك والطرق الملتوية . التي قد تساعد على التراجع كما تساعد على مباغتة العدوّ .

فوجئت القيادة الرومانية إذن بزحف الجيش النوميدي الماوري وارتمى الخيّالة على الرومان قبل أن يصطفّوا بل قبل أن تبلغهم أوامر القيادة . حمل عليهم العدوّ بطريقة غريبة لاتخضع لأيّ نظام على حدّ قول المؤرّخ صلّوست . كان فرسان الأفارقة يحملون على عدوّهم زرافات يأتونهم من كلّ صوب . تراهم يسدّدون ضرباتهم نحو عدوّهم ويدوسونه عند الضعف وتراهم يتراجعون متفرّقين بسرعة في صورة ما إذا تصدّت لهم قوّة" عنيفة أو كان خطر يحدق بهم . لقد ارتاع الجيش الروماني لكن الجنود لم يتنحّوا عن شجاعتهم على قول صلّوست . فهذه جماعة هرولت نحو الأسلحة وآخرون يصدّون عنهم ضربات العدوّ فكانت المعركة في نظر المؤرّخ الروماني أقرب إلى ملاقاة مع قطّاع الطريق منها إلى المعارك المنظّمة . ترون أيّها القراء الأفاضل كيف حاول المؤرّخ الروماني صلّوست أن يقابل بين نظام الجندي الروماني وصموده وامتثاله لأوامر القيادة وبين عدم نظام الجيش الافريقي . ويضيف مؤرّخنا أنّ الأفارقة يحملون على عدوّهم دون ما خطّة مرسومة وكأنّ كلاّ منهم يقاتل بصفة شخصية دون ما تنسيق . والغاية من ذلك بالنسبة

لمؤرّخنا هي إبراز الافريقي في مظهر البدائيّ المتوحّش الذي لم يصل بعد إلى مستوى يجعله يؤمن بالنظام ويسلّط النظام على أعماله جميعها . فالنظام الروماني يرمز إلى الحضارة والقوّة. وهمجية الإفريقي تعرب عن التأخّر والوحشية . بل علّه كان يريد أن يبرز لنا الروماني كصديق للحضارة والافريقي كعدوّ لها . وهذه النظرية ما انفك صلّوست يُدعّمها بأمثلة واضحة لكنّها مشكوك في تاريخيتها . وقدسبق أن ذكرنا أنّه وصف لنا حرب يوغرطة حسب مقاييس مسبّقة وضعها لنفسه كمنارة يستضيئ بها بقطع النظر عن الواقع والتاريخ .

على أنّ الاصطدام كان عنيفاً بين خيالة يوغرطة والجيش الروماني ولم ينته عند الليل وقد أمر الملك النوميدي جنوده بمواصلة القتال حتّى شعر ماريوس بخطر الظلام . ممّا جعله ينسلخ نحو ربوة وعرة المنحدر يسيرة المراقبة والحراسة . فأشار إلى مساعده سلّا (104) «Sylla» أن يتسلّط على ربوة أخرى صغيرة قريبة من الأولى وكانت بها عين ماء جارية تسدّ حاجة الجيش وتبعد عنه شبح العطش . ونصب الرومان معسكرهم على الربوة الأولى .

(104) ينتمي سلا إلى عائلة من اشراف الرومان لكنّها افتقرت على انه كان مثقفا ثقافة واسعة وكان طموحا انظر : STÉPHANE GSELL. الكتاب الآنف الذكر الجزء الثالث ص. 240 .

حسب العرف كل الشعوب المتاخرة المتوحّشة من غباوة ورقص حول النار . فكلام صلّوست لايعرب عن الحقيقة التاريخية بل هو من باب الأغراض التاريخية (106) . لكنّه يبيّن لنا كيف كان صلّوست يرى الأفارقة على ضوء عواطفه الشخصية واختياراته السياسية وقد يبيّن لنا أيضاً كيف كان الرومان يرون الأفارقة من خلال منظارهم الروماني وقد يعرب لنا عمّا كان الرومان يضمرونه للأفارقة من عداوة واحتقار . ويبدو أنّ المؤرّخين الرومان قاموا بدعاية ضدّ الأفارقة مساهمة منهم في إنجاز السياسة الرومانية التي كانت تستهدف التسلّط على كامل الأراضي الافريقية .

من ذلك نرى أنّ المؤرّخ الروماني لايتردّد في النيل من شرف الأفارقة ناسباً إليهم الغدر والخيانة والتوحّش وكره النظام . كلّ ذلك حتّى لايتورّع الشعب الروماني من سياسة العنف التي تدعو إليها بعض العناصر الرومانية قصد التسلّط على الممالك الافريقية ولنا في كتب المؤرّخين الرومان شهادات كثيرة تثبت صحّة ما ذكرناه في هذا الشأن .

نزل إذن جيش ماريوس من ربوته صُبحاً وانقضّ على الأفارقة يقتّلهم غير أنّه لم يكسب الحرب وما انفكّ خطر يوغرطة محدقاً به وقد يطيح به إن لم يكن على يقظة دائمة

(106) سوف يأتي الحديث عنها بعد حين .

فتابع ماريوس مسيرته تحت شعار الحذر والاستعداد . وبعد ثلاثة أيّام خلت جاءت أنباء تثبت وجود الجيش النوميدي الماوري على مقربة من الرومان . وكان يوغرطة قد نظّم جيشه وحدات خمسة أملا أن تتمكّن إحدى الفرق من مباغتة الرومان وضربهم من خلف . لكن خاب أمله حيث لم يتخلّ ماريوس عن يقظته وكان مستعدّا لكلّ الطوارئ . ولمّا أيقن ماريوس بالخطر أشار إلى الجيش بالوقوف يترقّب عدوّه وكان الاصطدام من الجناح الأيمن وكانت قيادته بيد النقيب سيلاّ .

حمل عليه نفر من خيّالة بني ماور فأشار سيلاّ لبعض فرسانه أن قفوا سدّا في طريق الماوريين . ثمّ جمع شتات فرسانه وارتمى على العدوّ . وكان إذ ذاك الملك بكّوس يقاتل على رأس المشاة في الجبهة الغربية . وكان يوغرطة بالجبهة الشرقية حيث يوجد ماريوس . ولمّا بلغه أنّ بُكّوس دخل المعمعة واصطدم مشاته بالجيش الروماني أسرع يوغرطة نحوه يقود كوكبة من الفرسان . وأورد صلّوست أنّه أقبل على الرومان وأراهم خنجره ملطّخاً بالدم وصاح فيهم قائلا بلغتهم : إنّه قتل ماريوس فلا فائدة في متابعة القتال .

وكان لكلام يوغرطة وقعه في نفوس الجنود الرومان وتغلّبت عليهم الحيرة حتّى كانوا على وشك الخضوع . وكان

الوضع خطيراً لكنّ سيلاً بعد انتصاره في الجبهة الجنوبية حمل على مشاة بكّوس فتقلّص ملك بني ماور حالاً وبقي بوغرطة وقد حفّت به فرسان النقيب الروماني حتّى سقط جنوده فلاذ بالفرار تطارده سهام عدوّه .

وتجدر الإشارة هنا إلى « لوحة » القائد الذي يفرُّ وحيداً بعد سقوط جنوده في ساحة الوغى . يفرُّ وسط زوبعة من السهام والرماح دون أن يصيبه شرّ . إنّها لوحة في رأينا تعود إلى ماسنيناه منذ حين بالأغراض التاريخية . وفي الغرض التاريخي تكون الفكرة أو الصورة مستلهمة طبقاً لبعض القواعد الأدبية أو الفنية ولبعض الاصطلاحات دون أيّ مراعاة للواقع التاريخي . ومن المرجّح أنّ الأغراض التاريخية وضعت نتيجة تأثير الأدب والفنّ على المؤرخين القدامى ، ممّا ينبئ بمتانة الروابط التي كانت في القديم تصل بين التاريخ والأدب . فكان المؤرّخ يكتب التاريخ لا بالعودة إلى الواقع والحقائق التاريخية فحسب بل كان يرى لزاماً عليه أيضاً إبراز مواهبه الأدبية وقدرته على الوصف البديع المثير . من ذلك ترى أنّ بعض الصور والمشاهد والأحداث تعود في ظروف مختلفة . فهذه صورة القائد الذي يفرّ وحيداً . ورغم قوّات العدوّ التي تحيط به تراه على متن فرسه هارباً وسهام العدوّ تطارده وقد يطارده الفرسان أنفسهم . كذلك فرّ عبد ملقرط

والد حنّبعل (107) لـمّا حملت عليه الجيوش الإيبارية في اسبانيا . وكذلك فرّ مسّنيسا من قبضة جنود سيفاكس (Syphax) وكذلك نرى يوغرطة يفرّ وحيداً خلال سحابة من السهام والرماح .

فتكرار هذه الصورة جعلنا نفترض أنّها من باب الأغراض التاريخية أي صورة يرسمها المؤرّخ بتصرّف في ظروف معيّنة. ومثل ذلك ما نشاهده في الكتب الأدبية أو الأشرطة السنمائية كالبحر والزوابع والأمطار الغزيرة أو سباق السيارات ليلا . كلّها أغراض أدبيّة فنيّة يلجأ إليها الكتّاب والمخرجون في ظروف معيّنة ولأهداف معيّنة . كذلك نعتقد أنّ بعض المؤرّخين في القديم كانوا يلجأون إلى بعض الأغراض التاريخية كالذي أسلفنا ومنها المطر الذي يأتي أثناء المحنة وبنزوله يكون الفرج . رأينا كيف تيمّن جنود متلّوس بالمطر أثناء زحفهم على مدينة تالة . ونرى « غرض » المطر منحوتاً على سارية الامبراطور تراجنوس (Trajan).

أمّا انتصار الجيوش الرومانية فهو أمرٌ لانشكّ فيه . حيث انتهت المعركة وبقيت ساحة القتال مغطّاة بالأموات من جنود وخيل كلّهم ملوّثون بالدماء . وإلى جانب الموتى ترى الجرحى طريحي الأرض يئنّون من شدّة الألم .

(107) صنفت كتب عديدة حول القائد القرطاجي الشهير حنبعل على ان احدثها للمؤرخ الفرنسي G. PICARD., *Hannibal*, Paris 1967.

ذكر المؤرّخ صلّوست هذه التفاصيل ورسم هاته الألوان ولعلّه أطنب بعض الشيء عند الوصف دون مراعاة للواقع التاريخي . وفيه يتجلّى حرص المؤرّخ على الوصف الأدبي على غرار الأدباء المهرة .

وفيما يتعلّق بالمعركة التي سبق الحديث عنها بلغتنا رواية أخرى أوردها بول أوروز «Paul Orose» وهو مؤرّخ روماني عاش في القرن الخامس بعد المسيح ويبدو أنّه استقى هذه الرواية من كتب تيت ليف « Tite - Live » وقد عاش هذا المؤرّخ الروماني في القرن الأول قبل المسيح . وتذكر رواية بول أوروز أنّ يوغرطة وبكّوس حملا على جيش ماريوس قرب مدينة سيرتة وهما على رأس خيّالة فرسانها كثيرون . وكان الاصطدام عنيفاً وكانت المعارك دامية طيلة ثلاثة أيّام وقد أحاط الأفارقة بجيش ماريوس حتّى أوشك على الهلاك سيما وكان الرومان يقاسون شر القيظ والعطش . وفي اليوم الثالث كان خطر الهزيمة محدقاً بالرومان ولعلّ بعضهم كان تحت سيطرة القنوط . لكنّ السماء منّت عليهم بمطر غزير شفى غليلهم وأعاد لهم روح الأمل فصاروا يفكّرون في تلافي الخطر . وقد يكون هذا المطر أيضا من باب الأغراض التاريخية كما أسلفنا .

على أنّها مطر كانت مياهها مهلكة بالنسبة للأفارقة

وقد عاقتهم عن استخدام رماحهم إذ تبللت وصارت تنزلق بين أصابعهم لايستطيعون قبضها ولا رميها وفق إرادتهم . والأخطر من ذلك هو تبلّل أتراسهم الجلدية وقد انتفخت وثقلتْ ممّا حال دون استعمالها للوقاية . كذلك لم يبق للأفارقة إلاّ أن يتراجعوا ويتركوا النصر لجيش روما .

على أنّ يوغرطة وبكّوس لم ييأسا بل سرعان ما أعادا الكرّة وكان جيشهما يعُدُّ تسعين ألف رجل وشبّ اصطدام آخر بين الجيشين وانتهت المعركة بانهزام الأفارقة . ويثبت بول أوروز أنّهم هلكوا على آخرهم . فرواية هذا المؤرّخ تختلف بعض الشيء عن التي أوردها صلّوست . ويؤثر ستيفان اقزال رواية صلّوست ويعتقدها أقرب من الواقع التاريخي .

انتصر ماريوس إذن وكان انتصاره من الخطورة بمكان وكان على سكان مدينة سيرتة أن يعترفوا بالواقع ولو كان مُرًّا . وفي نكران الواقع هزيمة ووبال . من ذلك استسلمت مدينة سيرتة وفتحت أبوابها إلى القائد ماريوس من جديد فدخلها مظفّراً عزيزا . لكنّ القنوط لم يجد منفذاً لقلب يوغرطة مع شعوره بضعفه تحت تأثير الانهزامات التي تجرّعها جيشه ممّا جعل القبائل الافريقية تنظر إليه بعين فاترة . وأيقن يوغرطة بعجزه عن متابعة الحرب في صورة ما إذا انفصل عنه بكّوس .

الباب العاشر

خيانة بكوس

لقد سئم بكّوس حرباً ضروسا كبّدت جيشه خسائر فادحة وعادت المعركتان الأخيرتان عليه بالوبال حتّى أصبح يفكّر في الانفصال عن يوغرطة بل أوفد رسلا إلى مدينة سيرتة مهمّتهم الاتّصال بالقيادة الرومانية . واجتمعوا فعلا بماريوس وطلبوا منه بإلحاح أن يرسل مبعوثين يتّصلان بالملك بكّوس وينظران معه في كيفية وجود حلّ يناسب الملك ويتماشى والمصالح الرومانية .

*** سِــــلاّ ومنليوس يتصلان بملك بني ماور : (108)**

أوفد ماريوس رسولين إلى بكّوس وهما سِلاّ ومَنْلِيُوس واتّصلاّ بالملك وخاطبه سلاّ قائلا : يا جلالة الملك ! إنّه ليسرّنا أن توحي الآلهة لرجل مثلك روحاً تدفعك إلى إيثار السلم

(108) نحن نجهل المكان الذي تقابل فيه سلا بملك بني ماور

على الحرب وإنّه ليسرّنا أن نرى أميراً في كمالك يعدل عن تشويه سمعته ويستنكف من الاحتكاك بأشنع المجرمين يوغرطة.
وأضاف: إنّ الشعب الروماني منذ بداية سلطانه المتواضع ما انفكّ يؤثر أن يكون له أصدقاء عوض العبيد. ويرى الشعب الروماني أنّه من الأوثق أن تكون السلطة مركّزةً على الإقناع لا على العنف. أمّا بالنسبة إليك فلن تجد صداقةً أجدى لك من صداقتنا. نحن بعيدون عنك لكنّ ذلك لايعوقنا عن مُساعدتك كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. ونقوم بذلك كما لوكنّا بالقرب منك. هذا وإن كان لنا عبيد نشتريهم فليس لنا ولا لغيرنا من الأصدقاء كفاية.
فلم لم تكن لك مثل هذه العواطف نحونا؟ فلو كان ذلك لأحسن لك الشعب الروماني أكثر ممّا أساء إليك. لكنّ الأقدار قد تسيطر على الإنسان حسب مشيئتها وبما أنّها أبت إلاّ أن تجعلك تجرّب قوّة الرومان وعطفهم بالتداول وبما أنّها تمكنّك الآن من تجربة عطف الشعب الروماني فأسرع بإتمام ماشرعت فيه. ولك شتّى المناسبات لتكفّر عن هفواتك الماضية، بخدماتك الحاضرة. فكن مقتنعا كلّ الاقتناع بما سأقوله لك: إنّ الشعب الروماني لم يسمح لأحد قط أن يتغلّب عليه إحساناً. أمّا قيمته العسكرية فكان لك أن تعرفها.
تلك هي خلاصة ما قاله سلاّ أمام بكّوس حسب رواية

إنّها ولا شكّ من صنع صلّوست ووضعه على أنّه ليس من الغريب أن يكون وضعها على ضوء ما استقاه من المصادر التي عاد إليها حول المقابلة التي صارت بين سلاّ وبكّوس. والغالب على الظنّ أنّه رجع إلى مذكّرات النقيب سلاّ. ومن المرجّح أنّه (أي سلاّ) دوّن الأحداث التي عاشها والدور الذي لعبه في المفاوضات مع ملك بني ماور. وقد تساعدنا هذه الكلمة على فهم السياسة الرومانية والمبادئ التي كانت تتبعها في ذلك العصر كالهيمنة على الشعوب بطرق سلمية كلما أمكن الأمر.
وكان الرومان يعرضون صداقتهم على البلاد التي يريدون الهيمنة عليها. فإن قبلت صداقتهم بما تتضمنه من هيمنة ونفوذ ومصالح فبخٍ بخٍ وإن رفضت وتنطّعت وتمسّكت بحريتها وذاتيتها رأيت الرومان يجنّدون ويتسلّطون عليها بالقوة والعنف. تلك هي أسس السياسة الرومانية خاصّة في بداية تكوين الامبراطورية.
وبعد تعرّضنا إلى كلمة سلاّ وكان فيها من الصلابة ما يمسّ بشرف الملوك ينبغي أن نستعرض الكلمة التي أجاب بها الملك الماوري. ويدّعي صلّوست أنّ جوابه كان ملؤه عبارات السلم والصداقة. ثم دافع عن نفسه قائلا:

وذكر أنه أوفد رسلاً يلتمسون صداقة روما فلم يعبأ بهم وصرفوهم . ثم أضاف أنه لايريد ذكر الماضي بإلحاح وقال: إنه مستعد لإرسال وفد ثان إلى مجلس شيوخ روما على أن يسمح ماريوس بذلك .

ليس لأحد أن يشك في أن جواب بكوس هو أيضاً من صنع المؤرخ الروماني صلوست وإن دل على شيء فهو يدل على ضعف ملك بني ماور ويعرب عن إرادته للدخول في سياسة جديدة إزاء المشكل الروماني النوميدي. وسمح ماريوس له أن يرسل وفده إلى روما قصد فتح مفاوضات مع شيوخها لكن بكوس عدل عن ذلك تحت تأثير أصدقاء له ارتشاهم يوغرطة وكلفهم بإقناعه حتى يتنحى عن سياسته الجديدة . وشعر بكوس بل أيقن أن لاسبيل إلى التغلب على الرومان سيما والتجربة كانت قاسية إذ تجرع كأس الهزيمة كلما اصطدم بالقوات الرومانية .

على أن أمره لم يستقر بل كان يتردد بين الالتحاق بروما والثبات إلى جانب صهره وحليفه يوغرطة . فعدم استقرار أمره هو الذي جعله يقبل على نصائح أصدقائه ويقتنع بما أشاروا عليه به .

ولم يبق ماريوس مكتوف اليدين يترقب تطور الظروف

مدينة سيرتة وتوجه نحو ديار بني جدالة (109) يريد التسلط على قلعة حشد فيها يوغرطة كل الذين غادروا الصفوف الرومانية والتحقوا به. وهاجمها فعلا لكنه لم يفلح .

على أن الأوساط الرومانية كانت تعتقد أن لاسبيل لوضع حد لهذه الحرب إلا بانفصال بكوس عن صفوف يوغرطة . كما كانت تعتقد أن لا أمل في الانتصار على الملك النوميدي انتصاراً حاسماً نهائياً إلا بسقوطه تحت قبضة الجيوش الرومانية . وهو أمر عسير لاسبيل إليه إلا بمساعدة بكوس . من ذلك ترى الرومان يسعون إلى إقناعه بكل مالديهم من وسائل الترهيب والترغيب . فكانت روما تشعره أنها تغض الطرف عما صدر منه من أعمال ومواقف خطيرة أضرت بالجيش الروماني على شرط أن يساعدها في القبض على يوغرطة . والملاحظ أن السلطات الرومانية لاترى خطراً في بقاء ملك بني ماور على عرشه لبعد أراضيه عن المناطق الخاضعة لروما وتجدر الإشارة في هذا الشأن إلى خلو الملك بكوس من كل سياسة افريقية تؤمن بإجلاء الرومان عن افريقية . مما قد يجعلهم لايرون حرجاً في إضافة نوميديا الغربية إلى

(109) بنو جدالة : «Les Gétules» انظر : J. DESANGES

Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique de l'Ouest du Nil. Index S. V. Gaetuli.

المملكة الماورية . سيما والأمر يطيب لبكّوس ولعلّهم ايقنوا أنّه من العوامل التي ألقت به في الحرب . ولقد أشرنا إلى ماوعده به يوغرطة لمّا عرض عليه التحالف والتعاون ضدّ جبروت رُومَـــا .

أمّا بكّوس فلقد لقّنته الهزائم أنّ مُسَاعدته ليوغرطة ليست من صالحه في شيءٌ سيما والقيادة الرومانية ما انفكّت تظهر القوة والحزم في مجابهتها لجيوش يوغرطة ، تسجّل النصر بعد النصر . أجل قد لا تستطيع القضاء على عدوّها قضاء تامًّا وقد تطول الحرب وقد لايستقرُّ الأمن في الربوع الافريقية ولكن ما عسى أن يكون مصير بكّوس إذا طالت الحرب وبقي هو إلى جانب يوغرطة وقد تدخل جيوش ماريوس المملكة الماورية . أفلم تدرك نهر الملوية وهو الفاصل بين مملكته والمملكة النوميدية ؟

ظلت هذه التخوفات تخامر صدر بكّوس وليس له من عزم ورباطة جأش ما يجعله يسود عليها ويتجاوزها . ولم يكن لملك بني ماور من الطموح ما يتجاوز الاحتفاظ بالعرش تحت كنف الطمأنينة والاستقرار . وكأنّه يعرض عن المشاكل كلما عَسُرت حلولها . ولئن دخل الحرب فذلك لأنّه شعر بخطر الرومان يهدّده ودخلها لأنّ يوغرطة وعده بتوسيع مملكته . فإن وعدته روما بعدم التدخّل في مملكته

وقبلت تسليمه المنطقة العربية من نوميديا فلم يبق ما قد يعلّل في رأيه تعاونه مع يوغرطة .

أظهرت روما استعدادها لذلك لكنّها طالبته أن يساعدها بالقبض على يوغرطة وتسليمه إليها . ولاشكّ أنّها خيانة عظمى ! ميمّا جعل بكّوس يتردد ولايعرف كيف العمل . فهل كان يستنكف من الخيانة ؟ قد يكون ! على أنّ ستيفان اقزال يدّعي بلا مبرّر أنّ ملك بني ماورلم يكن ليأبى الخيانة بل كان يخاف القبائل الخاضعة لسلطانه .

ومهما يكن من أمر فلقد كان بكّوس يتأرجح بين يوغرطة والروابط العائلية والقومية التي تصله به وبين القيادة الرومانية ووعودها . فتارة تتسلّط عليه رغبته في التخلّي عن ملك النوميديين وبتبنّي السياسة الرومانية . ويتسلط عليه طوراً خوفه من شر عاقبة الخيانة . وبات يفتّش عن وسيلة وعيبة تمكّنه من السيطرة على الوضع وبها يتخلّص من يوغرطة دون ارتداء ثوب الخيانة .

• وفد ماوري يَتَّصِلُ بماريوس :

ثمّ أقرّ العزم في النهاية أن يتصل بالقيادة الرومانية قصد درس المشكل والوصول إلى حلٍّ مرضيّ . من ذلك أنّه أوفد خمسة من أصدقائه (110) المخلصين إلى ماريو س وأشار عليهم

(110) انظر : صلوست « حرب يوغرطة » الفقرة 103 .

أن يلتحقوا بروما إذا ما وافقتهم القيادة . وكلّفهم في صورة
سفرهم إلى روما أن يعملوا جهدهم ليكون حلّ مشكلة يوغرطة
وتضع الحرب أوزارها .

ولئن استقرّ أمرُ بكّوس على ذلك بعد تردّدٍ طويل
فالسبب فيه حسب قول المؤرّخ صلّوست أنّ لملك بني
ماور أصدقاء مقرّبين كانوا يناهضون سياسة يوغرطة حتّى أنّهم
لم يتأثّروا بوعوده ولم يقبلوا رشوته بل كانوا يدسّون له وأثّروا
على ملكهم بكّوس فعجّل بالانفصال عن حليفه النوميدي
والتفت إلى القيادة الرومانية . وذهب ستيفان اقزال مذهب
صلّوست بل ولاحظ أنّ أعوان الجوسسة الرومانية كانوا باتّصال
مع الذين كانوا في حاشية بكّوس يناهضون سياسة يوغرطة .
ولئن زهد هؤلاء في الرشوة النوميدية فلعلّ روما كانت تلوّح
لهم بما هو أعظم وأثمن : هدايا ووعود خلاّبة أغرتهم
فأقبلوا عليها وعملوا حتّى انتزعوا من ملك بني ماور ذلك
الاختيار الخطير . ولعلّ السلطات الرومانية وجدت في بعض
الأمراء الأفارقة أعواناً ساعدوها على إقناع بكّوس وتكسير
الحلف النوميدي الماوري. ومـمّا قد يثبت أنّ بعض الأفارقة
الأعيان كانوا يعملون في صالح روما يمكن أن نشير إلى أمير
نوميدي كان يتردّد على قصر بكّوس وهو أي الأمير النوميدي
من الذين عرفوا بإخلاصهم لروما ونضالهم في صالح سياستها .

فلعلّه كان يتردّد على قصر بكّوس لمهمّة أنيطت بعهدته
من طرف الرومان أنفسهم . غادر الوفد الماوري إذن قصر
الملك النوميدي واتّجه نحو القائد الروماني وكان إذ ذاك بعيداً
عن المعسكر وقد خرج على رأس كتيبة يريد التسلّط على قلعة
كانت بالجنوب في ديار بني جدالة وقد كنّا أشرنا إليها منذ حين .
ولمّا كانوا في طريقهم نحو القائد ماريوس سقطوا تحت قبضة
قطّاع الطريق ، وأثبت صلّوست دون شهادة أنّهم أي قطّاع
الطريق من قبائل جدالة . عبثوا بأعضاء الوفد وسلبوهم
حتّى لم يكن لهم إلاّ أن يعودوا على أعقابهم ويأخذوا طريق
مدينة سيرتة وفيها اتصّلوا بالنقيب سيلاّ وهم في حالة يرثى
لها . فأحسن قبولهم وأكرمهم كما يكرم الأصدقاء الحلفاء .

فأثّر ذلك في أنفسهم أحسن تأثير وبان لهم أنّ الدعاية
القائلة ببخل الرومان وتعسّفهم كاذبة واقتنعوا أنّ سيلاّ
صديق لهم وقد بجّلهم وقدّم لهم الهدايا . وعلّق المؤرّخ
صلّوست على هذه الأحداث قائلا : «كان الكثير من الناس
في ذلك العهد يجهلون « الكَرَمَ الطّامِعَ » (111) ويعتقدون
أنّ الكرم لايكون إلاّ من باب العناية وينسبون كلّ هديّةٍ
إلى العطف والمحبّة » .

(111) صلوست يعلق على الحفاوة التي اظهرها سيلا ازاء اعوان بكوس انظر : المصدر نفسه الفقرة 103 .

فكانت النتيجة أن أفضى رسل بكّوس إلى سلا بالمهمة التي أنيطت بعهدتهم وطلبوا منه أن يتفضّل بمساعدتهم راغبين منه الحماية والنصيحة وتحدّثوا عن ملكهم فأبرزوا ما لديه من قوّةٍ وما يكنّه من إخلاص نحو الرومان بل قل أبرزوا كلّ المنافع التّي قد يجدها الرومان في شخص بكّوس إن قبلوا مبدأ التفاوض والتعاون معه . وأجابهم سلاّ واعداً إيّاهم أن سيعمل على تحقيق رغائبهم. ولم يبخل عليهم فعلا بنصائحه خاصّة فيما يتعلّق بالطريقة التي ينبغي أن يتوخّوها عند مخاطبتهم ماريوس وأعضاء مجلس الشيوخ في روما .

ومكث الوفد الماوري ضيفاً على سلاًّ يترقّب مجيْ القائد ولم يأت المدينة إلاّ بعد أربعين يوماً . فما أن أحيط علما بوجود رسل بكّوس حتّى استقدمهم واستقدم نقيبه سلاّ كما دعا لحضور الجلسة حاكم مدينة أوتيك وكانت إذ ذاك عاصمة الولاية الرومانية بإفريقية ودعا إليها كلّ الذين ينتمون إلى طبقة الأشراف والموجودين بإفريقية .

• ماريوس يجتمع بالوفد الماوري :

شرح أعضاء الوفد الماوري موقف ملكهم تجاه الرومان وصرّحوا برغائب بكّوس، منها رغبته في إيقاف الحرب بعقد

هدنة ، ومنها رغبته في أن يتمكّن الوفد الماوري نفسه من متابعة طريقه نحو مدينة روما قصد الاتّصال بمجلس الشيوخ. ففيما يتعلّق بالذهاب إلى روما والتحادث مباشرة مع أعضاء مجلس الشيوخ فقد لبّت القيادة دعوة الملك الافريقي وأمّا الهدنة فقد دار الحوار حولها طويلا بين الحاضرين فكان سلاّ يحبّذ مبدأها وطالب بإبرامها وانضمّ إلى جانبه غالب الحاضرين على أنّ ثلّةً من المتطرفين غلاة الحرب عارضوا سياسة الهدنة واجتهدوا في إبراز خطورة الوضع منادين بضرورة متابعة الحرب حتّى لايتمكّن العدوّ من الراحة وتضميد جروحه وتعزيز صفوفه . واستقرّ الأمر في النهاية على إبرام الهدنة وبذلك كان قبول المطّالب الماورية جميعها .

• رسل بكوس يلتحقون بروما :

تابع ثلاثة من الوفد الماوري طريقهم نحوروما صحبة موظّفٍ روماني سامٍ كان قد أتى بفروض الجنود منذ أيّام. أمّا العضوان الآخران فقد عادا إلى الديار الماورية يبشّران الملك بنجاح المهمّة . فاستبشر وطابت نفسه خاصّة لما وجده أعضاء البعثة من عناية وعطف من طرف النقيب سلاّ . وقد أطنب الرجلان في التنويه بكرم سلاّ ومجدّا سمّو أخلاقه وحبّه للملك .

ولكن فلنعد للذين تركناهم على متن سفينة تشُقّ بهم عباب البحر مقصدها مدينة رُومَا . فما إن ألقت سفينتهم مراسيها بالمرفإ حتّى اتّجهوا رأسا إلى مجلس الشيوخ يسألونهم رفقاً بالماورين وملكهم . واستعطفوهم كي يغضّوا الطرف عن الهفوة التي ارتكبها بكّوس عفواً بل من جرّاء أحبولة حاكها له يوغرطة على حدّ قولهم . ولاشكّ أنّهم اغتنموا الفرصة ليندّدوا بأعمال النوميديين ويشهّروا بالجرائم الفظيعة التي اقترفها يوغرطة بَعْد إمعان في التخمين والتدبير . جرائم اقترفها تجاه الذين عملوا جهدهم في تربيته وتكوينه ولقّنوه مبادئ الحضارة بل وأجلسوه فوق العرش . كلّها أقوال من اليسير علينا أن نفترضها في أفواه رسل بكّوس وهم ماثلون بين أيدي أعضاء مجلس الشيوخ بروما . ولاشك أنّها أقوال يرتاح لها جُلّ أعضاء ذلك المجلس إذ قد تعرب عن خواطر تدور بخلدهم . فالاعراب عنها في ذلك الظرف قد يؤثّر في أنفسهم أحسن تأثير مِمّا يجعلهم يقبلون النظر في المطالب الماورية ويأخذونها بعين الاعتبار .

وبعد التوسّل والاستعطاف توجّه الوفد إلى مجلس الشيوخ يسأله التحالف والصداقة فكان مضمون الجواب أنّ مجلس الشيوخ والشعب الروماني لاينسيان شيئاً من الحسنات ولا تخفى عليهما سيئة . ولمّا اعترف بكّوس بهفوته وانثنى عن سياسة

العدوان تجاه روما فالرومان لايرون مانعا في الصفح عنه. أمّا التحالف والصداقة فلا يكونان إلاّ عند الجدارة .

فبذلك الجواب المقتضب الجاف أعربت الأوساط الحاكمة بروما عن استعدادها للنظر من جديد في علاقات روما مع ملك بني ماور دون أيّ التزام من شأنه أن يعيد الطمأنينة في قلوب الماورين . وقد تفتر الطمأنينة عزمهم على خدمة الرومان وقد تجعلهم يزهدون فيما قد تستوجبه المصلحة الرومانية . لم يلتزم مجلس الشيوخ الروماني إذن بل ترك الباب مفتوحاً واكتفى بوعود غامضة المحتوى تتوقّف على شروط غير مضبوطة : تلفّظ مثلا بكلمة الجدارة دون أن يقع تحديد ما قد يضعه الرومان في تلك اللفظة . فمتى يكون بكّوس جديرا بالصداقة الرومانية ! ومتى يقبل الشعب الروماني مبدأ التحالف معه ؟ ذلك لا يعلمه إلاّ الرومان . وهي طريقة سياسية ملؤها الدهاء والحكمة تترك للرومان السبيل ليطلبوا من بكّوس كلّ ما يريدونه منه من أعمال ومواقف . فمن الواضح أنّ للرومان أهدافاً معينة لامعة يرمون إليها من وراء الغموض الذي لمسناه منذ حين . بالغموض يريدون أن يعمل بنو ماور وملكهم في صالح الرومان ويتفانوا في انجاز ما قد تكون فيه الجدارة . ويتضمّن جواب مجلس الشيوخ بما فيه من اقتضاب وغموض وعدم التزام نفحة من الاعتزاز والشعور

بالقوّة كما فيه احتقار الذين أقبلوا بعد العجز يلتمسون المغفرة مطأطئين الرؤوس ، مثلهم مثل العبيد المتأصّلين في العبودية .

ومهما يكن من أمر فقد غادر الوفد الماوري المدينة الرومانية ولم تعرب لهم الأوساط الرسمية إلا عن وعود غامضة خاوية . على أنّ ستيفان اقزال يفترض محادثات خاصّة دارت بين أعضاء الوفد الماوري وبعض الأوساط الشبيهة بالرّسمية تناولت توضيح ما قد تريده روما من بكّوس أوقد تشترطه عليه لتصفح عنه وتمنحه صداقتها . وتقبل مبدأ التعاون والتحالف معه .

عاد الوفد إلى الديار الافريقية وأطلعوا الملك على فحوى مهمّتهم فكان منه أن يرسل توًّا إلى القائد ماريوس يسأله تكليف النقيب سيلاّ بالاتّصال به قصد تسوية الوضع بين روما والمملكة الماورية على ضوء ما يرى فيه مصلحة الطرفين ولعلّه كان يؤمن أنّ سيلاّ سيأتي محمّلا بمهمّة واضحة تطلع بكّوس على رغائب الرومان . وأسرع ماريوس بتلبية الدعوة الماورية حيث أوفد سيلاّ على رأس فرقة من الجيش الروماني تتركب من كوكبة من الفرسان والمشاة من بينهم ثلّة من البلجاريين رماة المقالع . والمعلوم أنّ سكّان جزر البلجار قد عرفوا عند القدماء ببراعتهم في الرمي بالمقلاع . وكان من الذين رافقوا سيلاّ كذلك في مسيرته نفر من القوّاسين والجنود

المحمّلين بالأسلحة الخفيفة مما يساعدهم على السير الحثيث ووقاية الجيش من سهام العدّو .

انطلق إذن سيلاّ نحو الديار الماورية وسار نحو الغرب أربعة أيّام دون أن يلاحظ ما قد ينبئ بالخطر . وفي اليوم الخامس بان في الأفق البعيد غبار كثيف يشير إلى وجود فرسان أفارقة فظنّهم سيلاّ من جيش العدوّ فنادى جنوده للاستعداد وتوخّي الحذر . وكان رفقاء النقيب قد أوجسوا خيفة إذخيّل لهم عن بعد أنّ الجيش المتقدّم نحوهم يفوقهم عدداً . من ذلك اصطفّ الرومان وأضحوا يترقّبون إشارة تدفعهم إلى ساحة القتال وقرع السيوف والرماح . ولكن سرعان ما عاد السيف إلى غمده واستند الرمح على الكتف وقد أقبل الكشّافون وأطلعوا سيلاّ على حقيقة الأمر . وهو أنّ الفرسان الأفارقة القادمين هم من بني ماور يقودهم وَالِكُ أحد أبناء بكّوس . أرسله أبوه لاستقبال سيلاّ في كوكبة من الفرسان تتركّبُ من ألف رجل . وبعد قليل وصل والك واتّجه إلى سيلاّ يحيّيه وقال : إنّ أبي يقرئك السلام وقد أرسلني لاستقبالك ومواكبتك في طريق قد لاتخلو من الأخطار . ثم تابع الركب سيره طيلة ذلك اليوم واليوم التالي دون أن يطرأ حادث مخيف ولمّا انحدرت الشمس نحو مضجعها وحطّ الجيش ركابه أقبل وَالِكُ على سيلاّ وقد تسلّط الخوف والارتباك على ملامحه

وأعلمه أنّ يوغرطة على مقربةٍ من المعسكر . وأشار والك (Volux) بالفرار حالاً تحت كنف الظلام .

لكنّ سِلاّ امتنع وقال حسب رواية صلّوست : إنّه لايخاف نوميديّاً أذاقه الرومان كأس الهزيمة غير مامرّةٍ وهو لايشكّ في قيمة جنوده وشجاعتهم وأضاف إنه باقٍ ولوكان موتُه أمراً يقيناً . وإنّه ليؤثر الهلاك على خيانة جنود عهد إليه بقيادتهم . ولمّا شعر والِكُ بتصلّب النقيب وأيقن أن لاسبيل إلى إثنائه عن موقفه أشار إليه أن يأمر برفع المعسكر ليلاً مبيّنا أنّ الخطر قد يكون كلّ الخطر إذا بقي الجيش في ذلك المكان . والرحيل ليْلاً قد يغالط الملك النوميدي ويكسّر الخطة التي رسمها . وتوفّق والِك في النهاية إلى إقناع سِلاّ . فأمر في الحال جنوده أن يسرعوا في تناول العشاء وأن يشعلوا ناراً يؤجّجُونها ويُبَارِحوا المعسكر قبل انتهاء الثلث الأول من الليل . أمّا النار المؤجّجة التي أوصى بها سِلاّ فالمرغوب منها إشعار العدوّ غلطا ببقاء المعسكر الروماني .

وسار الجنود في الليل الرهيب حتّى مطلع الفجر. وفيما كان سِلاّ منهمكا في تخطيط المعسكر أقبل نفر من فرسان بني ماور أتوا يهرولون وعُلِمَ أنّ يوغرطة على مقربة منهم يترقّبهم لينقضّ عليهم . وسرعان ما شاع الخبر في

صفوف الرومان فتسلط الخوف عليهم و[illegible] من والِكَ ممّا أثار فيهم موجة عارمة من الغضب تدعو إلى الانتقام .

أمّا سِلاّ وإنْ كان يشاطرهم ذلك الشعور فقد حرّم اللجوء إلى العنف ونادى جنوده وحثّهم على الشجاعة والصمود ذاكرا أنّهم سوف ينتصرون . وأضاف أنّه من العار أن يدبر المرء والسلاح في يده . ثم التفت إلى والِكَ وأمره بالخروج من المعسكر . وكان الأمير يحاول تبرير موقفه والدموع تساقط من جفونه مثْبتاً أن لاصِلة بينه وبين يوغرطة . لكنّ الملك قد وقف على سِرّ الخطة بواسطة دهائه والجوسسة . ولم يغترّ بالنار المؤججة في الليلة البارحة . وأضاف والِك أن ليس ليوغرطة من الجنود كفاية وأنّه لن يتجاسر على القيام بأيّ هجوم ما دام يعلم أنّ والِكَ يرافق النقيب . ثم حاول الماوري أن يبيّن أنّ أثبت سبل النجاح تكون في السير علانية أمام يوغرطة . وأنّه (أي والِكَ) مستعدٌ أن يبقى مع سِلاّ دون فرسانه حتى لاتكون له فيهم حماية" . وقبل الروماني مقترح الماوري وتقدّم الجيش صحبة والِكَ أمام يوغرطة وجنوده دون أن يمسّهم بشرٌ . وبعد أيام قلائل وصل الركب إلى الديار الماورية والتحقوا بمعسكر بكّوس .

لاشكّ أنّ في تفاصيل الرواية المتعلّقة بوالِكَ وسلاّ

والأحداث الناجمة عن وجود يوغرطة في طريق الرومان تناقضا مبينا . فهذا والك يشير البارحة بالفرار العاجل تحت طيّ الخفاء لمّا أعلموه بوجود يوغرطة قرب المعسكر الروماني . ويثبت صلّوست أنّ الأمير كان محتاراً قلقا بل وتسلّط عليه الخوف حتّى قدْ يخيّل للقارئ أن يوغرطة يجهل ما كان الماوريّون يقومون به من أعمال واتّصالات مع السلّط الرومانية . وقد يخيّل للقارئ أيضا على ضوء ما أورده صلّوست أنّ الملك النوميديّ قد تمكّن من الوقوف عليها بواسطة وسائله الخاصة وقد سمعنا والك يشير إلى دهاء الملك النوميدي وجوسسته . ثم نرى والك نفسه بعد الحيرة والقلق والخوف يشير بمتابعة السير دون مبالاة بل وألحّ أن يمُرّ الجميع بمرأى من الملك النوميدي مدّعيّا أنّه سوف لن يتجاسر على مهاجمتهم .

وهنا يبدو تناقض جليًّا . فإن كان الأمر كما شرحه والك في الفقرة السادسة والمائة من كتاب صلّوست « حرب يوغرطة » فلم لمْ يتوخّ هذه الطريقة منذ البداية . ولئن فعل لما كان الرومان يتحمّلون أتعاب السير ليلا . كان من واجب والك إن كانت الحال كما ادّعاه . أن يقيهم شرّ تلك الأتعاب والأخطار . والطريقة يسيرة حسب قوله إذ يكفيه أن يشعر يوغرطة بوجوده صحبة سيلاّ لينثني عن كلّ عمل عدواني . ثمّ

إنّنا لانفهم ذلك الخوف الذي تسلّط على والك والذي تحدّث عنه صلّوست في الأسطر الأولى من الفقرة السادسة والمائة .

كلّها نقط تثبت وجود تناقض صريح في مواقف والك . والغريب أنّ صلّوست لم يقف عند ذلك التناقض كما لم يعره ستيفان اقزال اهتمامه لمّا تناول قضيّة يوغرطة في الجزء السابع من كتابه الخاص بتاريخ بلادنا القديم . بل مَرّ على تلك الأحداث المتناقضة مرّ الكرام . ولم يذكر صلّوست شيئا يثبت أنّ سيلاّ تفطّن لتناقض والك في مواقفه بين عشيّة وضحاها . أليس من الغريب أن يعمد الأمير الماوري إلى هذا التناقض الصريح دون إثارة حيرة في نفس النقيب ؟ بلى ! فلم لم يتعرّض إذن صلّوست لكلّ هاته المشاكل ؟ إنّه من العسير علينا الإجابة عن هذا السؤال بصفة قطعية . على أنّه في إمكان المؤرّخ أن يفترض ما قد يعلّل ذلك التناقض الصريح ويوقفنا على سرّ ما يثير الاستغراب .

فيمكن أن نتصوّر أنّ المؤرّخ الروماني قد اكتفى بتلخيص الأحداث ممّا جعله يحذف جزئيات هامة وبذلك بدت المواقف متناقضة غريبة ويكون التناقض في هذه الصورة تناقضاً ظاهرياً نشأ عن تلخيص الأحداث . وهنا ترون الخطر الذي يحدق بالباحث إن لم يكن ملمّاً بكل الجزئيات المتعلّقة بالمشكل الذي يريد بسطه وحلّه . ويمكن أن نتصوّر أيضاً

ان المؤرّخ ، فضلا عن الاختصار في سرد الأحداث ، زاغ عن الحقيقة التاريخية بذكر تفاصيل لاتنسجم مع منطق الأحداث نفسها بالرغم عمّا قد ترتديه من ألوان أدبية أو ملحمية . وبإضافة بعض التفاصيل الجزئية قد تتغيّر الأحداث التاريخية ويكون التناقض سيما إن لم يحسن الكاتب سبك الأشياء وإن لم يكن حريصاً على تنسيق الألوان التي تكسو لوحته .

ومهما يكن من أمر فلقد أدرك رَكب سِلاّ معسكر بكّوس كما أسلفنا . وكان بالمعسكر الماوري إذ ذاك أمير نوميدي يُدعى أسْبَرُ (Aspar) وقد أوفده يوغرطة على قول صلّوست حتّى يكون على علم كامل بما قد يدور بين سِلاّ وبكّوس . ذكر المؤرّخ الروماني هذا الحدث في الفقرة الثامنة والمائة من كتابه . وهو حدث هام لأنّه يجعلنا نشك في التفاصيل التي ذكرها صلّوست في الفقرة السابعة والمائة والمتعلقة بدهشة يوغرطة لمّا فوجئ بمرور سِلاّ علانية . وأثرت فيه الدهشة على حد قول صلّوست حتّى أعاقته عن الحركة . ولاشكّ أنّ ما قاله مؤرّخنا في شأن الأمير أسْبَرَ يتناقض تماماً مع ما ذكره في شأن يوغرطة ودهشته لمّا رأى والِكَ يرافق سِلاّ . ترون كيف ألقى بنا صلّوست في أجمةٍ من الأحداث المتشعّبة المتناقضة . فهل يمكننا الوقوف على درب الحقيقة التاريخية ؟

لقد أوفد يوغرطة الامير اسبر إلى معسكر بكّوس ليكون على علم بالمفاوضات الرومانية الماورية . وفي رأينا أنّه إذا تمكّن سِلاّ ورفاقه من المرور علانية أمام يوغرطة فلم تكن علّة ذلك قلّة جنود الملك النوميدي ولا دهشة عاقته عن كل عمل ولا وجود والك ابن بكّوس . بل من المرجّح لدينا أنّ الملك النوميدي كان على عِلم من الاتّصالات الرومانية الماورية وقد يكون بكّوس هو الذي أحاطه علما بها ملوّحاً بوجود حَلٍّ سلمي بالتفاوض مع العدوّ . ولعلّ يوغرطة نفسه كان طلب من بكّوس القيام بدور الوسيط بينه وبين الذين يريدون الفتك به . على أنّه لم يكن مطمئنّا كل الاطمئنان لصهره مِمّا جعله يوفد الأمير أسبر ليراقب عن كثب كل ما قد يجري بين سِلاّ وبكّوس . وكان بمعسكر بُكّوس ، عند حلول سِلاّ به ، أمير نوميدي آخر يُدْعَى دَبّارَ وهو ينتسب إلى عائلة مسّنيسا . وكان دَبّارْ (Dabar) من المخلصين إلى الرومان . فأرسله بكّوس في الحال إلى النقيب سِلاّ يعلمه باستعداده لتطبيق أوامر الشعب الروماني جميعها وأنّه يترك لِسِلاّ اختيار الزمان والمكان لعقد ملاقاة يقع فيها ضبط المشاكل التي ينبغي درسها . وأشار بكّوس إلى أسْبَرَ مَبْعوث يوغرطة وطلب من النقيب أن لايتحرّج وأن لايتخوّف من حضوره . فهي حيلة لجأ إليها قصد الوصول إلى حَلٍّ سريع .

إذ قد لايتردد الملك النوميدي في عرقلة أعمالهم في صورة إبعاد أسْبَرَ عن هذه المفاوضات . فحضور أسبرَ تكون فيه فائدة إذ قد ينخدع يوغرطة ويقع في الفخّ .

كان على دَبَارَ أن يوضّح الوضع ويفسّر موقف بكّوس وقد يبدو ملتوياً في أعين الرومان . وعلّق صلّوست على هذا الموقف قائلاً إنّ الملك الماوري لم يكن صادق الطوية وإنّ الأسباب التي ذكرها لتعليل وجود أسْبَرَ لهي من باب الخبث . إذ كان بكّوس في الحقيقة يتأرجح لايعلم هل من صالحه أن يسلّم يوغرطة إلى سِلاّ أوهل يمكّن يوغرطة من القبض على النقيب الروماني . غير أنّه توشيح لايتناسب مع الحقيقة التاريخية . بل يبدو أنّ المؤرّخ شعر بشيء من التناقض بين الأحداث التي أوردها في الفقرة السادسة والمائة والفقرات التي تلتها من كتابه الآنف الذكر. شعر بالتناقض فأراد استدراكه بشكوك أعرب عنها تجاه موقف الملك بكّوس .

لقد أشرنا إلى المهمة التي أنيطت بعهدة دَبَارَ والتي تتضمّن طمأنة النقيب الروماني . ولكن هل تسلّطت الحيرة على سِلاّ حتى كان بكّوس في حاجة إلى طمأنته مستعينا بأمير نوميدي عرف بإخلاصه تجاه الرومان ؟ لم يذكر المؤرّخ صلّوست شيئاً من ذلك ! إلاّ أنّه من العسير علينا فهم سياسة بكّوس ومواقفه إذا لم نفترض قلقا وحيرةً في نفس النقيب

نتيجة وجود الأمير أسْبَرَ بالمعسكر الماوري . وقد لايفهم سِلاّ موقف ملك يريد التفاوض والتعاون مع الرومان في حين أنّ معسكره يأوي رُسلا أوفدهم يوغرطة أكبر أعداء الرومان وقتئذ ! تلك افتراضات تساعد على فهم ما جاء في رواية صلّوست . وإن تبدُ لنا الأحداث في هاته الرواية عسيرة الفهم فذلك لأنّه لم يسهب في سردها وشرحها بل كان يقتصر على ذكر أهمّها في رأيه .

اتّصل الأمير دَبَارُ بِسِلاّ إذن وشرح له موقف بكّوس وأثبت أنّ وجود مبعوث يوغرطة قد يساعدهم على مغالطة النوميديين إذ قد يخيّل لهم أنّ بكّوس يقوم بدور الوسيط بينهم وبين الرومان قصد الوصول إلى حلّ سلميّ يضمن مصالح الرومان ويضمن حقوق يوغرطة .

وقد يكون بكّوس أيضاً عديم الاطمئنان إلى العهود الرومانية ولعلّه كان يخاف عدم الوصول إلى نتيجة مرضية بالتفاوض مع الرومان أو لعلّه كان يخشى أن لاتقبل السلطات الرومانية مبدأ التفاوض معه وقد تكون هذه التخوفات الشرعية عاملا يبعثه على التروّي حتّى لايمضي القطيعة مع ملك النوميديين قبل التثبّت من مَوْقِفِ الرومان تجاهه .

ترون كيف كانت سياسة بُكّوس عويصة متشعبة . أراد اللعب على حبلين في ظروف خطيرة . ولمّا أيّس باستعداد

الرومان للتفاوض معه بادر بشرح موقفه الملتوي شرحا جزئياً .
وقلنا جزئيّا لأنّه لم يقل لهم إنّه أبى إمضاء القطيعة مع
يوغرطة حتّى يكون قادراً على مجابهة الطواري . وأجاب سِلاّ
أنّه لايرى حرجاً والأمر كذلك في وجود أسبَرّ وحضوره بعض
الجلسات . على أنّه أعرب عن رغبته في مقابلة بكّوس رأساً
لرأس حتّى تطرح المشاكل السياسية والعسكرية بصراحة
ووضوح . وفيما يتعلق بالجلسة الأولى وهي التي سيحضرها
مبعوث يوغرطة فقد أشار النقيب بالجواب الذي يمكن لبكّوس
أن يدلي به حتّى يكون التخلّص من عون الملك النوميدي .

ولمّا كان مَوْعِدُ المقابلة الأولى أقبل سِلاّ على بكّوس
وأعلن أنّه مبعوث من طرف القائد ماريوس ليطّلع على
نوايا الملك الماوري وليتعرّف على موقفه إزاء الحرب والسلم .
وأجاب بكّوس وِفْقاً لما قد أشارَ بِهِ سِلاّ . حيث أفضى
أنّه لمّا يستقرّ أمره في هذا الشأن وطلب من سِلاّ أن يعود
إليه بعد عشرة أيام وعندها قد يعطيه الجواب الصريح .

وانتهت المقابلة بذلك وعاد سِلاّ وبكّوس كُل إلى
معسكره . ولمّا كان الظلام ومضى هزيع من الليل أرسل
بكّوس خفية إلى سِلاّ يدعوه. وكانت بينهما مقابلة لم
يحضرها إلاّ مترجمون مخلصون كما حضرها الأمير النوميدي
دَبَارُ وقد كان يتمتّع بثقة الرومان وثقة الملك الماوري .

وبادر بكّوس بالكلام متّجها إلى سِلاّ يعرب عن صداقته
وإخلاصه نحوه قائلا: إنّه يشعر بـ .ن حوه ولعلّه يشير هنا
إلى الظروف التي عاشها الوفد الماوري في معسكر النقيب
الروماني غداة سقوطهم بين أيدي قطّاع الطريق وكانوا
ينتمون كما أسلفنا إلى بني جدالة . أقبلوا عليه في حالة
يرثى لها فأكرمهم وأحسن مثواهم وساعدهم على الاتّصال بالقائد
الروماني . ثمّ أشار بكّوس أنّه لن يبخل بشيء عليه مهما
كان بل يضع كلّ مالديه من مال ورجال وأسلحة تحت
تصرّفه . ثم تخلص إلى القضية الأساسية وهي التفاوض مع
الجمهورية الرومانية وعقد سلم معها . فقال إنّه لم يقصد
البتة شنّ الحرب ضدّ الجيوش الرومانية وغاية ما قام به
هو الدفاع عن حدود مملكته . وفي الدفاع عنها لم يتردّد في
حمل السلاح مهما كانت الظروف . وأضاف أنّه ينثني
عن هذه السياسة الدفاعية إن كانت تلك رغبة الرومان . ولهم
أن يقاتلوا يوغرطة ويطاردوه حسب مشيئتهم ووعد أنّه
سوف لن يتجاوز في المستقبل نهر الملوية . وهو الفاصل بينه
وبين المملكة النوميدية منذ عهد مِسَّبْسَا (Micipsa) .
واتّجه مرة أخرى إلى سِلاّ وقال إنّه طوعُ أمره وسوف
لن يتردّد في إنجاز ما يمليه عليه واجبه إزاء الرومان .
ثُمّ أخذ النقيب سِلاّ الكلمة واتجه إلى بكّوس

بعبارات الشكر لما لمس فيه من صداقة ومحبّة ثمّ تخلّص
بشرح المهمّة التي أنيطت بعهدته ومضمونها عقد السلم
ووجود حلّ يناسب الملك الماوري ويتماشى والمصالح الرومانية .
وأوضح سـلاّ بكل صراحة أنّ الوعود التي يلتزم بها الملك
لاتكفي الرومان مؤونة ولاترى فيها السلطات الرومانية
ما قد يعرب عن الامتنان . فمن واجبه (أي من واجب بكّوس)
أن يقوم بعمل يبرز إخلاصه للرومان وتفانيه لمصالحهم .
وأضاف أنّ روما لاتعير أيّة قيمة لأعمال تتولّد عن وطأة
الظروف ولن ترى فيها الكفاية لربط علاقات وديّة مع
ملك بني ماور. ثمّ استطرد سـلاّ قائلا إنّ الجمهورية الرومانية
تودّ أن يقوم بكوس بعمل يثبت صدق طويته تجاه الرومان
وأكّد أنّها لاتطالبه بما لاطاقة له به إذ هي لاتطالبه
بشيء سوى مساعدتها على الإطاحة بيوغرطة وذلك بالقبض
عليه وتسليمه إلى القيادة الرومانية . فالأمر يسير وبه يتحصّل
بكّوس على صداقة الرومان . بل ويتحالفون معه ويمنحونه
قسطا وافراً من المملكة النوميدية .

ويبدو على حدّ قول صلّوست أنّ الملك الماوري رفض
في البداية ذلك الاقتراح الخطير مشيراً إلى الروابط العائلية
والمعاهدات التي تربطه بيوغرطة . كما أشار إلى النتائج الوخيمة
التي قد تنجرّ عن اقترافه الخيانة حيث أنّ ليوغرطة أنصاراً

في القبائل الماورية نفسها . وأنصاره يضمرون البغض للرومان
فهو أي بكّوس يخاف أن تتمرّد عليه القبائل وتشقّ عصا
الطاعة إذا ما شعرت بالخيانة المبيّتة وعلمت أنّ لبكّوس يداً
في تدبير المكيدة وهو الذي سلّمه لأعدائه وأعدائهم .

على أنّ سـلاّ عمد إلى إقناع الملك مستخدماً كل
ما أوتي من قوّة إغراء وحذق سياسي وألحّ حتّى حمله على
الموافقة . ذلك ما أورده صلّوست في الفقرة الحادية عشر والمائة
من كتابه . وليس من اليسير علينا أن نفرّق بين الأحداث
التاريخية والأحداث التي هي من وضع المؤرّخين . على كلّ
فقد وقع الاتّفاق في شأن يوغرطة والإطاحة به . وكانت
الطريقة المرسومة لإيقاعه في الفخّ تتضمن إشعاره كذباً
بأنّ الرومان قبلوا مبدأ التفاوض معه وله أن يشارك في
المحادثات الجارية بين سـلاّ وبكّوس . والمعلوم أنّ يوغرطة
كان يرغب في عقد السلم والتفاوض . تمّ كذلك سبك الأحبولة
بين سـلاّ وبكّوس واتجّه كل إلى فسطاطه ريثما يحين
وقت العمل .

وفي اليوم التالي دعا بكّوس أسْبَرَ مبعوث يوغرطة .
ولمّا دخل عليه تحدّث له عن شؤون الحرب قائلا: إنّه اتصّل
بالنقيب سـلاّ عن طريق الأمير دَبَارَ وعلم أنّ الرومان
لايرفضون مبدأ التفاوض لوضع حدّ للحرب إذا توفّرت

بعض الشروط . ثمّ طلب منه أن يلتحق بالملك يوغرطة قصد التشاور معه والاطّلاع على نواياه في هذا الشأن . فاستبشر أسْبَرُ وركب في الحال جواده متجّها نحو معسكر يوغرطة . ولم تمض إلاّ ثمانية أيام حتّى رجع إلى الديار الماورية وأشعر بكّوس باستعداد يوغرطة لقبول ما قد يشترطه الرومان . على أنّه لايطمئنّ لماريوس . وذكّرَ أنّه أبرم أكثر من معاهدةٍ مع القيادة الرومانية قبل حلول ماريوس بإفريقية . أبرمها قصد الوصول إلى حلٍّ سلمي لكنّها معاهدات بقيت جميعها حبراً على ورقٍ . ذكّر يوغرطة بهذه التفاصيل كي لايغترَّ بكّوس بوعود سلاّ ولا يمضي معاهدةً إلاّ إذا تحصّل على ضماناتٍ ملموسةٍ . يمكن الوثوق بها .

ولئن أطنب يوغرطة في التذكير ببعض الأحداث فذلك ينبيء بانخداعه لبكّوس . فلم يكن الملك النوميدي ليتوقّع أحبولةً يُعدّها صهره للإطاحة به . على كلٍّ فقد أعرب يوغرطة عن استعداده لقبول مبدأ التفاوض مع الرومان لكنّه كان يؤمن مسبّقاً أنّهم سوف لايحترمون وعودهم ولايطبّقون أمراً من معاهداتهم . ثمّ أعرب يوغرطة عن ارتياحه للدور الذي يقوم به حليفه قصد الوصول إلى سلمٍ حقيقيةٍ غير أنّه أضاف على حدّ قول صلّوست أنّه لايمكن الوصول إلى سلم حقيقية إلاّ بالقبض على سلاّ وأشار أنّه في إمكان

بكّوس عقد جلسة يلتقي فيها الأطراف المعنية بالأمر وبذلك يكون سلاّ في قبضته . وبسقوط سلاّ في قبضة يوغرطة تكون السلطات الرومانية مجبورة على التفاوض ووضع حدٍّ لسياستها التوسعية . بل قد تراها تضحّي بسياستها قصد الافراج على رجل سقط في قبضة العدوّ من جرّاء حبّه وتفانيه لروما . تلك هي النظرية التي نسبها صلّوست للملك يوغرطة . وردت تفاصيلها في الفقرة الثانية عشر والمائة من الكتاب الآنف الذكر . على أنّها تبدو لنا من وضع المؤرّخ . وليس لسياسة كالتي تستهدف القبض على سلاّ لتسفر عن سلم حقيقية والمعلوم أنّ يوغرطة كان شاعراً بانهيار قواه شعوراً كاملا حتّى أصبح يفتّش عن الطرق الدّافعة إلى السلم مهما كانت الشروط. نحن لانشكّ في صدق يوغرطة فيما يتعلّق برغبته في التفاوض لكنّه يحقّ لنا أن نعتبر ما نسبه إليه صلّوست في شأن سلاّ من باب الخيال ولا علاقة له بالواقع التاريخي . وما كان صلّوست ليتردّد في الانحراف عن الحقيقة التاريخية بإكساء الأحداث حلّة أدبيّةً حسب ما قد يتطلّبه الأسلوب القصصي وطبقاً لصورة وأهدافٍ رسمها المؤرّخ مسبّقاً . فقد يدخل على الأحداث والظروف ما لايستوعبه الواقع التاريخي كي تكون الصورة التي يريدها وكي يدرك الأهداف التي يتوق إليها مهما ابتعدت عن التاريخ .

ولكن فلنتتبّع الأحداث كما أوردها صلّوست حيث يقول: إنّ بكّوس بعد تردّد طويل قبل اقتراح صهره وهنا يتساءل المؤرّخ الناقد حول ذلك التردّد وقد لايدري هل كان تردّد بكوس حقيقياً أم ترى كان يتظاهر بالتردّد. ثمّ يعلّق صلّوست أنّ بكّوس لايعرف الاستقرار ولا يستقرّ له أمر" حتّى كنت تراه يتخبّط في المتناقضات الفادحة . تراه يوافق على شيء بكل حماسٍ ويفعل ما يناقضه . فهذا بكّوس يستقبل سيلاّ تارةً ويستقبل أسْبَرَ طوراً ، ويعرب لكليهما عن حسن استعداده وإخلاصه حتّى كان سيلاّ يعتقد أنّه سيتمكن من القبض على يوغرطة وكان أسبَرَ يؤمن أنّ سيلاّ سيقع في الفخ عن قريب. ذلك ، على كلّ ، مايدّعيه صلّوصت في الفقرة الثالثة عشر والمائة من كتابه المعروف . ويضيف المؤرّخ الروماني أنْ كلاًّ من أسبَرَ وسيلاّ كان يتّقد غبطة .
وفي الليلة التي سبقت اليوم الموعود استحضر بكّوس ذويه وأقاربه علّه كان يبغي إطلاعهم على ما استقرّ أمره عليه . لكنّه أحجم وأشار أن ينصرفوا . ويثبت صلّوست أنّ الملك الماوري كان يتخبّط إذ ذاك بين خواطر متشعّبة متناقضة بل كان لعبةً تتقاذفها تلك الخواطر وكان أثر ذلك منعكسا على محيّاه .

* الخديعة الشنعاء ونهاية يوغرطة :

وبعد أخذٍ وردٍّ أرسل بكّوس إلى النقيب الروماني يستقدمه واتّفق معه حول الظروف التي يقع فيها القبض على يوغرطة . واستقرّ الأمر على أن ينصب كمين في طريق الملك النوميدي حتّى يسقط في قبضة سيلاّ من حيث لايدري. وكان اليوم المشؤوم وأقبل بعضهم على بكّوس يحيطونه علماً باقتراب يوغرطة وركبه فخرج الملك الماوري صحبة ثلّة من المقرّبين ومن بينهم سيلاّ وكأنّهم أتوا جميعـا يستقبلونه بكلّ حفاوةٍ وإجلال واتّجه بكّوس وصحبه نحو هضبة بالقرب من الذين اختفوا بأمر من بكّوس نفسه حتّى يتمكّنوا عند الأوان من الارتماء على يوغرطة وركبه فجأةً. واتّجه الملك النوميدي نحو الهضبة نفسها صحبة عدد كبير من المقرّبين عنده كلّهم عزّل حسب الاتفاق .
كانوا يقتربون من الهضبة فإذا بنفرٍ من الجنود يحملون عليهم من كلّ صوبٍ وقتّلوا كل الذين كانوا صحبة الملك النوميدي . أمّا يوغرطة فقد غلّلوه وسلّموه إلى النقيب الروماني فأتى به توًّا إلى القائد ماريوس ، وبالقبض على يوغرطة كانت نهاية الحرب. وليس فيها ما قد يفتخر به الرومان لأنهم لم يتغلّبوا على عدوّهم الافريقي إلاّ عن طريق الخبث والخيانة وهي أساليب تأباها المروءة وتأباها الشهامة .

ولعلّ بعض المؤرّخين الرومان قد شعروا بدناءة الأسلوب فحاولوا تخفيف الوطأة مدّعين أنّ الملك النوميدي كان هو الآخر يريد التغلّب بنفس الأساليب . أراد يوغرطة حسب هؤلاء المؤرّخين حفر جُبٍّ لسِلاّ فوقع فيه إلاّ أنّها في رأينا دعاية لاعلاقة لها بالواقع التاريخي بل وضعها الرومان تبريراً لموقفهم الرذيل .

سقط يوغرطة وكان ضحيّة خيانةٍ كبرى في صائفة سنة 105 قبل ميلاد عيسى . وتسلّمه القائد ماريوس وبذلك وضعت حرب يوغرطة أوزارها على حدّ قول المؤرّخين القدماء . وممّا يثير الاستغراب أنّهم لم يتعرّضوا إلى أصداء ذلك الحدث الخطير بين القبائل الافريقية . كيف تلقّى النوميديون خبر سقوط ملكهم ؟ هل استسلموا إلى الأمر المقضي ؟ هل حاولوا مجابهة الوضع ؟ لاشكّ أنّ أنصار يوغرطة قد تألّموا من صاعقة ذلك الخبر الذي فاجأهم. فكيف كان ردّ فعلهم ؟ كلّها أسئلة لم تجب عنها المصادر القديمة .

على أنّ ماريوس لم يأخذ طريق العودة إلى روما غداة سقوط يوغرطة بل مكث بإفريقية إلى منتهى سنة 105 قبل المسيح . أي ما يقرب من أربعة أشهر . ويقول ستيفان اقزال إنّ ماريوس بقي بإفريقية لتصفية الوضع بالمملكة النوميدية . ولا شكّ أنّه قضّى غالب تلك المدّة في مجابهة القبائل النوميدية

المناصرة ليوغرطة . لكنّنا لانستطيع الحديث حول تلك الأحداث نظراً لصمت المؤرّخين عنها . ولا نعلم بكلّ دقّة هل كان ذلك الصمت من باب الصدف التاريخية كضياع المصادر التي تناولت تلك الفترة بالبحث أم هو صمتٌ مقصود حيث كان المؤرّخ الروماني الملتزم يكره الحديث حول مثل تلك المواضيع حتّى يذهب في اعتقاد القارئ أنّ يوغرطة لم يكن محبوباً بين ذويه .

فقد يخيَّلُ إلينا إذن أنّ الحرب انتهت بسقوط يوغرطة . وهذا أمر لانؤمن به وإن لم تكن لنا وثائق دامغة تثبت عكسه . على كُلٍّ فقد رجع ماريوس إلى روماَ بجيشه مظفّراً وإن لم تكن طريقة القبض على الملك النوميدي تدعو إلى التفاخر والتباهي . فهو عمل بل فعلة وليدة الخبث والخديعة وليست وليدة الحذق والشجاعة . كلّ ذلك لم يمنع القائد ماريوس من الاحتفال بانتصاره حيث طاف بشوارع روما على رأس موكبٍ رهيب في غرّة جانفي 104 قبل الميلاد . وكان استعراض الغنيمة التي أتى بها ماريوس من افريقية ، منها نقود وسبائك من ذهب وفضّة . فكميّة الذهب كان وزنها 3007 رطل وأمّا سبائك الفضّة فوزنها 5775 رطل وكانت النقود دراهم فضيّة يبلغ عددها 17028 . لقد أورد هذه الأرقام اليوناني بلوطارق «Plutarque» كان ماريوس يتقدّم الموكب على عجلته وكان يوغرطة راجلا

أمام العجلة وحوله اثنان من أبنائه . ولما انتهى الحفل زُجّ بيوغرطة في سجن يعرف باسم التُلْيَانوم «Tullianum» وكان يوجد تحت معبد الكبتول (112) بروما . ويذكر بعض المؤرّخين أنّ يوغرطة جُنّ تحت وطأة الظروف ويذكر التاريخ أنّ الذين كلّفهم ماريوس بإلقائه في السجن أخذوا منه مئزره بل وقطّعوا أذُنَه ليأخذوا قرطه ودفعوه في ظلام السجن عارياً حتّى كان يرتعد من البرد فقال : « بحق هرقل ما أبرد بيت الاستحمام عندكم ! »

وبقي ستة أيام يتصارع مع الجوع ثمّ أمر القائد ماريوس بإعدامه خنقاً . كذلك انتهت إحدى الملاحم التي عاشتها بلادنا في سبيل الحريّة . وكذلك كانت نهاية رجل وعى القضيّة الافريقية وعياً كاملاً جعله رغم تشبّعه بالحضارة الرومانية يقف في وجه روما وجبروتها . وقد أيقن أنّ الرومان أتوا افريقية لا لهدف سوى التسلّط عليها سياسيًّا وعسكريًّا حتّى تكون لهم عيناً تغدق عليهم بخيراتها . لقد اتوها ليبتزّوا ماتحتويه من وسائل العيش والثراء . وعي يوغرطة القضيّة الافريقية وعيا كاملا فناضل في سبيلها حتّى تغلّبت عليه روما بالخبث والخيانة وذهب ضحيّة مشاعره النبيلة وحبّه للوطن ، لكنّه بقي رمزاً للنضال والتضحية في سبيل الحرية والكرامة .

(112) الكبتول هو معبد خاص بعبادة جبتار «Jupiter» ويونون Junon (وهي زوجة جبتار) ومينرفة Minerve ابنة جبتار . ويتمتع هذا الثالوث الروماني بالمرتبة الاولى في مجمع آلهة روما .

الفهـــــرس